جامعة الخليل

عمادة الدراسات العليا

قسم اللغة العربية

المدائح النبوية في شعر الدولتين الزنكية والأيوبية وأثرها في العصور اللاحقة

إعداد: طلال عبد الرحيم طلب أبو شيخة

المشرف

أ.د. حسن عبد الهادي

1426 هـ - 2005 م

المقدّمة :

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وأوجد له اللسان ليكون دليلا على الجنان، وخطّ ببنانه البيان، ليعبّر عن حاله في كلّ الأزمان، والصّلاة والسلام على خير المرسلين، هادي البشريّة جمعاء نحو الرّشاد والسؤدد والخير إلى يوم المعاد،وبعد،

فإنّ حبّ النبيّ من أخصّ خصوصيّات المسلم، به يستطيع أن ينال الشفاعة، ومن خلاله يرقى إلى أعلى الدّرجات، إن هو تمسّك بهديه وسنته، ومهما حاول الإنسان أنّ يثني على الرّسول، فإن القصور سيلاحقه نظرا لعلوّ رتبة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، فعندما دعانيّ الحبّ النبويّ، لبّيت مباشرة، فوجدت نفسي أمام مديحه من قبل الشعراء، فالنبيّ مدح منذ غابر الأزمان ، ورطّب الشعراء عليه ألسنتهم بالثناء ، حيث تفنّنوا وبرعوا ، وجادت قرائحهم بصنوف شتى من المدائح التي بقيت خالدة في الأذهان والعقول نظرا لقوّة الوشيجة التي تربطها بسيّد الأمة.

وعبر تاريخ آدابنا العربيّة منذ الجاهليّة حتى العصر الحديث،وجد كثير من الباحثين الذين تناولوا المدائح النبوية في العصور الأدبيّة المختلفة، حيث تعرّضوا لمفردات تلك المدائح، وبيّنوا ما تمتاز به من خصائص فنيّة جعلتها وأصحابها يصلون إلى الرتب العليا، على صعيد الشعراء وشاعريتهم ، وعلى صعيد فنهم ونظمهم، ولكنني وجدت فترة تعدّ من أحلك الفترات التي عصفت بالمسلمين خطورة وتأزما، فقد كان للمدائح النبويّة أثرها البارز في تلك الأحداث ومجرياتها، فبعد خطر الصليب الدّاهم، وفي ظلّ غياب الحاكم المسلم الذي يرعى مصالح الأمّة ، نجد أنّ الشعراء هرعوا لمدح الرسول وفرّوا إليه ليخلصهم مما ألمّ بهم،ونشطوا في بعث الحميّة في نفوس الأمّة عبر استحضار شخص الرسول - من خلال صفاته وأخلاقه ومعجزاته، وصحابته ومعاركه - حيث قاموا ببثّ آيات الشكوى طلبا للخلاص، ورغبة في تقوية النزعات الإيمانيّة عند أفراد الأمّة عندما ساورتهم الشكوك، وأصبحوا في ضنك من العيش،جاءت المدائح النبويّة لترسم لنا لوحات فنيّة بمبناها ومعناها،وأقصد بذلك فترة الحروب الصليبيّة، وأخصّ تحديدا عصر الزنكيين والأيّوبيين، فقد تغافل الباحثون عنه كثيرا، وإذا ما تعرّضوا للمدائح النبويّة فيه ، فإنهم

يمرّون عليه مرور الكرام، لذلك وجدتها فرصة ملائمة لخدمة الرسول من جهة، واستجلاء موقف الشعراء الذين مدحوه ـ في العصرين الزنكي والأيّوبيّ ـ من جهة ثانية، وذلك من خلال التعرّف إلى تلك الأشعار عن قرب، من حيث الكمّ والكيف، مبرزا جوانبها الفنيّة والجماليّة، عساني أبلغ الهدف من خلال دراسة علميّة جادة ، وبذلك أسدّ ولو القليل من تلك الثغرة.

ومما قوّى الرغبة في إقامة هذه الدّراسة هي سلسلة الطعون التي وجّهت لذينك العصرين، حيث وسما بالانحطاط على صعيد الشعر، والتخلّف والتراجع على صعيد الشعراء، وقد رغبت في أن أبيّن مهمّة المدائح النبوّيّة على الصعيد السّياسيّ ، وأبيّن أنّ الشعراء ساروا موافقين لأبهى العصور الإسلاميّة في صناعة الشعر، حتى غدت المدائح النبويّة من الشهرة ما لا يدعو مجالا للشكّ على قدرة الشعراء وتميّزهم في إيصال رسالتهم، محاولة منهم لرفع الوصب والمخمصة عمّا لحق بالأمّة، وهذا ما يقوم به الشعراء عندما يأخذون على عاتقهم أمانة المسؤوليّة في حمل الهموم والتعبير عنها بكلّ أريحيّة.

والدّراسات السّابقة التي تناولت المدائح النبويّة في هذين العصرين قليلة، وإن وجدت فهي لم تتناول الموضوع بشكل مفصّل،وإنما جاءت عامّة تتناول موضوع المدائح منذ فجر الإسلام، حتى بدايات العصر الحديث كما فعل المرحوم زكي مبارك في (المدائح النبويّة في الأدب العربيّ) وهي فاتحة الدراسات التي تخصّ فنّ المدائح في أدبنا العربيّ، فقد اعتمدت الدّراسات التي جاءت بعدها عليها، ودراسة محمود علي مكي التي عنونها بـ (أدبيّات المدائح النبويّة)، ومن الدّراسات المتخصّصة ولكنها اقتصرت على العصر المملوكي دراسة غازي شبيب(فنّ المديح النبويّ في العصر المملوكيّ)، ودراسة محمود سالم محمد بعنوان(المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي) ، ودراسة حلمي القاعود (محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث) ، و مخيمر صالح التي جاءت على شكل موازنة بين شاعرين عاشا في عصرين متقاربين، وحملت عنوان (المدائح النبويّة بين الصرصريّ والبوصيريّ)، ودراسة ناظم رشيد وعنونها بـ (المدائح النبويّة في أدب القرنين السّادس والسّابع للهجرة) وهي دراسة قريبة إلى حدّ ما من هذه الدّراسة، إلا أنّ صاحبها قد عني بذكر أشهر الشعراء الذين نظموا في المدائح النبويّة في العصرين، وأورد أمثلة

ونصوصا شعريّة على فنّ المديح عندهم دون الغوص في أعماق النصوص بالتحليل والدّرس.

وتدخل هذه الدّراسة في مجال التحليل والتمحيص، ومعاينة الشعراء، ومحورها الأساس قصيدة المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيّوبيّ، من خلال منهج تكامليّ قصدت من ورائه النصّ الشعريّ وقائله وتلك المؤثرات التي تعرّض لها الشعراء عند نظم المدحة النبويّة.

واعتمدت في جمع مادة البحث وتوثيقها على دواوين الشعراء ومصادر الأدب المتنوّعة، منها النقديّة والبلاغيّة، وكتب التراجم القديمة والحديثة ، هذا بالإضافة إلى مجموعة من المراجع الحديثة التي تخدم البحث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسّمه إلى أربعة فصول مسبوقة بتمهيد موجز تحدّثت فيه عن الزنكيين والأيّوبيين من خلال الأحداث الجسام وموقف أشهر القادة وأسباب تكالب الصليبيين على أرض العالم الإسلامي ومدى حرص القادة على تشجيع العلم والشعر، وصدى الأحداث في شعر العصرين خاصّة المدائح النبويّة، وأوردت في باب الملحق قائمة بأشهر شعراء العصرين ممن نظم في المديح النبوي ، وجاءوا مرتّبين ترتيبا زمنيّا، وعددت صفوان بن إدريس وابن جبير من شعراء المشرق لأنهم عاشوا وماتوا وهم متعلقون بالمشرق.

خصّصت الفصل الأوّل للحديث عن مديح الرسول في فجر الإسلام، حيث كان الرسول حيّا بين ظهراني العرب والمسلمين، حيث نشط المدّاح كأبي طالب والأعشى، وحسّان بن ثابت وغيرهم من الشعراء في العصور التي تلت عند الأمويين والعباسيين ، حيث تميّز شعر هذه المرحلة بالذود عن الرّسول والإسلام ، والوقوف صفا ضدّ الشرك وأعوانه، هذا بالنسبة للمسلمين، ومحاولة الحصول على مكاسب خاصّة الماليّة منها عند بعض الشعراء من أمثال الأعشى .

أمّا الفصل الثاني فقد تحدّثت فيه عن عناصر المدحة النبويّة في شعر العصرين الزّنكي والأيّوبي، من حيث المقدّمة التي اشتملت على نواح تجديديّة من حيث دخول المقدّمة

الحجازيّة، وعرض القصيدة الذي تكوّن من مجموعة كبيرة من المفردات التي لم تكن موجودة في قصائد المديح التي سبقت، وخاتمة القصيدة بما حوت من توجّه إلى الرسول مع استخدام التوسل كوسيلة للوصول وتبليغ المطلوب..

كما خصّصت الفصل الثالث للحديث عن أثر المدائح النبويّة في العصرين الزنكي والأيّوبيّ فيمن جاء بعدها من العصور وصولا إلى العصر الحاضر، حيث تناولت أشهر الشعراء الذين نظموا في المدائح النبويّة، مستعرضا بعض الجوانب التي تأثروا فيها بشعراء العصرين، ومتحدّثا عن أوجه التميّز، وبمن تأثروا من شعراء الزنكيين والأيّوبيين، مبرزا بعض الخصائص والمزايا.

أمّا الفصل الرّابع فجعلته للحديث عن التشكيل الفنّي في قصيدة المديح النبويّ في العصرين الزّنكي والأيّوبيّ وذلك من حيث الأسلوب الشائع، واللغة التي استخدمها الشعراء في العصرين، وهل وافقت روح العصرين؟ ، والصور الفنيّة من حيث المصادر التي اعتمدتها ،وكذلك الخيال، والموسيقى التي حافظ فيها الشعراء على أوزان الشعر وقوافيه، ثمّ التواصل بالتراث ـ التناص أو التضمين النصّي، إذ تميّزت قصيدة المديح النبويّ في العصرين بأنها جاءت على غرار القصيدة العربيّة، وهو دليل على تأثر الشعراء بالموروث العربيّ الأصيل.

ومن الصّعوبات التي واجهتني في هذا البحث، قلّة المصادر والمراجع التي تتناوله في المكتبات العامّة والخاصّة، وقلة الدواوين الموجودة في البلاد مما استدعاني إلى السفر باحثا عنها في الدول المجاورة.

والله أسأل أن تكون هذه الدّراسة خالصة لوجهه، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت، وأن ينتفع بها طلاب الأدب ، كما أطلب من ربي أن يغفر لي تقصيري، وأن يعينني على تدارك سقطتي و زلتي، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

كرمة ـ دورا ـ الخليل (1426هـ 2005م)

الباحث:

طلال عبد الرحيم أبوشيخة.

التمهيد :

العصران الزنكيّ والأيّوبيّ (492 - 662هـ)

لقد تشابكت الأحداث السياسيّة في مشرق العالم الإسلامي في أخريات القرن الخامس الهجري، وكان ذلك على صعيدين،الصّعيد الدّاخلي حيث تفرّق الحكام،وتشتت المسلمين على شكل دويلات متصارعة ، كان هدف الحكام فيها واحدا وهو توطيد أركان حكمهم وبسط سيطرتهم ونفوذهم، حيث كان هذا الهدف الأسمى المقصود، أمّا الصعيد الخارجي فتمثل في تلك المحاولات الغاشمة التي تمثلت فيما يعرف بالحروب الصليبيّة التي عرّفها سعيد عبد الفتاح عاشور بقوله: " حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوربي المسيحي، في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربيّ استعماريّ على بلاد المسلمين، وبخاصّة في الشرق الأدنى، بقصد امتلاكها "([1]).

من ذلك التعريف يمكن الاستدلال بأنّ الهدف الذي سعت إلى تحقيقه تلك الحروب، كان هدفا دينيّا بالدرجة الأولى، فقد هدف هؤلاء الصليبيّون إلى محو معالم المسلمين، وتدمير مقدّساتهم،وتدنيسها وليس أدلّ على ذلك ما فعلوه ببيت المقدس عندما اتخذوا المسجد الأقصى اسطبلا لخيولهم، وعملوا على النيل من دينهم، فضلا عن سلسلة الإطاحة بالنفوس التي حدثت في كنف الأقصى وبيت المقدس، وجاء ذلك من أجل إنقاذ قبر السيّد المسيح من حكم المسلمين كما كانوا يدّعون.

وهناك عوامل أخرى ذكرها المؤرّخون والباحثون منها ما هو اقتصادي، واجتماعي، وسياسيّ ([2]) ،تضافرت جميعا من أجل تحقيق الأطماع، وسهّل مهمّة الصليبيين الانقسام الحادث في صفوف المسلمين، وغياب التنسيق بين حكامهم ، فضلا عن تضعضع الخلافة في بغداد الرّشيد؛ لأنّ الخلفاء انشغلوا بتحقيق مآربهم، وعكفوا على التلذذ بأهوائهم مع ترك شؤون المسلمين لمن هو عاجز عن القيام بها.

---

[1] ـ **الحركة الصليبيّة**، 25/1.

[2] ـ لمزيد من التوسّع في تلك الأهداف، ينظر عبد اللطيف حمزة، **أدب الحروب الصليبيّة**،16. و محمد علي الهرفي، **شعر الجهاد في أدب الحروب الصليبيّة**، 37. و عمر عبد الرحمن السّاريسي، **نصوص من أدب عصر الحروب الصّليبيّة ـ دراسة وتحليل ـ** 14-15.

ومهما يكن من أمر فإنّ الله يقيّض في كلّ زمان ومكان رجالا يذودون بما أوتوا من قوّة عن حمى الإسلام والمسلمين، فالأمّة الإسلاميّة أمّة ولّادة، وأبناؤها يحملون الغيرة على أمّتهم ودينهم وحياضهم، لذلك نجد في كلّ عصر رجالا نذروا أنفسهم من أجلها، منذ الفتن الأولى التي عصفت بالمسلمين من بعد موت الرّسول مرورا بعماد الدين([1]) ، ونور الدين([2]) زنكي ([3])،وصلاح الدين الأيّوبيّ، وصولا إلى العصر الحديث، وإلى ما شاء الله، فهذا عماد الدين الذي عمل على توحيد الإمارات تحت حكمه، أخذ يهاجم الفرنج ليستردّ منهم الرّها([4]) سنة (539هـ) وهي عاصمة أوّل إمارة للصليبيين في المشرق،([5]) وهذا نور الدين محمود زنكي يرفع شكايته إلى الخليفة العاضد ضدّ شاور وظلمه وتحالفه مع الفرنجة لتحقيق ما يصبو إليه، وتوطيد دعائم حكمه،وظلّ يقارع الصليبيين حتى أخرجهم من الشام، وعادت الشام بكاملها ملكا للمسلمين ([6])،وتمّ ذلك بعد محاصرة دمشق،وتسلمه لها صلحا، وقد وجد فيها من الحكام الذين تعاونوا مع الصّليبيين،وكان ذلك سنة خمسمائة وتسع وأربعين هجرية ([7])، وهو من جهّز الحملات إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه الذي أصبح وزيرا من قبل الخليفة الفاطمي العاضد ، وبعد وفاته تسلم الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيّوبيّ، الذي أعاد مصر إلى الخلافة العبّاسيّة بعد أن ألغى حكم الفاطميين فيها ([8])،وكان ذلك بوفاة العاضد حيث تمّ لصلاح الدين ما أراد ([9]) ،

---

[1] ـ كان حسن الصورة، أسمر اللون، ملح العينين، وخطه الشيب وكان قد زاد عمره ستين سنة، كان شديد الهيبة على عسكره، ملك الشام خلا دمشق، وكانت الأعداء تحيط به من كلّ جهة، ولكنه كان ينتصر عليهم، ويستولي على بلادهم، ولمّا قتل كان ولده نور الدّين حاضرا عنده، وأخذ خاتم والده وهو ميت. ابن فضل الله العمريّ، **مسالك الأبصار**، 27. مخطوطة محفوظة في الجامعة الأردنيّة تحت رقم (1066) .

[2] ـ ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة، نشأ بالعراق، ملك حلب بعد وفاة جدّه آق سنقر ولي حلب، امتاز بعدله، وإصلاحاته ببناء المدارس والمساجد، كان شجاعا ثابت القدم ضدّ الأعداء، كان يتحرّى العدل والإنصاف، مات سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بدمشق. ينظر أبو شامة المقدسيّ، **كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصّلاحيّة**، 1/96-138.

[3] ـ زنكي: كلمة تعني الشاطر، وهي معربة من اللغة الفارسيّة . آدي شير، **معجم الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**،81.

[4] ـ الرّها أو الرّهاء: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، سميت باسم الذي استحدثها الرّهاء بن البلندى بن مالك. ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، 3/106- 107.

[5] ـ ينظر أبو شامة المقدسيّ، **كتاب الروضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة**،1/170-178.

[6] ـ ينظر ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل**، 108.

[7] ـ ينظر ابن قاضي شهبة ، **الكواكب الدريّة**، 130.

[8] ـ ينظر ابن الأثير ، **التاريخ الباهر** ، 162.

[9] ـ ينظر أحمد إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، 9.

وعندما توفي نور الدين،رثاه الشعراء رثاء كثيرا ([1]) ،وقد أثنوا على أصله، وذكروا أباه وجدّه، ومن الشعراء الذين أكثروا من مدحه ابن منير الطرابلسي ([2]) .

ويخلف نور الدّين ولده الصالح إسماعيل، حيث كان صغيرا عند وفاة والده،ونتيجة لتفرّق أهواء الأمراء الذين كانوا يتولون شؤون الحكم، طمع الفرنج، وأرسل صلاح الدين رسالة يطلب فيها من الصالح إسماعيل أن يقيم الخطبة له بمصر ويضرب السكة باسمه([3])، وظلّ الأمر على ما هو عليه حتى وفاة الصالح إسماعيل سنة خمسمائة وتسع وسبعين هجرية، وبذلك استولى صلاح الدين على مصر والشام ، وكانت نهاية الحكم الزنكي ([4]) .

وتأتي الدولة الأيّوبيّة ([5])، ويقف على رأسها السلطان المظفر صلاح الدين الأيّوبيّ، الذي وحّد المسلمين وحرّر البلاد والعباد من أذى الصليبيين، ففترة حكمه التي دامت أربعا وعشرين سنة، قضاها كلها في حروب وانتصارات ، وكانت أعظم تلك الانتصارات في سوريا وبلاد الشام وفلسطين، وأعظمها على الإطلاق انتصاره في حطين ، حيث أخضع الأرض المقدّسة بأسرها، وعندما انتصر على ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، طار اسمه في أوروبا، حيث تردد على كلّ لسان فيها ([6]) .

وقد حمل صلاح الدّين من الصفات التي أهلته أن يحتل مكانة بارزة على الصعيد الأدبي من ناحية ، وعلى الصعيد القيادي من ناحية أخرى، فهو من خلص العالم الإسلاميّ من كوارث داخليّة وخارجيّة كادت تعصف به وتوقعه في شراك الأعداء، فقد كان سياسيّا فذا من الطراز الرّفيع، وقائدا محنكا ، محبا للعلم والعلماء، مخلصا ووفيا للأصدقاء والأعداء، فما عرف عنه أنه نقض عهدا قطعه على نفسه البتة، وامتاز عهده بالرّخاء على الصعيد الاقتصاديّ والعمرانيّ ، وبنى الكثير من المدارس، ونهضت في ظله الحركة

---

[1] ـ ينظر أبو شامة المقدسي، **كتاب الروضتين**،1/ 128-138. وابن منير الطرابلسي، **الديوان**،تحقيق عمر عبد السّلام تدمري، صفحات متفرّقة من الدّيوان.

[2] ـ ينظر محمود فايز السّرطاوي، **نور الدّين زنكي في الأدب العربيّ في عصر الحروب الصّليبيّة**، 46-47.

[3] ـ ينظر ابن واصل، **مفرّج الكروب**، 4/2.

[4] ـ ينظر ابن شدّاد ، **النوادر السلطانيّة**، 59.

[5] ـ يرجع الأيّوبيّون في نسبهم إلى الجدّ شادي ، وهم من الأكراد الرواذيّة ، عاشوا في بلدة دوين في أذربيجان . ينظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**، 3/6- 4.

[6] ـ ينظر أحمد بن إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، 18.

العلميّة، لذا يعدّ عصره من أبهى العصور، اتكأ صلاح الدين على هيئة من المستشارين الذين تميّزوا برجاحة العقل، وسداد الرأي، مكنته من ترسيخ دعائم الحكم، والنهوض بالبلاد والعباد([1]).

ويكفي صلاح الدين تلك الفتوحات التي كانت وبالا على الصليبيين، و كانت سيفا مسلّطا على رقابهم، والأمثلة التي تورد جوانب من سيرته وتدلّل على بطولته ، وتنشر تجربته الجهاديّة ، ما ذكره العماد الأصفهاني الكاتب من صفات الجنود الذين تخيّرهم للتحرير والفتح ، فقال : " كتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهّل للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضر والبدو، وبرز من دمشق يوم السبت مستهلّ! المحرم قبل استنجاد الجنود، واستحشاد الحشود، وإصحار الأسود وإحضار البيض والسّود، مضيء العزّ، ماضي العزم، صائب السهم، ثابت الفهم، ثابت السعود، كابت الحسود " ([2]).

وقد تتبّع الأصفهاني فتوحات صلاح الدين، حيث البقاع التي أعمل فيها سيوفه، والحصون والقلاع التي كانت محصّنة، ولكن بفضل حسن التدبير، جاء التحرير ، ولاذ الصليب فارّا هاربا من حيث أتى ([3]) ،ولكن سرعان ما عاد بعد غياب البطل الهمام، وتفرّق الصحب الكرام.

ولكن بموت صلاح الدين دبّ الخلاف والشقاق بين من خلفه من الأبناء الثلاثة، وأخيه وأقاربه، فاستقلت مصر تحت قيادة ابنه عبد العزيز، واقتطع ابنه الأفضل دمشق وسوريا الوسطى ، واستقلّ ابنه الظاهر بحلب ، وأمّا أخوه العادل فقد تولى حكم العراق وديار بكر والرّها، وقد وقعت حماة وحمص وبعلبك واليمن تحت إمرة أبناء عمومته ([4])،وبذلك نرى أنّ ما جاهد من أجله صلاح الدين أهلكه ورثته في طرفة عين، مما جعل البلاد عرضة لخطر داهم وجديد، وبذلك كانت الفرصة سانحة لهجوم التتار على البلاد في ظلّ غفلة المسلمين، حيث تمكنوا من قتل خليفة المسلمين في بغداد الرشيد، وما دخلوا منطقة إلا

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 19- 20.

[2] **الفتح القسّيّ في الفتح القدسي**،تقديم إبراهيم شمس الدين، 49.

[3] ـ نفســــــــه ،57- 199.

[4] ـ نفســــــــه ، 21. وينظر مصطفى محمود زايد، **النثر الفني في عهد الدّولتين الزّنكيّة والأيّوبيّة في مصر والشام**، 31.

وعاثوا فيها فسادا، أعملوا السيف مدّة أربعين يوما،إلى أن وصل عدد القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ([1]).

وأمام تلك المعمعة السياسيّة، ومن منطلق الحرص على الأمّة والشعور بالمسؤوليّة، فقد وقف رجالات الزنكيين داعمين ومساندين للأدباء والعلماء، وخير دليل على ذلك الأمانة في صون العلم وأهله، فهذا نور الدين زنكي يقوم ببناء المدارس العديدة في حلب وحماة وحمص وبعلبك([2]) ، ومن الأمثلة على المدارس التي بناها نور الدين، المدرسة النوريّة الكبرى ، حيث أنشأها سنة ثلاث وستين وخمسمائة هجريّة ([3]) ، و المدرسة الحنفيّة الصغرى حيث بناها بجامع القلعة ([4])، وإلى جانب بناء نور الدين للمدارس ، فإنه بنى دور الحديث ، والفقه ، إذ كان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولكنه لم يكن متعصّبا له ، ولم ينس الأيتام حيث بنى لهم دارا ليتعلموا فيها القراءة والكتابة([5]) .

ولا يقلّ المؤسس الأوّل لدولة الأيّوبيين صلاح الدين الأيوبي تشجيعا للعلم و توقيرا للعلماء عن نور الدين زنكي ، يقول ناظم رشيد في وصف الأدب عند الأيوبيين: " لقد أحبّ بنو أيّوب اللغة العربيّة، وتثقفوا بها، لأنها لغة الدين والعلم والسّياسة، وأنفقوا الأموال بسخاء على العلماء والأدباء، لذلك أقبلوا عليهم من كلّ حدب وصوب، يمدحونهم ويمجدّون بطولاتهم في المعارك التي خاضوها ضدّ الفرنج، وبزّ السلطان صلاح الدين الأيوبي المؤسس الأوّل لهذه الدولة كلّ السلاطين في الإنفاق على العلم والفقه ومدارسها، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء والشعراء والكتاب كالقاضي الفاضل، وابن شداد، والعماد الكاتب، وأسامة بن منقذ، وكان يتذوق الشعر ويهتز له، ويستحسن جيّده ، ويردّده في مجالسه "([6]) .

---

[1] ـ ينظر جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء،** 403 ـ 410.

[2] ـ ينظر عبد القادر النعيمي، **الدّارس في تاريخ المدارس،** 1/ 401.

[3] ـ نفســــــــــه ، 1/606-607. وينظر ابن العديم الحلبي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب،** 331-332.

[4] ـ ينظر عبد القادر النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس** ، 1/ 648-649. و محمود السرطاوي، **نور الدين زنكي في الأدب العربيّ في عصر الحروب الصليبيّة،** 37- 42.

[5] ـ ينظر أبو شامة المقدسي ، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيّة،** 1/ 1000.

[6] ـ **مجلة المورد** ، المجلد الخامس، العدد الثالث، بغداد، 1976.

فظهور صلاح الدين أحدث تغييرا في مجرى الأحداث السياسيّة والحربيّة، والدينيّة، والثقافيّة ، نظرا لأنه أقام دولته في مصر والشام ومن خلالها استطاع أنّ يحقق الانتصارات العظيمة على الصليبيين وأعوانهم في معارك عديدة، خاصّة معركة حطين ، التي كانت البداية لدحر الغازين وطردهم من بلاد المسلمين، وكان تأثيره كبيرا على أسرته في الثقافة من بعد موته ([1]) .

صدى الأحداث في الشعر العربيّ :

أمام ذلك الوضع البائس، وفي ظلّ الخطر الصليبيّ المحدق الذي أخذ يتعاظم شيئا فشيئا، نجد أنّ الشعراء أعملوا عقولهم ونظموا أروع القصائد التي تحمل المضامين المختلفة، فقد جاءت المضامين صورة ملحّة يحمل فيها الشعراء هموم الأمّة، التي كانت بأمسّ الحاجة لمن يرفع من مكانتها ، ويتذكر ماضيها العتيد بما حوى من بطولات وكرامات وانتصارات ، وأخذوا يهيبون بأصحاب الهمم والغيرة من أبنائها البررة، للأخذ بأيديهم وبعث الحماس في نفوسهم ، من أجل الوقوف صفا واحدا أمام تلك الغارات ، والهجمات الوحشيّة التي سدّدها الصليبيّون للأمّة في بلاد الشام، ولكابوس الذل الذي لحق بها نتيجة تتابع الويلات على الأمّة بعد هجمات التتار المتكرّرة ، وأدّت إلى سقوط بغداد، عندها نجد أنّ الشعراء عاجوا إلى التراث فنهلوا منه ما يسدّ رمقهم، وظهرت تيّارات مختلفة في المجتمع، منها الصوفيّة، صبّت جميعها في قالب التغيير الذي عصف وكان نتيجته دحر الغاصب وطرد المحتل([2]) .

ففي غمرة الأحداث انقسم الشعراء إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوّل يستنجد بالحكام، ويحثهم على القتال، ويظهر الشعراء فيها ما دأب عليه المتنبي عندما كان يسير جنبا إلى جنب مع سيف الدولة وأبي تمام من قبله مع المعتصم، حيث أطلق الشعراء لأنفسهم العنان في المدح والإطراء لأولئك الحكام، حيث المبالغة في القوّة والتعظيم لهؤلاء الحكام ، لعلّ

[1] ـ ينظر عبد الكريم العبود ، **الشعر العربي في العراق من سقوط السّلاجقة حتى سقوط بغداد** ، 36.

[2] ـ نوري شاكر الآلوسي، **حالة الشعر في القرن السّابع الهجري**، مجلة الأستاذ، عدد1، بغداد، العراق (ص 342-343).

النصر يأتي على أيديهم ، ويستطيعون صدّ الاعتداءات التي تعرّضت لها الأمّة ، فهم انطلقوا من وحيّ الشعر العربيّ في أبهى العصور عندما كان الشّاعر يساير الجيش ويرصد تحرّكات القائد ويسجّل الانتصارات، ويتمنى الخيبة والصّغار للأعداء والمرجفين، فهذا ابن قسيم الحموي([1]) يثني على دور عماد الدين في مقارعة الصليبيين، لدحرهم عن أرض المسلمين، يقول في ميميته : [الوافر]

بعزمـــــــــــــك أيها الملك العظيم   تـــذلّ لك الصّـــــــعاب وتستقيم
رآك الدهـــــــــــــــر منه أشدّ بأسا   وشـــــــحّ بمثـــــلك الزمن الكريم
أيلتـــــــمس الفـــــــرنج لديك عفوا   وأنـــــت بقطع دابـــــرها زعيم
وكـــــــم جرّعــــــتها غصص المنايا   بيــــــوم فيـــه يكتهـــــل الفطيم
فسيـــــــفك في مفـــــــارقهم خضيب   وذكـــــــرك في مواطنهم عظيم ([2])

وأما صولات صلاح الدين الأيوبي في مقارعة الأعداء، فهو من كسر هيبة الصّليب، ولن تجبر بعدها ، فأدبر ملكهم في الشام ، وأصبحوا مهزومين بفضل جنده السّاهرين، يقول ابن جبير في مدح صلاح الدين: [المتقارب]

أطلّـــــــت علـــــــــى أفقك الزاهر   سعــــــود من الفـــــــلك الدّائر
فأبـــــــــشر فإنّ رقـــــاب العدا   تُمَـــــدّ إلـــــى سيفـــك الباتر
فكـــــــم لـــــك مـــن فتكة فيهم   حكــــــت فتــكة الأســد الخادر
كســــــــرت صليبـــــــهم عنوة   فللـــــــــه درّك مــــــــن كاسر
فأدبـــــــر ملـــــــكهم بالشآم   وولّـــــــى كأمســـــــهم الدّابر
جنـــــــــودك بالرّعـــب منصورة   فناجـــــــز متـــــى شئت أو صابر
فكلـــــــــهم غــــــــارق هالك   بتيّــــــــار عســــــكرك الزاخر
وقمــــــــــــت بنصـــــر إله الورى   فسمّـــــــاك بالمـــــلك الناصر ([3])

ومن الشعراء من سلك طريقا آخر في مديحه،وطريقة تعبيره عن مكنونات نفسه ، حيث

[1] ـ هو شاعر الزنكيين بلا منازع، واسمه شرف الدين أبو المجد مسلم بن الخضر بن قسيم التنوخي الحمويّ ، ولد في أوائل القرن السّادس الهجري بحماة، توفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة هجرية. الزركلي، **الأعلام** ، 222/7.

[2] ـ ابن قسيم الحموي ، **الدّيوان** ، 101.

[3] ـ فوزي الخطبا، **شعر ابن جبير** ، 46-47.

توجّه إلى الله بالضّراعة كي ينجّي الأمّة ، ويدفع عنها ما ألمّ بها من كرب وبلاء، فقد نظم أبو حامد الغزالي(ت 505هـ) ([1])قصيدة لقيت القبول والإقبال من الناس الذين تلقفتها أسماعهم بالقبول ، حيث كانوا يردّدونها في المجالس، أو عند الإصابة بملمّة أو ضيق، وقد أطلق عليها الغزالي (دعاء المنفرجة) يقول فيها : [المحدث]

الشّـــــــــــــــــدّة أودت بالمهج	يــــــــا ربّ فعجّـــــــــل بالفرج
والأنفـــــــــــــس أمست في حرج	وبإذنـــــــــك تفـــــريج الحرج
هاجـــــــــــت لدعـــــاك خواطرنا	والويـــــــــل لهـــــــا إن لم تهج
يا مـــــــن عودت اللطـــــــف أعد	عاداتــــــــك باللطـــــــف البهج
واغلـــــــــــق ذا الضّيـــــق وشدّته	وافتـــــــــــح ما ســـدّ من الفُرَج
لذنـــــــــا بجنابـــــــك نقصده	والأنفـــــــــس أمســـت في وهج
وإلـــــــــــى أفضالـــك يـــــا أملي	يـــــــا ضيعتنــــــا إن لـــم نلج
مـــــن للملهـــــــــــوف ســـــواك يغث	أو للمضـــــــطرّ ســــــــــواك نجي
والأزمـــــــــــــة زادت شـــــــدّتها	يـــــــا أزمـــــة علّك تنفرجي ([2])

وهي قصيدة جميلة تعبّر عن واقع مأساويّ عاشه أبناء العصر، وبيقين الفقيه العابد أعلن الغزالي بصراحة أنّ الهروب يتمّ إلى الله مهما تعاظمت الأزمة، واشتدّت المصيبة، فالله لا يخيّب من يلجأ إليه، ويتوسّل به،وهو ملاذ التائبين وأمل الخائبين، وفي معرض تعليقه على القصيدة التي نظمها الغزالي ، يقول محمد الكيلاني: " ...وشاهد الصليبيين يكتسحون المدن والقرى، ويغيرون على السّكان الآمنين، وينهالون عليهم قتلا وأسرا، ورأى المسلمين لا حول لهم ولا قوّة ، ذلّوا وهانوا واستكانوا، وأضحوا ولا راعي يرعاهم، ولا زعيم يجمع شملهم، ويتصدّى للدفاع عنهم، ولا قائد يوقف الغزاة عند حدّهم، .. في هذا الوسط المظلم، وفي هذا الجوّ القاتم شرع الناس يلتمسون العون من الله، ويسألونه التعجيل بالفرج، وماذا كانوا فاعلين وهم رعيّة بغير رعاة ؟ أمراؤهم مشغولون بمصالح أنفسهم، يكيد بعضهم لبعض ... وهكذا عانى أهل الشام المصائب والأهوال يتلو بعضها بعضا، فرفعوا

[1] ـ هو محمد بن محمد الغزاليّ الطوسيّ، أبو حامد، حجّة الإسلام، فيلسوف متصوّف، له نحو مائتي مصنّف، مولده ووفاته في خرسان، تنقل بين الشام ومصر، وعاد إلى بلدته الأصليّة التي مات فيها. الزركلي، **الأعلام** ، 7/22-23.

[2] ـ محمد محمود قاسم نوفل ، **تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ**، 53.

أيديهم إلى السّماء متضرّعين بالقرآن وسوره، والأنبياء والمرسلين، ملحّين في الدّعاء، طالبين التعجيل بالفرج " ([1]) .

ونظرا لإقبال الناس على تلك القصيدة، فإنّ الشعراء أخذوا يسارعون في معارضتها، والنظم على غرارها، منهم من تفوّق ومنهم من قصّر ، ليبقى القول بأنّ هذه القصيدة ونظيراتها تحمل في ثناياها الكثير ، فهي تبعث في النفس الأمل بعون الله ، والمدد بجند الله، لأنّ الناس عيال الله ، سيحميهم ويدافع عنهم إن توسّلوا به وارتضوا حكمه ، وهذا ما صنعه ابن النّحويّ (ت 513هـ) ([2]) يقول فيها:

اشتــــــــــــــــــدّي أزمة تنفرجي	**قــــــــــد آذن ليــــــــلك بالبلج**
وظــــــــــــــــــلام الليل له سرج	**حتــــــــــى يغشـــــــاه أبو السّرج**
وسحــــــــاب الخيـــــــــر لها مطر	**فإذا جــــــــاء الأبــــــــان تجي**
والخلــــــــــــــــق جميعا في يده	**فـــــــــذوو سعـــــة وذوو حرج ([3])**

ويلحظ من تلك القصيدة أنّ السّآمة قد بلغت من النفوس مبلغا عظيما، وخيبة الأمل من الواقع قد راوحت مكانها، وتسلّل الحرج إلى نفوس الأمّة، وبذلك ساء الأمر، وأخذوا يبحثون عن خيط للنجاة، وحبل يتمسّكون به للتخلّص من ذلك المأزق الرّهيب الذي حوّل حياة الناس إلى مجاعات وفقر نتيجة الحروب المتعاقبة والمتتالية التي أحدثها الصّليبيّون، فكان الشعراء نعم المعبّر ، ولسان الأمّة الناطق في الهروب إلى الله عسى أن يأتي بالفرج والنصر .

و علّق صاحب تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ عليها قائلا: " ..كانت قصيدة ابن النحوي أكثر شهرة وأسير على ألسنة الناس، وقد حظيت باهتمام أهل الدين والأدب والعلم، فكثر شارحوها، كما خمّسها أدباء كثيرون اهتماما بها وتقديرا لها " ([4]).

---

[1] ـ **الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربيّ في مصر والشّام** ، 239.

[2] ـ هو يوسف بن محمد التوزريّ الأصل، التلمسانيّ، كان فقيها يميل إلى الاجتهاد، توفي بقلعة بني حمّاد من أعمال قسنطينة ، له تصانيف . الزركلي، **الأعلام** ، 247/8.

[3] ـ محمد محمود قاسم نوفل، **تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ**، 52.

[4] ـ نفســــــــــــــه، 53.

ومن الشعراء مـن توجّـه بالشكوى إلى الرّسـول صلّى الله عليه وسـلّم طالبا منه ورود الحوض بصحبته يوم القيامة ، لعل النجاة تكون من نصيبه ، عندها يفـوز فـوزا كـبيرا ، وهـذا يدفعنا للقول إنّ أمثال هؤلاء الشعراء كثر في العصرين الزنكي والأيّـوبيّ، وأسباب التوسـل عندهم كثيرة، فقد تكون دوافع نفسيّة، أو شخصيّة، أو مصيبة عامّة ، حلت به وبأفراد الأمّة، يريد الشاعر من خلال توسله أن يوقظ همم المسلمين لأخذ العبرة من حياة الرّسول حيث النفير العام لنفوس المسلمين ، ولما تحمله مـن حـبّ لسيّد البشريّة ، وقد تكـون المصيبة أو الكارثة طبيعيّة عندها يفرّ الشعراء إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم طلبا للعون والشفاعة، أو عنـدما تتعـرّض بـلاد المسلمين لاعتـداء مـن قبـل أعـدائهم عنـدها يسارع الشـعراء لطلـب المعونـة مـن الله جـلّ في عـلاه، ومـن الرسـول صـلّى الله عليـه وسـلّم ردّا للعـدوان وصـدّا للأعداء وإيقاظا لهمم المسلمين للوقوف صفّا واحدا لدرء الأخطار .

الفصل الأوّل :

فـــــنّ المديـــــــح النبويّ وأثــــره عبر العصـــــــــــــور

. توطئة .

. مديح الرّسول في فجر الإسلام .

. في العصر الأمويّ .

. في العصر العبّاسيّ .

توطئة :

لقد احتل سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم مكانة بارزة في الشعر العربي منذ أن شاهد النور، وأبصر بعينيه الحياة ، ولم يختلف الأمر بالنسبة له بعد أن تخيّره الباري ـ عزّ وجل ـ ليحمل عبئا ثقيلا تكاد تنوء عن حمله الجبال ، ألا وهو عبء الرسالة وتبليغها للعرب أولا ، وللعالم بأسره ثانيا، ليكون حجّة عليهم أمام الله يوم القيامة،فكان نعم المبلغ، والداعي لله بأمره ، والسراج الذي بدّد الظلمات وأزال عن العرب الغمات ، بعد أن كانوا يتخبّطون بتيهها، ويعتزّون بجاهليتها، فهو من محا الظلمة ، وأقال العثرة ، وجمع شتاتهم تحت لواء الشريعة الغرّاء، وتمّ ذلك بمباركة من ربّ السماء .

وبما أنّ الرسول محمدا صلّى الله عليه وسلّم يمثل نقطة التحول في حياة المسلمين، فقد حظي بمنزلة عالية في أدبنا العربي ـ شعره ونثره على حدّ سواء ـ فقد رسم الشعراء ملامحه في أبهى صورها، لذلك نجد بأنّ المديح لازمه منذ ولادته حتى وفاته، بل ظلّ مستمرا إلى عصرنا الحاضر، والشعر الذي قيل فيه يحمل مزايا وخصائص تختلف عن الشعر الذي نظم في غيره، من حيث التقاليد الفنية والموضوعية المتبعة من جهة، والعوامل والمؤثرات التي دفعت أصحابها لمدح الرسول من جهة أخرى ، فالعوامل التي دفعت الشعراء لنظم مدائحهم في الرسول كثيرة منها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي ، أو تاريخي ، أو نفسي، وذلك تبعا للعصر الذي عاش فيه الشاعر مع الأخذ بعين الاعتبار توالي القرون .

مديح الرّسول في فجر الإسلام :

أبو طالب ـ عمّ النبي محمد :

يرى الباحث ـ دون جزم قطعي ـ بأنّ أبا طالب عمّ النبي هو أقدم من مدح سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلك يخالف رأي زكي مبارك عندما جعل الأعشى ميمون بن قيس أقدم من مدح الرسول([1]) ، فقد مدح الرسول في لاميته التي عدّت من غرر

[1] ـ ينظر زكي مبارك ، **المدائح النبوية في الأدب العربي** ، 12.

الشعر العربي ، وعدّها ابن سلام من أروع ما قال أبو طالب من الشعر ، و صححها ووصفها بالجيّدة ، إلا أنّه لم يحدد عدد أبياتها ، ولم ينف دخول الزيادة أو التطويل فيها من قبل الرّواة([1]) ، وقد ذكر ابن كثير أنّ أبا طالب قد مدح الرسول وأفراد ا من قريش كانوا يتعبّدون و يجاورون في حراء للعبادة ؛ لهذا قال أبو طالب يذكرهم في قصيدته المشهورة، أي لاميّته ([2]) .

وقد أورد ابن هشام مناسبة القصيدة فقال : " لمّا خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التي تعوّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنّه غير مسلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تاركه لشيء أبدا حتى يهلك دونه ".([3])

ويفتتح أبو طالب قصيدته موضحا السبب إذ مكر القوم لابن أخيه ، وأرادوا النيل منه، ولكنه يحول دون الوصول إليه ، ويقطع عليهم الطريق، وينشد قائلا : (الطويل)

خليـــــليّ مـــا أذنـــي لأوّل عاذل بصغـــــواء في حــقّ ولا عنـــــــد باطل
خليــــليّ إنّ الـــرأي ليس بشــركة ولا نُهبــــــــة عند الأمور التلاتل ([4])
ولمـــــــا رأيت الـقوم لا ودّ فيهم وقد قطعـوا كـــــــــلّ العرا والوسائل
وقد حالفـــــــوا قوما علينا أظنّة يعضّـــــــــون غيظا خلفنا بالأنامل([5])
صبرت لهــــــــم نفسي بصفـراء سمحة وأبيض ماض من تـــــــراث المقاول ([6])

ويمدح سيدنا محمدا بأبيات تحمل في ثناياها بعض صفاته ، وخصاله التي كانت شائعة في قومه وعرف بها ، فقد كان يلوذ إليه الفقراء والمساكين وقت الشدّة والحاجة ، ويبقون في رحمة ونعمة ما داموا عنده، إذ لم يعرف عنه أنه ردّ أحدا منهم خائبا ، يقول :

---

[1] ـ ينظر **طبقات فحول الشعراء** ، شرح محمود محمد شاكر ،204.
[2] ـ ينظر **البداية والنهاية** ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، 56/3.
[3] ـ **السيرة النبوية** ، 169/1.
[4] ـ التلاتل : الشّدائد ،مفردها تلتلة . الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط** ، مادة (تلل) 1285/2.
[5] ـ أظنّة : الرجل المتهم ، الذي لا يوثق به ، مفردها ظنين ، مجمع اللغة العربية ، **المعجم الوسيط** ، مادة (ظنن) 599/2.
[6] ـ أبو طالب ، **الدّيوان** ، تحقبق محمد حسن آل ياسين ، 70.

وأبيض يستســـــــقى الغمام بوجهه   ربيع اليتــــــــــامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهـــــــلاّك من آل هاشم   فهـــــــم عنده في نعمة وفواضل([1])

ولم يكن أبو طالب ليدع فرصة إلا ويبيّن فيها حبّه لمحمد، وينتهز الفرصة تلو الأخرى ليجلو مكانته في قومه ،ويبين فضائله النفسية والجسمية، فمحمد من نسل طيّب وشرّفه الله بأن ختمه بخاتم النبوّة ، فهو فخر لقريش ولعبد مناف ، ولبني هاشم على وجه الخصوص ، فها هو يبين فضل محمد فيقول : (الطويل)

إذا اجتمـــــعت يوما قريش لمفخر   فعبـــــــد مناف سرّها وصميمها
وإن حصّـــلت أشـــراف عبد منافها   ففي هــــاشم أشرافـــــها وقديمها
وإن فخـــــرت يوما فإنّ محمدا   هــو المصطـــــفى من سرّهـــا وكريمها
وأقربها قـــــربى من الله والذي   بـــه تكشـــف الظلمـــاء درسا نجومها([2])

ولأبي طالب قصائد كثيرة ينافح فيها عن الرسول ، بل يطلب من أولاده نصرة سيدنا محمد، فهو من كفل للنبي حمايته وعصمته من قريش وبطشها وأذاها ، فعندما تحاول فعل ذلك يكون لها بالمرصاد، ويعرّض كثيرا بأولئك الذين نذروا أنفسهم من أجل محاربة محمد صلّى الله عليه وسلّم والنيل منه أمثال أبي لهب وأبي جهل ، ويصل الأمر عند أبي طالب إلى حدّ القسم أن يبقى وفيا لمحمد ، ففي حادثة إسلام جعفر،" أنّ أبا طالب مرّ بالرسول ومعه جعفر ابنه ، وكان الرسول يصلّي ، وعليّ عن يمينه ، فقال أبو طالب لجعفر: صل جناح ابن عمّك ، فجاء جعفر فصلّى مع النبي ، فلما قضى صلاته قال : الله يا جعفر ؛ وصلت جناح ابن عمّك، إنّ الله يعوّضك من ذلك جناحين في الجنّة "([3])ثمّ أنشأ أبو طالب يقول: (المنسرح)

إنّ علـــيا وجعفــــــرا ثقتي   عنـــد احتدام الأمـــــــور والكرب
لا تخـــذلا وانصـــرا ابـن عمّكما   أخي ابــن أمّـــي من بينـــــهم وأبي
إنّ أبــــا معتب قـــد اسلمنا   ليس أبو معـــــتب بـــذي حدب

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 75.
[2] ـ نفســـــــه ، 175.
[3] ـ ابن حجر العسقلاني ، **الإصابة في تمييز الصّحابة** ، 116/4.

والله لا أخـــــــذل النبـيّ ولا يخذلـه مـــن بنـــــيّ ذو حـسب([1])

ويعجّ ديوان أبي طالب بتلك القصائد التي يعبّر فيها عن عواطف تختلج صدره تجاه النبي محمدصلّى الله عليه وسلّم، ولكن في معظمها تميل إلى السهولة ، وتخلو مما هـو وعر من جهة الألفاظ والتراكيب المستخدمة، مما دفع بعض الباحثين ـ من أمثال محمود مكي ـ إلى التشكيك في صحّة كثير من الأبيات التي نسبت إلى أبي طالب خاصّة قصيدته اللاميّة التي يمدح فيها الرسول ([2]) وهي التي تحتوي البيت المشهور :

وأبيـــضُ يستسقى الغمـــــامُ بوجهه ربيــــــعُ اليتــــــامى عصـــمةٌ للأرامل

مع أنّ بروكلمان صحّح هذه القصيدة على اعتبار أنّ الشاعر يذكر بني هاشم أمّة واحدة لم يتفرّق شملها إلى نصفين أي إلى علويّة وعبّاسيّة ([3])، ويرى حلمي القاعود أنّ من المبررات القويّة للقول بنحل القصيدة وعدم نسبتها إلى أبي طالب هو اقتراب القصيدة في بعض مقاطعها من المفاهيم والمعاني الإسلاميّةولكنه يستدرك قائلا : أنّ القصيدة تعطي دلالة قويّة على تلك الأواصر التي تربط بين الشاعر وابن أخيه([4]) .

وقد أشار ابن أبي حديد إلى عمق الروابط التي كانت تجمع أبا طالب مع الرسولصلّى الله عليه وسلّم ، فالعلاقة وثيقة ، والآصرة متينة ، لذلك هي خاصيّة شريفة ،وسرّ عظيم ، وكانت نتيجة ذلك أن خرجت تلك المدح ودواعيها ([5]).

وأرى أنّ المقام لا يستدعي أكثر من بثّ المشاعر ، وتبيان الموقف الذي يرفض فيه الشاعر بإصرار نيل قريش من محمد صلّى الله عليه وسلم وشخصه ، لهذا السبب لم يمسح

---

[1] ـ أبو طالب ، **الديوان** ، 171 .
[2] ـ ينظر محمود مكي ، **أدبيات المديح النبوي** ،10-11.
[3] ـ ينظر **تاريخ الأدب العربي** ، 175/1.
[4] ـ ينظر **محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث** ، 27.
[5] ـ ينظر **شرح نهج البلاغة** ، 116/11.

الشاعر أبياته بمسحة الجزالة والفخامة التي وُصف بها شعره ، والضعف والركاكة ليسا بكفيلين لردّ الأبيات أو التشكيك في صحّة القصائد .

فاطمة بنت محمد صلّى الله عليه وسلّم ([1]) :

اختلفت قصائد فاطمة رضي الله عنها عن سالفها أبي طالب نظرا لأنّ أبا طالب كان ينافح عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان الرسول حيّا، بينما هلك أبوطالب وما زالت الدعوة المحمّديّة في بداياتها، بينما جاءت قصائد فاطمة الزهراء وقد ارتقت روح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى بارئها، بذلك تميّزت قصائدها عن أبي طالب .

كانت فاطمة من أحبّ الناس إلى قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلّم ـ حيث كانت تعوده في مرضه وخاصة مرضه الذي توفي فيه ، فقد روى البخاري حديثا عن أنس([2]) يوضح فيه آخر كلمات النبي مع فاطمة ، قال : لمّا ثقل النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ جعل يتغشّاه ، فقالت فاطمة عليها السّلام : واكرب أباه فقال لها : " ليس على أبيك كرب بعد اليوم " فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربّا دعاه يا أبتاه من جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلمّا دفن قالت فاطمة عليها السّلام : يا أنس ، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ التراب .

هال فاطمة ما شاهدت ، وتمنّت لو أنها نعيت قبل أن ترى صحابة رسول الله وهم يحثون التراب على جسد أبيها الطاهر ، فتفجّرت شاعريتها ، وقالت ترثيه : (الكامل)

إغبرّ آفـــــــاق السّماء وكوّرت شمـــس النهـــــــــار وأظلم العصران

فالأرض مـــــــن بعــــد النبيّ كئيبة أسفـــا عليــــــــه كثيرة الأحزان

---

[1] ـ هي سيّدة نساء الأمّة ، وزوج الإمام علي بن أبي طالب ، ووالدة الحسن والحسين سيّدي شباب الجنّة ، فصيحة عاقلة ، أصغر بنات الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ توفيت ودفنت بالبقيع ، حيث توفيت بعد والدها بستة أشهر ، وكان ذلك عام 11هـ . ينظر عمر رضا كحّالة ، **أعلام النساء** ،4/108ـ132. وعبّاس محمود العقّاد ، **موسوعة العقّاد الإسلاميّة**، 3/25-51. ومحمد رضا ، **الإمام علي رابع الخلفاء الرّاشدين** ،6ـ9 ومحمد عبد الرحيم،**مقدّمة ديوان فاطمة الزهراء**،5-20..

[2] ـ البخاري ، **صحيح البخاري** ، 2/381. و ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، 2/83. و محمد الكاندهلوي ، **حياة الصّحابة**، 2/ 327-328. و محمد هيكل ، **حياة محمّد**، 500.

فليبـــــكه شــــرق البــــــلاد وغربها ولتبــــكه مضــــــــــر وكلّ يماني
وليبــــــــــكه الطــــود المعظّم جوّه والبيـــــــت ذو الأستــــــــــار والأركان
يا خاتـــــــم الرّســــل المبارك صنوه صلّـــــــى عليــــــك منزّل القرآن[1]

فالحزن قد عمّ أرجاء الأرض بموت النبي محمد ، فمظاهر الطبيعة على اختلاف مسمّياتها تغيّرت وبكت رسول الله ، بل لم يبق منها مظهر إلا وبكى فقد الرسول ، لأنّه حبيب الأرض ومبعوث السماء ، حمل اللواء بالحقّ ، وأسس البنيان على التقوى، ولكنّه رحل تاركا خلفه الأرض وقد عمّها الحزن والأسى ، وتبكيه مضر واليمن ، من مشرق الأرض إلى عدن ، وفي قصيدة أخرى وقفت على قبره الطاهر وأردفت تقول : (البسيط)

إنـــــــــا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مـــــــــذ غبت عنّا الوحي والكتب
فليـــــــــت قبلك كان الموت صادفنـــا لمّا نعيــــــــت وحالت دونك الكثب
لقد رزينــــــــا بما لم يزر ذو شجـن من البــــــرية لا عجم و لا عرب[2]

ومحور حديثها حول الفاجعة التي حلت بالمسلمين عندما توفي الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقد تشوّق المسلمون إلى الرّسول تشوّق الأرض إلى المطر الذي لا غنى لها عنه ، فبعد وفاته انقطع الوحي وغاب عن البسيطة التي طالما زارها زمن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فهي تتمنى من جديد أن يصادفها الموت قبل أن تحول الرّمال بينه وبينها .

وتتابع فاطمة وقوفها على قبر الرّسول ـ جريا على عادة من يفقد عزيزا على قلبه في مثل تلك المواقف، ولكن دون لطم للخدود، أو شقّ للجيوب ـ وقد أخذت حفنة من التراب فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت ترثيه و تقول : (الكامل)
ماذا على من شــــــــمّ تربة أحمــد أن لا يشَــــــــــــمّ مدى الزّمان غواليا [3]

[1] ـ فاطمة الزهراء، الديوان،115-117. محمد أحمد درنيقة ،**معجم أعلام شعراء المدح النبوي** ،291-292. و عبّاس محمود العقّاد ،**موسوعة عبّاس محمود العقّاد الإسلاميّة**، 48/3.
[2] ـ فاطمة الزهراء ،**الديوان**،108-110.وينظر شهاب الدين النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، 165/5. و ابن عبد ربّه ، **العقد الفريد** ،238/3.و عمر رضا كحّالة، **أعلام النساء**، 114. ومحمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام المدح النبوي** ، 291. و محمد التونجي ، **شاعرات في عصر النبوّة** ، 152-154.
[3] ـ الغوالي : جمع غالية وهي الطّيب . الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط** (غلي) 1728/2.

صبّت علـــــــــــيّ مصائب لو أنها صبّت علـــــــى الأيّــــــــام عدن لياليا ([1])

ومهما يكن من أمر فإنّ السيّدة فاطمة الزهراء لم تختلف عن الشعراء الذين سبقوها في فنّ الرّثاء،خاصّة في بثّ الأحاسيس ، وإنما قصدت من خلال الأبيات التي عرضت التعبير عمّا بداخلها من حزن على المعلّم والأب الحاني الذي سبقها إليه ملك الموت ، ولكنّ رباطة الجأش جعلها تتحمّل ما تنوء الجبال والليالي عن حمله ، والمعاني التي جاءت بها الأبيات لا تتعدّى تأبين الرسول والإشادة بصفاته وكريم خصاله ، تمجيدا لذكراه وتخليدا له .

الأعشى ([2]):

رحل الأعشى إلى النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ ليسلم ، وسرعان ما سمعت قريش بذلك فاعترضت طريقه ، وأخبرته بأنّ الرسول سيمنعه من الخمر والزّنا والقمار محاولة منهم لثنيه عن الإسلام ؛ لأنّهم يعلمون ما للأعشى من تأثير في قبائل العرب ، وكان ممن سأله عن وجهته أبو سفيان بن حرب ، حيث تمكّن من ثنيه عن طريق منحه مئة رأس من الإبل على أن يعود في العام القادم ، ولكنّ القدر حال دون عودته فمات في الطريق بناحية اليمامة حيث ألقاه بعيره فقتله .([3])

وقصيدة الأعشى التي مدح فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم والتي لم يتسن للشاعر أن يلقيها بين يدي سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم حيث صرفته قريش ، أحدثت جدلا واسعا بين الباحثين فمنهم من أخرجها من المدائح النبوية ؛ لأنها محاولة من الشاعر لأجل

---

[1] ـ يوسف بن إسماعيل النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة** ، 55/1. و عمر رضا كحّالة ، **أعلام النساء** ، 113. و عباس العقاد ، **موسوعة العقّاد الإسلاميّة** ،49/3. و محمد أخمد درينقة ، **معجم أعلام المدح النبوي** ،291.

[2] ـ هو ميمون بن قيس ، صنّاجة العرب ، ما مدح شخصا إلا رفعه ، وما هجا شخصا إلا وضعه ، يكنّى أبا بصير ، أحد أعلام الشعر الجاهلي وفحولهم ، أدرك الإسلام في آخر عمره ولكنه لم يسلم ، كان يتكسّب بشعره وفد على كثير من الملوك ومدحهم ونال عطاءهم . ينظر ابن سلاّم الجمحي ، **طبقات فحول الشعراء** ،43. والأصفهاني ، **الأغاني** ، 77/8. والنويري ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، 46/18ـــ48.و عمر فرّوخ ، **تاريخ الأدب العربي**، 1/ 221ـ228.و شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، 335ـ365. و ناصر الدين الأسد ، **القيان والغناء**، 219ـ253. و محمد محمد حسين ، **ديوان الأعشى الكبير**، المقدّمة ، 17-47.

[3] ـ ينظر ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء**، 257/1. و ابن هشام،**السّيرة النبويّة** ، 24/2-26.

التكسب،وتخلو القصيدة من أيّ عاطفة دينية ، أو أيّ نيّة صادقة يحملها الشاعر اتجاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم،وهذا ما ذهب إليه زكي مبارك في معرض الحديث عنها([1]).

و منهم من ردّ على زكي مبارك حيث يقول حلمي القاعود في معرض الحديث عن القصيدة : " .. ولكننا نرى أنّ الدّافع إلى هذا المدح ليس التكسّب ، وإنما هو شيء من الاقتناع الداخلي أو الإعجاب بتلك الشخصيّة الجديدة التي فرضت نفسها على المجتمع ، وأثارت اهتمام صفوته .." ([2])

بينما يقف طه حسين موقفا يختلف عن الباحثين الآخرين ، فهو يقطع يقينا بأنّ القصيدة منحولة، و عزا السبب في نحلها إلى القصّاص، حيث يقول :" ولا أتردد في القطع بأنّ هذه الدالية التي تروى للأعشى في مدح النبي منحولة ، نحلها قاص ضعيف الحظ من الشعر ، رديء النظم ، مهلهل اللفظ قليل المهارة في النحل ، ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها أسخف ما يضاف إلى الأعشى " ([3]) ، ويذهب محمود مكّي إلى ما ذهب إليه طه حسين في أنّها منحولة ولا يصحّ نسبتها إلى الأعشى.([4])

ويتخوّف منها محمد محمد حسين ـ محقّق الدّيوان ـ بقوله : " ولكن العجيب من أمرها أنّ القسم الثاني منها ، الذي خصّ فيه النبي صلى الله عليه وسلّم بالمدح ، يريب الباحث لسببين ، فهو أضعف بكثير من الشطر الأوّل، يبلغ حدّ الركاكة والتفاهة ، ثمّ هو متأثّر ببعض آيات القرآن في معانيها أو في ألفاظها ، أو هو يصوّر الأعشى وقد ألمّ بتعاليم الإسلام إلماما حسنا ، بما يناقض زعم الرّواة أنّه عاد حين علم أنّ الإسلام يحرّم الخمر "([5])، على أنّ البعض الآخر من الباحثين أوردها ضمن المدائح النبويّة بصرف النظر عن صحّة نسبتها إلى الأعشى أو لا ، وإنما اكتفوا بشرح مفرداتها ،وتوضيح المناسبة التي قيلت فيها .([6])

---

[1] ـ **المدائح النبويّة في الأدب العربي** ، 13.
[2] ـ **محمد صلى الله عليه وسلّم في الشعر الحديث** ، 33.
[3] ـ **في الأدب الجاهلي** ، 234.
[4] ـ **أدبيات المدائح النبويّة** ،38-42.
[5] ـ **ديوان الأعشى الكبير** ، 185.
[6] ـ ينظر خضر عبد الله التايه وزميله ، **شعراء حول الرّسول**،81-83. و إميل ناصف ، **أروع ما قيل في مديح الرّسول**، 11-12.

وبالنظرة الفاحصة إلى القصيدة فإنّ الشاعر قصد غاية وحيدة وهي التكسّب المالي من جهة ، والشهرة والصّيت من جهة ثانية ، فالمعروف عن الشاعر أنّه كثيرا ما كان يقصد الملوك والسّادة لنيل العطاء ، فلم يكن الدّافع وراء مدحه الرسول إعلان الإسلام وإنّما تحقيق غاية في نفس يعقوب ، وهذا ظهر جليّا عندما عاد محققا ما تمنى، حيث الغنائم التي ظفر بها من قريش مكافأة لعودته ولعدم وقوفه بين يدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وإلقائه لتلك القصيدة .

والقصيدة مكوّنة من أربعة وعشرين بيتا ، يبدأها الشّاعر بالحديث عن الدهر وتقلباته ، حيث حال بينه وبين النساء ، ولكنه ظلّ على صلة معه في جمع المال ، أي بمراحل عمره المختلفة ، وباستطاعته الوصول إلى أيّ مكان في حضرموت أو في العراق لأنّ المراقيل على أهبة الاستعداد وتحت الطلب، ويفتتحها الأعشى بقوله : (الطويل)

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السّليم المسهّدا
وما ذاك من عشق النّساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلّة مهددا([1])
ولكن أرى الدّهر الذي هو خاتر إذا أصلحت كفّاي عاد فأفسدا
شباب وشيب وافتقار وثروة فللّه هذا الدهر كيف تردّدا
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليدا وكهلا حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تغتلي مسافة ما بين النجير فصرخدا([2])
فإن تسألي عني فيا رُبَّ سائلٍ حفيٍّ عن الأعشى به حيث أصعدا ([3])

ويسير الشاعر في أبياته على هذا النسق حتى يأتي على ذكر النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلّم ـ حيث وجهته ومقصده ، وعنده سيحطّ رحاله ، وتمتاز هذه الأبيات بالقوّة والرّصانة وجزالة العبارة، وهذا ما عهد عن شعر الأعشى ، وهي تلك الأبيات التي لم يشكّك في صحّتها على الأغلب .

[1] ـ مهدد : اسم امرأة ، وهو بفتح الميم ، الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط** (مهد)463/1.
[2] ـ النجير : هو تصغير النجر ، حصن باليمن قرب حضرموت لجأ إليه أهل الردّة مع الأشعث بن قيس في أيّام أبي بكر. ياقوت الحموي، معجم البلدان،272/5-273. صرخد: بالفتح ثمّ السكون ، والخاء معجمة ، والدّال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ، ينسب إليها الخمر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان** ،401/3.
[3] ـ الأعشى الكبير ، **الديوان** ، تحقيق محمد محمد حسين، 185.

و عندما يصل إلى مدح النبي فهو يطلق مجموعة من الخصال التي تميّز النبي من غيره، فذكر النبي طار في البلاد ، وهو يرى ما لا يرى العباد ، يغمر الناس بصدقاته وعطاياه التي لا تقطع ولا تمنع ، فهو حقيق بأن يتّبع ، فهو يقول :

نبـــــــيّ يرى ما لا ترون وذكره أغـار لعمـــــــــري في البلاد و أنجدا
لـــــه صدقـــات ما تغبّ ونائل وليس عطـــــــاء اليوم مانعه غدا([1])

ثمّ يمضي الشاعر إلى بثّ سلسلة من النصائح التي دعا إليها نبي الله، حيث أشهد الناس وأوصاهم بعدّة أمور منها : التزوّد بالعمل الصّالح كي يكون رصيدا له بعد موته ، وأن يتجنب أكل الميتة ، و ما ذبح على النصب ، وعليك ألا تشرك بالله أحدا ، ويدعو إلى الصّلاة في العشيّ والإصباح ، وإلى الصّلاح والتعفّف خاصّة الجارة فهي محرّمة عليك فتزوّج، أو تعفّف مبتعدا عن النّساء ، واقصر حمدك على الذي أوجدك ، و لا تكن للشيطان تابعا ، وابتعد عن السخرية والاستهزاء ، واحذر من الوقوع في المحرّمات ، يقول :

أجدّك لم تسمــع وصاة محمّــد نبيّ الإلــــــــه حين أوصى وأشهدا
إذا أنـــت لم ترحل بزاد مــن التّقى ولاقيت بعـــــــــد الموت من قد تزوّدا
ندمت على أن لا تكـــون كمثله وأنّك لم ترصـــــــــد لما كان أرصدا
فإيّـــاك والميتـــات لا تأكـــلنّها و لا تأخـــذن سهمـــا حديـــدا لتفصدا
وذا النّصـــب المنصوب لا تنسكنّــه ولا تعبـــــــد الأوثان والله فاعبدا
وصلّ على حين العشيّـــات والضّحى و لا تحمـــــد الشيـــــطان والله فاحمدا
و لا السائـــل المحروم لا تتركنّـــه لعاقبـــــــــة و لا الأسيـــر المقيّدا
ولا تسخـــرن من بـــائس ذي ضرارة و لا تحسبـــــــنّ الـمرء يوما مخلّدا
و لا تقربـــنّ جـــــارة إن سرّها عليك حـــرام فانكـــحن أو تأبّدا([2])

والقارئ للأبيات السّابقة يجد بونا شاسعا بين الأعشى ـ ذلك الشاعر المخامر والزاني ـ وبين الأعشى الدّاعية المتنسّك والمتأثر بكلام الله المنزل على سيّد البشريّة، والأمثلة كثيرة ، ففي البيتين الثاني والثالث يتأثر بقول الله ـ عزّ وجلّ ـ [وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد

[1] ـ المصدر السّابق، 185-187.
[2] ـ نفســــــه ، 187.

التقوى] ([1])، وفي الرّابع والخامس منها نجده يتأثر بقوله تعالى [حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به] ([2])، وفي البيت السّادس يتأثر بقولـــــه تعالى [واذكر ربّك كثيرا وسبّح بالعشيّ والإبكار]([3])، وفي البيت السّابع يذكر أحقيّة السائل والمحروم في المال متأثرا بقوله تعالى [وفي أموالهم حقّ للسّائل والمحروم] ([4]) وفي البيت الذي يليه يدعو إلى عدم السخرية من الآخرين، متأثرا بقوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم]([5]) .

وتلك الأبيات نعتت بالركاكة والضّعف موازنة مع نظيراتها السّابقات من الأبيات التي افتتح الشاعر بهنّ مدحته ، وما حوته الأبيات من وصايا لا تخرج إلا من مسلم ، والشاعر عندما نظم قصيدته لم يكن مسلما، ولم يذكر أنّه أسلم بل مات على كفره ؛ لهذا يمكن القول بأنّ القصيدة قد تعرّضت للزيادة والإطالة من قبل الرّواة، وعليه يكون عدد أبياتها خمسة عشر بيتا ، إذ نخرج تلك الأبيات المشكوك في نسبتها للأعشى ، وهي آخر تسعة أبيات.

كعب بن زهير ([6]) :

تأخّر كعب وأخوه بجير في دخول الإسلام ، وعندما هيّأ الله للإسلام أسباب الانتشار ، أسلم بجير وتخلّف كعب ، مما أجّج الهجاء عند كعب لأخيه بجير من جهة وللرسول من جهة أخرى ، فبعث إلى أخيه يقول : (الطويل)

[1] ـ سورة البقرة ، آية 197.
[2] ـ سورة المائدة ، آية 3.
[3] ـ سورة آل عمران ، آية 41.
[4] ـ سورة الذاريات ، آية 19.
[5] ـ سورة الحجرات ، آية 11.
[6] ـ هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، أبوه الشاعر المشهور وأمّه كبشة ، نشأ الشاعر عند أخواله من بني غطفان، أسلم وشهد يوم الفتح مع الرسول ويوم خيبر ويوم حنين،أحبّ الشعر وتعلق به ورواه ، اعتنى به والده وهذّب ذوقه، توفي سنة ستّ وعشرين للهجرة . ينظر الأصفهاني ،**الأغاني** ،38/17ـ46. أبو علي القالي، **الأمالي** ،2/2. و القرشي ،**جمهرة أشعار العرب**،282ـ287. و ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء**،154/1ـ156. و ابن سلاّم الجمحي ، **طبقات فحول الشّعراء**،83،81ـ87.و ابن رشيق ،**العمدة**،154/2. والنويري ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، 302/16ـ310. عمر فرّوخ ، **تاريخ الأدب العربي**،282/1ـ285.و أحمد حسن الزّيّات، **تاريخ الأدب العربي**، 107-109. و طه حسين، **حديث الأربعاء**،1 / 114ـ125.و كعب بن زهير ،ديوان كعب بن زهير ،7ـ21.وشوقي ضيف، **العصر الإسلامي** ، 83-88.والزركلي ، **الأعلام** ،226/5.

ألا أبلغا عنّي بجيـــــــــرا رسالة فهل لــــك فيما قلـــــت بالخيف هل لكا
شربت مع المأمـــــــــون كأسا رويّة فأنهلــك المأمــــــــون منها وعلّكا
وخالفت أسبــــــــاب الهدى وتبعته على أيّ شيء ويـــــــب غيرك دلّكا
على خلق لم تلـــــــــــف أمّا ولا أبا عليه ولم تـــدرك عليه أخا لكا ([1])

فلمّا بلغت هذه الأبيات بجيرا أنشدها النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - فقال : صدق ! أنا المأمون وإنّه لكاذب،قال : أجل لم يلف عليه أباه و لا أمّه على الإسلام . فأجابه بجير : (الكامل)
من مبـــــلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليهـــــــــــا باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العـــــزّى و لا الّلات وحده فتنجو إذا كـــــــــان النّجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجـــــــو وليس بمفلت من النّـــــار إلا طــــاهر القلب مسلم
فدين زهيـــــــر وهو لا شيء دينه وديـــــــــن أبي سلمى عليّ محرّم ([2])

وتحمل الأبيات السابقة تهديدا ووعيدا من قبل بجير إلى أخيه كعب يحثّه على الإسلام ؛ لينجو بنفسه من الهلاك المحقّق الذي يحيق به ، لأنّ دمه كان مستباحا نتيجة تعرّضه للرسول .

وبعد فتح مكّة ، ضاقت الأرض في وجه كعب ، فقرّر أن يسلم ، ويعتذر للرسول محمد على ما بدر منه ، وأتاه بعد صلاة الفجر ، وكان الرسول لا يعرفه ، فطلب الأمان وأعلن الإسلام ، وألقى قصيدته بين يديه، وقال فيها : (البسيط)
بانت سعاد فقلبي اليـــــوم متبول متيّم إثرهـــــــــا لم يجز مكبول
وما سعاد غـــــداة البين إذ رحلوا إلا أغنّ غضيـــــــــض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلـــــم إذا ابتسمت كأنّـــــه منهـــل بالــــرّاح معلول ([3])

---

[1] - كعب بن زهير ، **الدّيوان**،25.
[2] - نفســـــــه ، 26.
[3] - نفســـــــه ، 26-27. امتدحها ابن سيّد الناس اليعمري كثيرا وشرح غريبها في كتابه منح المدح، وأورد أيضا تلك القصيدة التي خصّ فيها كعب بن زهير الأنصار بالمديح، وأورد كذلك مختارات يمتدح فيها كعب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. ابن سيّد الناس اليعمري، منح المدح ، 254-269.

افتتح الشاعر قصيدته بوصف محبوبته حيث أطلق الصفات الحسيّة ، فجمال العينين، والصّوت الرخيم ، والثغر الباسم والرائحة العذبة الزكيّة ، وعندما يذكر تلك الصّفات تشاهد روعة الجمال ، وسحر الأنوثة ،وينتقل إلى وصلها بالوعود التي لطالما تنكثها ، ويستغرق هذا الوصف ثلاثة عشر بيتا ، لا غرو أن يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدّمة ، فهو مازال جاهليّا دخل الإسلام حديثا ، وهو لم يأت بجديد في هذه المقدّمة وإنما سار على نمط الشعر العربي الجاهلي في افتتاح القصائد ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الإلقاء تمّ على مسمع النبي الذّوّاق للشعر ، وقد أثاب كعبا على هذه القصيدة .

ثمّ ينتقل الشاعر في مقدّمته إلى ما كان شائعا في قصائد الشعراء الجاهليين يبثّون فيها المعاناة ومكابدة السّفر، ويستغرق ذلك منه في عشرين بيت من الشعر ، حيث يصف الرّحلة والرّاحلة ، وما واجه من مشقّة ، مرورا بمظاهر الطبيعة المختلفة في الصّحراء من رمال وجبال ، وينتقل من المقدّمة الأولى بسلاسة وسهولة ، يقول :.

أمست سعـــــــــــاد بأرض لا يبلّغها — إلا العتـــــــــاق النجيبات المراسيل
ولن يبـــلّغهـــــــــــا إلا عذافرة — فيها علـــى الأيـــن إرقال وتبغيل([1])

ولا ينسى الشاعر الحديث عن أصحابه ،وما كانوا يثيرون من أهوال حول سوء المآل المنتظر ، والمصير الذي سيواجهه طالبا إليهم الكفّ والابتعاد عن طريقه ليواجه مصيره ، فما قدّر الرحمن مفعول لا محالة ، يقول : ـ

يسعى الوشــــــــاة بجنبيها وقولهم — إنّك يا بـــــــــن أبي سلمى لمقتول
وقال كـــــــلّ خليل كنت آمله — لا ألفينّـــــــــك إنّي عنك مشغول
فقلت : خلّــــــــوا طريقي لا أبا لكم — فكلّ ما قـــــــــدّر الرحمن مفعول
كلّ ابـــــــــن أنثى وإن طالت سلامته — يومــــــا على آلة حدباء محمول ([2])

---

[1] ـ كعب بن زهير، **الدّيوان**، 30.
[2] ـ نفســــــــــه ، 37.

ويدلف إلى مدح الرسول مستعطفا وطالبا العفو والصّفح ، لأنّه علم ما عند الرّسول من سماحة وعفو ينماز بهما عن غيره ، ويطلب من الرسول ألا يستمع لأقوال المغرضين والوشاة ، وأن يحكّم القرآن بما يحتوي من تفصيل و مواعيظ :

أنبئـــــت أن رسول الله أوعدني والعفـــــو عنـــــد رسول الله مأمول
مهلا هـــــداك الذي أعطاك نافلة الـ قـــــرآن فيـــــها مواعيظ وتفصيل
لا تأخـــــذني بأقـوال الوشاة ولم أذنب ولـــــــو كثرت عنّي الأقاويل
لقد أقـــوم مقـــاما لو يقوم به أرى وأسمـــــــــع ما لو يسمع الفيل
لظلّ يرعـــــــد إلا أن يكون له من الرّســــــــول بإذن الله تنويل
إنّ الرّســـول لسيـــف يستضاء به مهند من سيـــــــوف الله مسلول ([1])

ويختم الشاعر قصيدته بالثناء على المهاجرين ، فهم خرجوا من ديارهم ، ويصف قوّتهم و بطولاتهم في المعارك ،فهم يرتدون دروعهم ، يقبلون ولا يدبرون ، يثبتون ولا يفرّون ، ولا يتسلل الغرور إليهم إن هم انتصروا ، فهم نعم الأبطال :

في عصبـــة من قريش قال قائلهم ببطن مكّـــة لمّـــا أسلموا : زولوا
زالوا فمـــازال أنكاس ولا كشف عند اللقـــاء ولا ميـــل معازيل
بيـــض سوابغ قد شكّت لها حلق مـــن نســـج داود في الهيجا سرابيل
يمشون مشـــي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عـــــرّد السود التنابيل
لا يفـــرحون إذا نالت رماحهم قـــوما وليسوا مجـــازيعا إذا نيلوا
لا يقـــع الطعـــن إلا في نحورهم ما إن لهـــم عن حياض الموت تهليل([2])

ونلاحظ أنّه قد عرّض بالأنصار في البيت الرّابع من الأبيات السّابقة ، حيث أراد أحدهم قتله عندما وفد إلى النبي .

وكعب بن زهير في قصيدته قد سلك طريقين الأولى: هي النظرة المألوفة عند الشعراء في عصره ، حيث تحدّث عن المحبوبة والصحراء وفيها أجاد ، وبذلك يرضي نفسه وغروره

---
[1] ـ المصدر السّابق ، 37- 40.
[2] ـ كعب بن زهير ، **الدّيوان** ، 41-42.

شاعرا ، والثانية : ما يتعلق بالأمور الدينيّة ومقدار تأثره بالمبادئ الدينيّة الجديدة، إذ يظهر في بعض الأبيات تأثرا واضحا بهذا الدين ، مع أنه وافد جديد ، وهذا ردّ على بعض الطاعنين حول خلو القصيدة من العاطفة الدينيّة ،مع علمه بما يمتاز به الرسول الكريم من نبيل الصّفات وكريم الأخلاق ،حيث وجد لنفسه فيها ملاذا ومفرّا ومأمنا، يتخلّص من خلالها للوصول إلى الاستعطاف ثمّ الصفح من النبي ، وفيها برع .

والقصيدة هذه لاقت من الشيوع و الذّيوع والقبول ما قلّ نظيره في أدبنا العربيّ، وما لم تحفل به أيّ قصيدة أخرى ، فتلقفتها أيدي الشّرّاح والنقاد والباحثين ،حتى غدا الشعراء ينسجون على غرارها قصائد لا تعدّ ولا تحصى ، كما وحامت حولها مجموعة من الطعون والشبهات ، يجدر بنا أن نتعرّف إلى أشهرها من خلال مجموعة من آراء الباحثين الذين علّقوا عليها تعليقات لطيفة .

يعلّق زكي مبارك على القصيدة بقوله " أنّ كعب بن زهير لم يقل لاميّته وهو مأخوذ بعاطفة دينيّة قويّة، تسمو به إلى التّصوّف ، إنما هي قصيدة من قصائد المديح، يقولها الرّجل حين يرجو أو يخاف ، وليست من المدائح النبويّة في شيء " ([1])

ويقلل محمود مكي من أثر الشعور الديني في القصيدة، ولكنّه يلتمس عذرا للشاعر الذي كان حديث عهد بالإسلام ، وإنما قالها الشاعر لا للإسلام ولكن ليحافظ على حياته، وأخذ يصوّر ما تملّكه من شعور بالخوف من العقوبة المنتظرة .([2])

على أنّ محمود سالم محمد في حديثه عن القصيدة يذكر أنّ أهميّة الرسول ومكانته المميّزة دعت الشاعر وغيره لمدحه ، بل لإظهار المعاني الدينية في شعره، أثناء وقوفه بين يديّ الرسول .([3])

---

[1] ـ المدائح النبويّة في الأدب العربي ، 15.
[2] ـ أدبيّات المدائح النبويّة ، 56.
[3] ـ ينظر المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي،71-72.

وبينما نرى أنّ مخيمر صالح يعجب بها أيّما إعجاب ويقول : " تأتي هذه القصيدة لتضيف لقصيدة المديح النبويّ عناصر جديدة ، وأبعادا جديدة أيضا، فهي إضافة إلى الأثر الذي تركته فيما بعد والمتمثّل في فنّ المعارضات الشعريّة، فإنها تركت أثرا من نوع آخر، وهو ما يتعلّق بالوقائع التي صاحبت هذه القصيدة وما خلفته وأورثته من تقاليد في قصيدة المديح النبوي، وإن اختلفت الصّورة والأشكال."[1]

وأرى أنّ هذه القصيدة كانت فتحا مبينا في ميدان المديح النبوي إذ أصبح الشعراء يتسابقون لمعارضتها [2]، والتضمين منها بأبيات أو بأشطار أبيات ، حتى غدت اللاميّة وكأنها القصيدة الوحيدة التي يعتدّ بها دون سواها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لو لم تكن القصيدة ذات قيمة لما طرح الرسول صلّى الله عليه وسلّم بردته على ناظمها إعجابا وتوقيرا، إذ لا يفوتنا ما كان يحمله النبي من قدرة بلاغية ، ونفسيّة ذوّاقة للشعر وعذوبته .

و بما أنّ الشاعر وافد جديد على الإسلام ،فلا يحاسب على عواطف دينيّة متصوّفة ، لأنّه مازال متشبّعا بمعاني الجاهليّة التي كان يغبّ ماءها ، ويرد حوضها، وبالتالي تجود قريحته بما تشرّب ، أمّا أنّ مدحه للرسول كغيره ممن مُدح به السّادة والأعيان، فمن الأجدر أن تحتلّ قصائد حسّان بن ثابت ـ وهي قصائد تعجّ بالعواطف الدينيّة الجيّاشة وتزخر بالمعاني الإسلاميّة الوارفة ـ مكان الصدارة بدل هذه القصيدة، وورود بعض العواطف لم ينقص من مكانتها ، ولم يقلل من معارضتها ، بل على النقيض فالاهتمام والعناية ما زالت وستبقى كذلك؛ لأنّ مدحتة النبويّة من طراز رفيع ، والشاعر كعب فنان رسم لوحة لكلّ من جاء بعده ممن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووضع الخطوط العريضة للمدحة النبويّة في قرون لاحقة .

[1] ـ **المدائح النبويّة بين الصّرصري والبوصيري**، 21-22.

[2] ـ لمزيد من المعرفة حول شرّاحها ومعارضيها وتوثيق مواردها ينظر عبد القادر البغدادي، **حاشية على شرح بانت سعاد** لابن هشام.وأحمد الشرقاوي، **بانت سعاد في إلمامات شتى**.وسعود بن عبدالله الفنيسان، **توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد**. و محمد ضياء الصابوني ، **نفحات من الأدب الإسلامي**، 96-113.و كتاب ابن هشام الأنصاري ، **شرح قصيدة بانت سعاد**.

كما ويحسب لكعب بن زهير ولقصيدته هذا الكم الهائل من تلك الكتب التي دخلت المكتبة العربيّة . مخطوطة (مجهولة لم تصل إليها أيدي الغيورين من أبناء العربيّة) أو محققة سواء كان ذلك بالشرح ، أو بالمعارضة ، أو بالتخميس ، أو بالتعليق ، فهذه إضافة علميّة وأدبيّة يستحقّ عليها الشاعر الإشادة والتقدير، ويجدر بنا في هذا المقام أن نورد أسماء أشهر من عارضها ، مكتفيين بذكر مطالع القصائد ، ومرتّبين الشعراء وفق سنة الوفاة ، ومن هؤلاء الشعراء :

1. **الشماخ بن ضرار، (ت 22هـ) ومطلعها:**

بانت سعـــــــاد فنوم العين مملول   وكـــــــــــان من قصر من عهدها طول

2. **عبدة بن الطبيب (ت25هـ) ، ومطلعها :**

هل حبـــل خولة بعد الهجر موصول   أم أنـــــــــــــت عنها بعيد الدار مشغول

3. **الأخطل التغلبي ، (ت 92هـ) ومطلعها :**

بانت سعـــــاد ففي العينين ملمول   العقـــــــل مختبـــل والقلب متبول

4. **محمد بن العبّاس أحمد الأبيوردي الأموي ، (ت 507هـ)، ومطلعها :**

خاض الــــــدجى ورواق الليل مسدول   برق كمـــــــــا اهتزّ ماضي الحدّ مصقول

5. **الإمام أبو القاسم محمود الزّمخشري (ت 538هـ)، ومطلعها :**

أضاء لي باللــــــوى والقلب متبول   نجديّ بـــــــرق بنار الحبّ موصول

6. **أبو الحسن علي بن محمد الخوارزمي، (ت 560هـ)، ومطلعها:**

أضاء برق وســـــــجف الليل مسدول   كما يهـــــــــــزّ اليماني وهو مصقول

7. **أبو الفضل عبد المحسن بن محمد التنوخي الحلبي ،(ت643هـ)، ومطلعها:**

صبّ عليـــــــل وما بالرّبع تعليل   فليس إلا علـــى الإعـــوال تعويل

8. يحيى بن يوسف الصّرصري ،(ت656هـ)

ركب الحجـــــــاز ومنك الخير مأمول   هل عندك اليـــــــوم للمشتاق تنويل

9. شرف الدّين البوصيري (ت696هـ) ، ومطلعها :

إلى متى أنـــــــــت باللذات مشغول   وأنـــــت عن كـــــلّ ما قدّمت مسؤول

10. الشهاب أحمد بن عبد الملك المعروف بالعزازي([1]) ، ومطلعها :

دمي بأطـــــــــلال ذات الخال مطلول   وجيش صبـــــــري مهزوم ومفلول

11. عز الدّين الموصلي (ت710هـ)، ومطلعها :

هل يبـــــــــرئ الصبّ قبل الموت تقبيل   فقلبـــــــــه بكؤوس الشوق معلول

12. ابن سيّد الناس اليعمري ، (ت 734هـ) ومطلعها :

قلبي بكـــــــــم يا أهيل الحيّ مأهول   ووصلـــــــــه بأماني الوصل موصول

13. نور الدين الحسن بن علي المصري (ت739هـ)، ومطلعها :

سلمى سلـــــــــمت ففيك الصّبّ مقتول   والعذر منـــــــك شبيه الذر مقبول

14. محمد بن يوسف بن علي النفري ، أبوحيّان،(ت745هـ) ومطلعها :

لا تعذلاه فمـــــــــا ذو الحبّ معذول   العقل مختبـــــــل والقلب متبول

15. صلاح الدّين خليل الصّفدي،(ت 764هـ)، ومطلعها:

سلوا الدّمـــــــــــوع فإنّ الصّبّ مشغول   ولاتملـــــــــــوا ففي إملائها طول

[1] ـ اختلف الباحثون حول سنة وفاته، فمنهم من جعل وفاته في القرن السّابع كما فعل يوسف النبهاني في المجموعة النبهانيّة، بينما نرى أنّ صاحب معجم أعلام شعراء المدح النبوي يورد بأنّ وفاته في القرن الثامن أي 710هـ. ويمكن القول إنّ وفاته كانت سنة اثنتين وتسعين وستمائة ن وهذا التاريخ أورده السيوطي في حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 1/ 440.

16. **جمال الدين بن نباتة المصري ، (ت768هـ) ، ومطلعها :**

ما الطرف بعـــــــــدكم بالنوم مكحول   هذا وكـــــم بيننا من ربعكم ميل

17. **شمس الدين محمد بن جابر ، (ت780 هـ) ، ومطلعها :**

بانت سعــــــــــاد فعقد الصبر محلول   والدمع في صفحـــــات الخدّ مبذول

18. **برهان الدين القيراطي ، (781هـ) ، ومطلعها :**

جرح الجفــــــــون بقذف الدمع تعديل   والحبّ شاهـــــده المجروح مقبول

19. **شمس الدين الزمردي المعروف بابن الصائغ (ت 786هـ) ومطلعها :**

دع قلبــــــــه فهو مشغول ومشغول   ودمعه فهـــــو مطلوب ومطلول

20. **عز الدين علي بن الحسين الموصلي، (ت 789هـ)، ومطلعها :**

هل يبرئ الصـــــــبّ قبل الموت تقبيل   فقلبـــه بكـــؤوس الشوق معلول

21. **علاء الدين الدمشقي ، ومطلعها :**

مصون دمعــــــــي على الخدين مبذول   وفيـــــكم أنا معذور ومعذول

22. **الإمام محيي الدين أبو طاهر الفيروزآبادي (ت817 هـ) ومطلعها :**

هل حبـــــــل عزّة بعد البين موصول   أو بـــارق الوصـــل بين البين مأمول

23. **جمال الدين أبو حامد القرشي المكي (ت819هـ) ومطلعها :**

قلب المحــــــــبّ عن العزال مشغول   فليس ينفـــع فيه القال والقيل

24. **الشيخ القلقشندي زين الدين عبد الرحمن محمد ، (ت 826هـ) ومطلعها :**

سيف العيـــــــون على العشّاق مسلول   وصـارم اللحـــظ مسنون ومصقول

25. شمس الدين محمد بن حسن النواجي ، (ت 859هـ) ومطلعها :

قلب على الحـــــــبّ والأشواق مجبول هيهـــات ينفع فيه القال والقيل

26. القاضي بهاء الدين بن محمد الباعوني الشامي،(ت916هـ) ومطلعها :

نومي بـــــــــقراح السهد مغسول فكيـــف يحصل لي من طيفكم سول

27. علاء الدين بن مليك الحموي ، (ت917هـ) ومطلعها :

رأى العقيق فأجـــــــرى دمعه لولو متيــــم دمـــه بالهجر مطلول

28. أحمد بن علي الحميدي الوراق المصري، (ت1005هـ) ومطلعها:

بانت سليمى ففكر الصـــــــبّ مشغول وقلبه من لظـى الهجران مشعول

29. عبد الرحمن بن حسن بن عبد الفتاح، ومطلعها :

لـي في الهـــــــوى مذهب ما عنه تحويل ومـــا لحبـــــي تغيير وتبديـــــل

30. الشيخ عبد الغني النابلسي ، (ت 1143هـ) ومطلعها :

هل في البــــــروق عن الأحباب تعليل لا والذي مالـــه في الحكم تعليل

31. أيمن بن خالد بن محمد بن أحمد الجندي، (ت 1257هـ)ومطلعها:

واقتك بالعـــــــزّ خود زانها الطول بديعـــة لحظها بالسحر مكحول

32. أحمد فارس الشدياق، (ت1314هـ) ومطلعها :

زارت سعـــــــاد وثوب الليل مسدول فما الرقيـــب بغير النشر مدلول

33. يوسف بن إسماعيل النبهاني، وهي من أطول قصائد المعارضات في أدبنا العربي، حيث بلغت ألفا وأربعمائة وأربعين بيتا ، ومطلعها :

هـــــــواي ظبية لا بيضـاء عطبول ومنيتي عينهـــــا الزرقاء لا النيل

34. أحمد بن محمد الحملاوي،(ت 1351هـ)، ومطلعها:

القـــــــــــلب بالحبّ مشغوف ومشغول   والجسم بالوجـــــــــــد منهوك ومهزول

ويمكن القول بأن هذه المعارضات التي ذكرت تعدّ غيضا من فيض ، و كما ذكرنا سابقا أنّ هذه القصيدة قد سارت بها الرّكبان ، وعارضها صاحب كلّ بيان ، وتناقلها الرّواة مع تقادم الزّمان إلى عصرنا الحاضر .

ومن الباحثين من وقع في مغالطة أثناء إيراد تلك المعارضات عندما عدّ بعض تلك القصائد التي تختلف في رويها، ووزنها من ضمن معارضات لاميّة كعب، فقد أورد سعود بن عبد الله الفنسيان في كتابه الموسوم بِ (توثيق بانت سعاد في المتن والإسناد) قصيدةً لعبد الله بن ظاهر بن نشوان السعدي وهي من الطويل في بحرها، وحرف رويّها الكاف، ومطلعها : [الطويل]

لقد قال كعـــب فـــــي النبيّ قصيدة   وقلـــــــــــــــــــنا عسى في مدحه نتشارك
فإنّ شـــــــــــملننا بالجوائز رحمة   كـــــرحمة كعـــــــــــب فهو كعب مبارك ([1])

وهذا يخالف تعريف المعارضة التي عرّفها محمد قاسم نوفل في كتابه قائلا : " يقول شاعر متأخّر عن شاعر متقدّم في الزّمان قصيدة مشابهة لقصيدته بالغرض والموضوع، مع الالتزام بالوزن والقافية وحركة حرف الرّوي، وعندها تكون المعارضة تامّة"([2]).

وبذلك يمكن القول إنها ليست معارضة لبردة كعب وبذلك نخرجها من ضمن المعارضات لأنها لا تتوافق مع شروط المعارضة .

[1] ـ توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، 120.
[2] ـ تاريخ المعارضات في الشّعر العربيّ ، 13.

أمّا شعر كعب في مديح النبي فإنّه لم يقف عند اللاميّة، وإنما ترى شعره مبثوثا في ديوانه ، ولكن لم يحفل ذلك الشعر بمثل ما حفلت به اللاميّة ، فهو يطلق بعض الصفات الحسيّة على النبي من مثل قوله : (مجزوء الكامل)

مسح النبـــيّ جبينه فلـــه بياض بالخدود
وبوجهه ديباجة كرم النبـوّة والجدود ([1])

حميد بن ثور الهلالي ([2])

هو أحد شعراء الاعتذاريات الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة المسلمين ، وفتحت مكّة المكرمة ، دخل أصحابها في الإسلام ، معلنين إسلامهم ،ومبايعين للرسول ومعتذرين عما بدا منهم تجاه الرسول ومن ناصره ،فهي محاولة منهم للتكفير عما قدّمت ألسنتهم ،فقبل منهم الرسول ذلك ، وبذلك تحوّلوا إمّا طائعين أو كارهين ، ولكنهم مع مرور الأيام دللوا على حسن مقصدهم وعبّروا عما يدور بخلدهم ، فقد قدم حميد إلى النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وأخذ ينشد قائلا: (الرجز)

أصبح قلبـــي من سليمى مقصدا إن خطـــأ منهـا وإن تعمّدا
فحمّل الهـمّ كلازا ([3]) جلعدا ([4]) تـرى العليفـى([5]) عليها مؤكدا
حتى أرانـا ربّنا محمّدا يتلـو من الله كتـابا مرشدا
فلم نكـذّب وخررنـا سجّدا نعطى الزكـاة ونقيم المسجدا ([6])

---

[1] ـ كعب بن زهير ، **الدّيوان** ، 191.
[2] ـ هو حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر الهلالي، شاعر مخضرم، عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة في الشعراء الإسلاميين، من الشعراء المجيدين، واسع الخيال، يغلب على شعره الوصف والغزل، توفي نحو 30هجرية . ينظر ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء**، 4/175-178. و الصفدي ، **الوافي بالوفيات** ،13/193. وابن قتيبة ،**الشعر والشعراء**،1/ 390-394.والزركلي ،**الأعلام**، 2/283.
[3] ـ كلازا : الناقة المجتمعة الخلق الشديدة .الفيروزآبادي، **القاموس المحيط** (كلز) 1/719.
[4] ـ جلعدا: الصّلب الشديد. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**(جلعد) 1/402.
[5] العليفى: رجل تنسب إليه الرحال العلافيّة ،لأنّه أوّل من عملها. الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط**، (علف) 2/1117.
[6] ـ حميد بن ثور ، **الدّيوان** ،77-78.

ابتدأ الشاعر حديثه عمّا كابده من طعنة نجلاء أصابت قلبه عن قصد أو من دون قصد ثمّ يتحدّث عن ناقته ويبيّن قوّتها وشدّة تحملها ، ثمّ ينتقل إلى مدح النبي ، مظهرا ما تملّك قلبه من إيمان بفضل هدي النبي العدنان ، تاليا ما أنزل الله من قرآن ، وتجد أنّه يركّز على المعاني الدينيّة ويتأثّر بها تأثّرا واضحا .

العبّاس بن مرداس ([1]):

وفد على الرسول مع قومه ،أعلن إسلامه، ثمّ عاد إلى قبيلته وحرق ضماد، ذلك الصنم الذي كان يعبده ، وأورثه له أبوه ،ثمّ عاد من جديد إلى الرسول، وأنشد :(الطويل)

لعمــــــــرك إني يوم أجعل جاهلا ضمــادا لــــــــــربّ العالمين مشاركا
وتركي رســـــــــول الله والأوس حوله أولئــــــك أنصـــــار له ما أولئكا
كتارك سهـــــــــل الأرض والحزن يبتغي ليسـلك في وعــــــــث الأمور المسالكا
فآمنــــــــــت بالله الذي أنا عبــده وخالـــــــفت مــــن أمسي يريد المهالكا
ووجّهت وجـــــــــهي نحو مكة قاصدا أبايــــــــع نبيّ الأكرمـين المباركا
نبيّ أتــــــــانا بعد عيسى بناطق مــن الحـــــقّ فيه الفصل فيه كذلكا
أمين على القـــــــــرآن أوّل شافع وأوّل مبعـــــــوث يجيب الملائكا
تلافى عرى الإســـــــــلام بعد انتقاضها فأحكــــــمها حتى أقام المنسكا
عنيتــــــــــك يا خير البريّة كلها توســـطت في الفرعين والمجد مالكا([2])

ويظهر في الأبيات السابقة طغيان العاطفة الدينية ، ومن خلالها يتصدى لتبيان المآثر التي خصّ بها سيدنا محمد ، فطيب المنبع والأرومة ، ويكفيه شرف أن أنزل القرآن عليه، والشفاعة قصر عليه .

---

[1] ـ هو أحد المخضرمين،كان بدويا سيّدا في قومه ، أسلم بعد أن توجّه الرسول لفتح مكّة،شارك في فتح مكة ، وكذلك اشترك في حنين، خلد انتصارات المسلمين في قصائد كثيرة، توفي سنة ثماني عشرة من الهجرة .الزركلي، **الأعلام**،267/3. وينظر محمد ساري الديك،**العباس بن مرداس السلمى حياته وشعره**، أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة الكوفة.1996م .

[2] ـ محمد أحمد درنيقة، **معجم شعراء المدح النبوي**،198-199.

وقد أضفى الثناء على الرسول في قصيدة أخرى ، حيث جاء بالحقّ ، وأصبح معلما للبشرية ، ونشر النور بعد كانت الأمّة تعيش ظلاما دامسا ، وعندما ألقاها بين يدي الرسول كساه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلة على هذه المدحة، يقول : (الطويل)

رأيتــــك يا خير البريّــــــة كلها   نشـــــــــــــــرت كتابا جاء بالحـق معلما
ونـــــوّرت بالبرهـــــــان أمرا مدمسا   وأطفأت بالبرهـــان نـــــــــــارا مضرما
فمن مبلـــغ عنـــــــي النبي محمدا   وكل امرئ يجـــــــــــزى بما قــد تكلما
تعالى علـــوا فـــــــوق عرش إلـهنا   وكان مكـــــــــان الله أعلى وأعظما ([1])

من خلال مدائح العباس للرسول يظهر فيها أثر القرآن الكريم بجلاء ووضوح، وقد علق محمد ساري على مدائحه النبوية بأنها منبثقة من شعور دافئ بعيد عن المراءاة،وإنما هي إعجاب بمثل سامية تعلق بها ، وآمن بصاحبها ولم يكن من وراء تلك المدائح أيّ مطامع شخصيّة أو مكاسب ماديّة .([2])

حسّان بن ثابت ([3]) :

شاعر الرّسول الأوّل ، الذّائد عن حياض الإسلام والمنافح عن الدّعوة بكل مراحلها ، والمهاجم للخصوم ، كيف لا ؟ والرسول كان يمنحه الحرّيّة كاملة من أجل هذه الغاية وهو الوقوف سدّا منيعا في وجه الخصوم ، الذين أعلنوها صريحة في وجه الرسول والمسلمين ،

---

[1]ـ ابن عبد ربّه ، **العقد الفريد** ، 92/2.
[2] ـ **العباس بن مرداس حياته وشعره،** أطروحة ماجستير مقدمة إلى جامعة الكوفة ،1996م .
[3] ـ حسّان بن ثابت : هو حسّان بن ثابت بن المنذر، يكنى أبا الوليد وأبا الحسام ، أمّه فريعة من الخزرج ، وهو جاهلي إسلامي متقدّم في الإسلام ، كان يفد إلى الملوك ليمدحهم ، شاعر الرّسول الأوّل بلا منازع ، مات في خلافة معاوية،سنة 54هجريّة ، حيث عمي في آخر أيّامه .ينظر ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء،** 305/1-308.
و الصّفدي ، **الوافي بالوفيات** ،350/11–358.والسبكي، **طبقات الشافعيّة الكبرى**،41/2. وابن خلكان ،**وفيات الأعيان**،351/6. والأصفهاني ، **الأغاني** ،129/4-131.وعمر فرّوح ، **تاريخ الأدب العربي**،325/1–331. شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي**،77-83.ومحمد أحمد درنيقة ،**معجم أعلام المدح النبويّ**،114–120. مصطفى صادق الرّافعي،**تاريخ آداب العرب**، 46/3.

فكان أهلا لهذه الثقة ، بل برع وتفوّق وأقام الحجّة ، ولكن بأسلوب الخصم، بما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وتحت بصر النبي المبارك محمد .

وعندما يقف حسّان مادحا الرسول ؛فإنه يصدر مدحه عن عاطفة دينية فيّاضة ومتأجّجة، لا تصدر إلا منه ، ويطلق مجموعة من الصّفات المعنويّة على النبي في كلّ فرصة تسنح له ويراها مناسبة ،فهو يذكر النبيّ في بدر : (البسيط)

مستشعري حلـــــــق الماذيّ يقدمهم([1])   جلـد النحيـــــــــــزة ماض غير رعديد
أعني الرســـــول فإنّ الله فضّله   علـى البـــــــــريّة بالتقوى وبالجود
فينا الرّســـــول وفينا الحقّ نتبعه   حتى الممـــــــــات ونصر غير محدود
ماض على الهـــــول ركّاب لما قطعوا   إذا الكمـاة تحامـــــــوا في الصناديد
واف وماض شهــــــاب يستضاء به   بدر أنـــــــــار على كلّ الأماجيد
مبارك كضياء البــــــــدر صورته   ما قــــــال كان قضاء غير مردود([2])

والرسول سراج منير ،و سيف صقيل ،أتى بعد فترة ليكون هاديا للبشرية ، أنذر ها من النار، وبشر بالجنة حيث مآل الصالحين ، وهو كريم الوجه ، يزيده جمالا خاتم النبوّة، ويعلو شرفا عندما قرن باسم ربّه ، يقول (الطويل)

أغـــرّ عليـــــــــه للنبوّة خاتـم   من الله مشهـــــود يلوح ويشهد
وضمّ الإلـــــــه اسم النبيّ إلـــى اسمه   إذا قـــال في الخـــمس المؤذّن أشهد
وشقّ لـــــــه من اسمــه ليجلّه   فذو العـــــرش محمود وهذا محمد
نبيّ أتانـــــــا بعد يـأس وفترة   من الرّســـــل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجــــــا مستنيرا وهاديـا   يلـوح كمـــــا لاح الصّقيل المهنّد
وأنذرنا نـــــــارا وبشّر جنّة   وعلّمنـــا الإسلام فالله نحمد
وأنت إلـــــــه الخلق ربّي و خالقـــي   بذلك مــا عمّرت في النّاس أشهد([3])

---

[1] ـ مستشعري حلق الماذي : أي يلبسون الدروع .الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط،** (مذي)،485/1.

2- حسان بن ثابت، **الديوان،** تحقيق وليد عرفات،128/1-129.

[3] ـ حسّان بن ثابت ، **الدّيوان** ، تحقيق عبدأ مهنّا ، 54.

وأبدع حسّان في همزيّته التي مدح فيها الرسول، عندما جعل منها مجالا للإيحاء ومصدرا للإلهام عند الشعراء العاشقين والمحبين لشخصيّة محمد: (الوافر)

وأحسن منـــــــــك لم ترقطّ عيني وأجمل منـــــــــــك لم تلد النساء
خلقت مبـــــــــرّأ من كلّ عيب كأنّـــــــــك قد خلقت كما تشاء([1])

بتلك الألفاظ المعبّرة والموحيّة ،حيث ترتاح الأذن عند سماعها، وتستقبلها بحفاوة قلّ نظيرها من بين ألفاظ أخريات قيلت في مثل هذا الموقف، ولعمري إنها من أجمل ما وصف بها النبيّ على لسان بشر ، كيف لا يتحلى سيّدنا محمد بتلك الصّفات ؟ وقد أثنى الله عليه، ونعته بأجمل الصفات، التي يمكن لبشر أن يتحلى بها، حيث وصفه في كتابه العزيز " وإنّك لعلى خلق عظيم " ([2]) ولكن يجدر بنا أن نشير إلى أنّ وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجلّ وأرفع من أنّ يحيط بها بشر ، أو أن يضمّها شعر و نثر .

ومسألة مدح النبي وإطلاق الصّفات عليه شغلت الدّارسين بين مؤيّد ومعارض لذكرها، أو التغزّل بها ، فالصّفدي يجوّز إطلاق تلك الأوصاف لأنها تحمل الحلاوة من رقّة الغزل، فالنبي بما حمل من خصائص وصفات جعلته مدعاة للتغني بها من قبل أصحابه، فقد كان أشدّ حياء من العذراء في خدرها ، وهي لا تنفي أن يكون من النجدة والشجاعة والسّبق إلى لقاء عدّوه في الغاية التي تقف دونها همم الأبطال ؛ فلا ريب إذا من ذكرها والتغني بها ([3])، وهذا ما ذهب إليه الحموي في معرض حديثه عن جمال المطلع ، فقد أشار إلى أنّ التشبيب مرقص للأسماع .([4])

ويذهب عبد الغني النابلسي إلى ما هو مخالف، عندما يقول عن الشاعر المادح بقوله: " يتعيّن عليه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين، ويتحرّز مما يكرهون سماعه ويتطّيرون منه فيتجنّب ذكره ، ويختار لكلّ شيء ما يناسبه ويحتشم في غزل المديح

[1] ـ المصدر السّابق،21.
[2] ـ سورة القلم ، آية 2.
[3] ـ **الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم**، 272/1-273.
[4] ـ ينظر **خزانة الأدب** ، 19/1.

النبوي ... ويطرح ذكر التغزّل في الرّدف والخصر والقدّ والنحر ونحو ذلك فإنّ سلوك هذا الطّريق في المديح النبوي مشعر بقلّة الأدب "([1])

أمّا الباحث فيذهب إلى أنّ المادح رهن بالممدوح ، فإذا ما تيّم به وتعلّق به ، فإنّ ذلك يكون مدعاة لاستخدام ما يطربه من ألفاظ و تعابير، حسيّة كانت أو معنويّة ، أضف إلى ذلك أنّ طبيعة الإنسان وغريزته تتشّوق للاستماع لما هو محبب ولا شكّ في أنّ ألفاظ الغزل عادة ما تكون مطربة .

وعندما يقف حسّان منافحا عن الدّعوة المحمديّة ، فإنّه يتصدّى لخصومها مع أنهم من أقرباء الرسول، ويعمل على سلّه كما تسلّ الشعرة من العجين ،ويتأتى له ذلك من خلال التحفيز من الرسول أولا ، ومن خلال قدرته على التلاعب بالألفاظ والمفردات التي تخيّرها وفق ميزانين يوافقان طبيعة الموقف ثانيا ، فهذا حسّان يمدح المصطفى وذلك قبل فتح مكّة ، ويهجو أبا سفيان ([2])، وكان قد هجا النبي قبل إسلامه : (الوافر)

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء([3]) منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفّيها الرّوامس والسّماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء ([4])

وفي هذه المدحة يبدأ حسّان بذكر الأطلال، جريا على عادة الجاهليين ، حيث يتذكّر تلك البقاع التي لطالما ألفها وجاسها ، ومع تقادم الزّمان عفت، وأصبحت آثارا دارسة، ويستغرق في الحديث عنها ، ثمّ ينتقل بسلاسة إلى تهديد قريش وما سيحلّ بها، حيث فتح مكّة ، وفيه يعزّ الله المؤمنين، يقول :

---

[1] ـ **نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار**، 10.
[2] ـ أبو سفيان : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، من رجالات الجاهليّة والإسلام، أخو رسول الله من الرضاعة ، في بداية الدعوة كان من المعادين للإسلام ، حيث هجا الرسول وأصحابه،أسلم وحسن إسلامه ، له شعر كثير في الجاهليّة هجاء بالإسلام ، وشعر كثير في الإسلام هجاء للمشركين ، مات سنة عشرين هجرية وصلى عليه عمر بالمدينة . ينظر الزركلي ، **الأعلام** ،276/7.
[3] ـ عذراء : بالفتح ثمّ السّكون ، والمد، وهو في الأصل الرّملة التي لم توطأ ،قرية بغوطة دمشق من إقليم خولان ،قتل فيها حجر بن عدي الكندي وفيها دفن، يقربها راهط الموقعة التي حدثت بين الزبيرية وآل مروان ، وفي تلك البقاع آل جفنة الذين كانوا ممدوحين من الشاعر، يطلب رفدهم وعطاءهم.ياقوت الحموي ، **معجم البلدان**، 91/4.وينظر البكري ، **معجم ما استعجم** ،161/1.
[4] ـ حسّان بن ثابت ، **الدّيوان** ، 17-18.

فإمّا تعــــــــــــرضوا عنّا اعتمرنا   وكان الفتــــــــــــح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبــــــــــــروا لجلاد يوم   يعــزّ الله فيـــــه مـــن يشاء
وجبريل رســــــــــول الله فينا   وروح القــــــــــدس ليس له كفاء
وقـــــــال الله قـــد أرسلت عبدا   يقـــــــــول الحقّ إن نفع البلاء
شهدت به فقومــــــــــوا صدّقــوه   فقلتــــــــــــم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قــــــــد يسّـرت جندا   هم الأنصـــــار عرضتــــــها اللقاء
لنا في كـــــــــــلّ يوم من معدّ   سباب أو قتـــــــــال أو هجاء
فنحكم بالقـــــــــوافي من هجانا   ونضرب حيــــــــن تختلط الدماء (1)

وينتقل إلى توجيه نار هجائه لأبي سفيان بن الحارث ، وإلى قبيلته، فينال منهم، لأنّه من نذر نفسه دفاعا عن ذمار الإسلام والمسلمين ، خاصّة نبيّ الله محمدا ، ويصف لسانه في آخر القصيدة بأنه سيف مسلط على رقاب الأعداء ، وفي السّياق نفسه هو بحر لا يتكدّر من كثرة الدّلاء التي تستقي منه :

ألا أبلـــــــــغ أبا سفيان عنّي   فأنت مجـــــــــــــوّف نخب هواء
بأنّ سيــــــــــوفنا تركتك عبدا   وعبد الـــــدّار سادتـــــــها الإماء
هجوت محمــــــــــــدا فأجبت عنه   وعنـــــــد الله في ذاك الجـــــــزاء
أتهجــــــــــوه ولست له بكفء   فشرّكمـــــا لخيركـــــما الفداء
هجـــــــــوت مباركا برّا حنيفا   أمين الله شيـــــــــــمته الوفاء
فـــإنّ أبـــــــي ووالده وعرضي   لعـــــــرض محمد منـــكم وقاء
لســــــــاني صارم لا عيب فيه   وبحـــــــــري لا تكّـــدره الدّلاء(2)

وقصيدته تظهر بجلاء قدر ا كبيرا من العاطفة الدينيّة ، فهو عندما يمدح الرّسول يتخذه عنوانا للمسلمين جميعا ، فيردّ على الخصوم من المشركين ، ويستخدم سلاحا فتّاكا ضدّهم أهّله أن يكون مثابة وزير للإعلام - في أيّامنا هذه - عهد النبيّ ، ويلاحظ أنّ شعره

---

[1] - المصدر السّابق ، 19-20.
[2] - نفســـــــه ،20-21.

لم يأت للمدح من أجل المدح ، وإنّما امتاز بإخلاص وصدق ، جعلت منه سيفا مسلطا على رقاب الأعداء .

ومن غير شكّ فإنّ شعره عدّ وثيقة تاريخيّة، إضافة إلى كونه وثيقة أدبيّة ؛ لأنّه ضمّن قصائده وأبياته الشعريّة من الأحداث والتواريخ ما يدلّل على أنّ الشعر كان ومازال وسيبقى وعاء للتاريخ ، يرصده ويجاريه ويظلّ شاهدا عليه ، فها هو حسّان يسجّل مواقف الأنصار الذين نصروا نبيّ الله ، ويستغلّ الفرصة ليمدح النبيّ ، ويفاخر بنصرة الأنصار له ويذكر محاربة قريش : (الطويل)

ثــــــوى في قريش بضع عشرة حجّة   يذكّر لــــــــــو يلقى صديقا مؤاتيا
ويعـــــــــرض في أهل المواسم نفسه   فلم يــــــــــر من يؤوي ولم ير داعيا
فلمّـــا أتـــانا واطمأنت به النّوى   فأصبــــح مســـرورا بطيبة راضيا([1])
وأصبــــــــح لا يخشى عداوة ظالم   قريــــب ولا يخـــــشى من الناس باغيا
بذلنــــــــا له الأموال من جلّ مالنا   وأنفســــــــنا عند الوغى والتآسيا
نحـــــــارب من عادى من الناس كلهم   جميعــــــــــا وإن كان الحبيب المصافيا
ونعـــــــلم أنّ الله لا ربّ غيره   وأنّ كتــــاب الله أصبح هاديا([2])

فقد عرض من خلال أبياته انطلاقة الدّعوة الإسلاميّة بقيادة الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم عندما كان يعرض نفسه على القبائل داعيا ، ثمّ انتقل إلى المدينة مهاجرا بعد دخول الأنصار في الإسلام ونصرتهم له .

وعندما يلتحق الرسول بالرّفيق الأعلى يبكيه الشاعر متفجّعا بغرر القصائد ، ويعبّر فيها عن خالص المشاعر التي يكنّها للرسول ، فالتقدير والحبّ والثناء ، والتمني باللقاء ، بأن يجمعه به ربّ السّماء، ويذكر أفعاله ـ صلّى الله عليه ـ كما ويذكر المسجد والمنبر ، وأنّ الأرض والسّماء قد وجمتا عندما سمعتا بخبر وفاته ، يقول في الدّالية : (الطويل)

[1] ـ طيبة : بالفتح ثمّ السّكون ثمّ الباء موحدة : وهو اسم لمدينة رسول الله ، وهي من الطيب، الرّائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها فيما قيل، وقيل : من الشيء الطيب وهو الطاهر الخالص لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه ، وقيل: لطيب ساكنيها ، ولأمنهم ودعتهم فيها، وقيل: من طيب العيش بها ينظر ، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 53/4.
[2] ـ حسّان بن ثابت ، **الدّيوان** ،1/ 254.

بطيبـــــــــة رسم للرسول ومعهد منيـــــــــر وقد تعفو الرّسوم وتهمد
ولا تنمـــــــــحي الآيات من دار حرمة بها منبـــــــــر الهادي الذي كان يصعد
وواضـح آيـــــات وباقي معالم وربـــــــــع له فيه مصّلى ومسجد
بها حجــــــــرات كان ينزل وسطها من الله نـــــــــور يستضاء ويوقد
معارف لـــــــــم تطمس على العهد آيها أتـــــــــاها البلى فالآي منها تجدّد
عرفت بهـــــــــا رسم الرّسول وعهده وقبـــــــــرا بها واراه في الترب ملجد
ظللـــــــــت أبكي الرّسول فأسعدت عيـــــــــون ومثلاها من الجفن تسعد
تذكّـــــــــر آلاء الرّسول وما أرى لها محصيـــــــــا نفسي فنفسي تبلّد
مفجّعـــــــــة قد شفّها فقد أحمد فظـــــــــلّت لآلاء الرسول تعدّد
فبوركـــــــــت يا قبر الرّسول وبوركت بلاد ثـــــــــوى فيها الرّشيد المسدّد
لقد غيّبـــــــــوا حلما وعلما ورحمة عشيّـــــــــة علّوه الثرى لا يوسّد
فبكّـــــــــي رسول الله يا عين عبرة ولا أعرفنـــــــــك الدّهر دمعك يجمد
مع المصطـــــــــفى أرجو بذاك جواره وفي نيـــــــــل ذاك اليوم أسعى وأجهد
وما فقـــــــــد الماضون مثل محمد ولا مثلـــــــــه حتى القيامة يفقد([1])

وكأني به يتخذ من وفاة النبيّ مسحة إنسانيّة ، فالبشريّة جمعاء لن تأتي بمثل محمد ، وحال الأموات السابقين لن يصلوا إلى تلك المرتبة التي وصل إليها ، ومثل هذا النوع من الرّثاء لم يطرق من قبل أيّ شاعر آخر على عهد حسّان ، وهذه القصيدة ضعّفها زكي مبارك من الوجهة الشعريّة، ولكنه استدرك قائلا : هي من خير الشواهد على المدائح النبويّة .([2])

ويعلّق يوسف العظم على رثاء حسّان من خلال عقده موازنة بين رثائه في الجاهليّة، ورثائه في الإسلام بقوله : " ويكثر رثاء صادقا نابعا من قلب مؤمن محب لإخوانه ، مفجوع بفقدهم ، حزين على فراق أحبّة لا تربطه بهم رابطة من مال و لا آصرة من منفعة وإنّما رابطة عقيدة وآصرة إخاء صادق لا تنفصم عراها "[2]([3]).

---

[1] ـ المصدر السابق، 1/455-457.
2ـ المدائح النبوية في الأدب العربي،32.
[3] ـ شعراء الدعوة الإسلامية،50.
3

ولا شكّ في أنّ الصّدق تأتّى له من خلال إسلامه أولا ، ومن خلال ملازمته لسيّد الخلق ثانيا ، فقد لازم النبيّ طيلة مكثه في المدينة إلى يوم وفاته ،اكتسب منه الجرأة، فقد كان لا يخاف في الحقّ لومة لائم ، وبالتالي فاضت قريحته الشعريّة بكاء ورثاء للنبي يوم وفاته، وفي المحصّلة عندما تعود إلى ديوانه ، تجد لوحات فنيّة رائعة يعج بها،و يضمنها صفات النبي ومعجزاته وخصاله ، كانت بمثابة الفتح في التغني بها من قبل الشعراء بعد حسّان ، ولكن بأسلوب يمتاز بالرّقة والسهولة بعيد عن التعقيد والغموض ، لتحكم بعدها أنّك تقف أمام شاعر حقيق بأن يلقب بشاعر الرسول وبلا منازع .

كعب بن مالك الأنصاري : ([1])

من الشعراء الذين نذروا أنفسهم خدمة للدعوة المحمديّة ، فقد وقف شعره ولسانه من أجل ذلك ، وهو يعدّ ثالث شاعر من شعراء الرسول إلى جانب حسّان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة .

أسلم كعب مبكرا ، وشهد غزوات الرسول جميعا إلا غزوة تبوك ، ولكنّه شمل مع صاحبيه([2]) بالعفو الإلهي عندما نزلت آية التوبة ([3])، وقد أجاد في مناقضة شعراء قريش، والذود عن حياض الإسلام، ولشدّة حبّه للرسول فإنّ غالبية شعره جاء على شكل تصوير لمشاهد من حياة الرسول القائد و غزواته التي خاضها ضدّ الكفر وأهله ، وقد وصف ابن سلام كعبا بأنه " شاعر مجيد " ([4]) .

---

[1] ـ هو كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين كعب بن سواد ، أمّه ليلى بنت زيد ، ولد في يثرب ،شهد بيعة العقبة مع قومه وهو في الخامسة والعشرين ،فدخل الإسلام ،آخى الرسول بينه وبين الزبير بن العوام ، كان الرسول يطلب إليه أن ينشد ما قاله في الدّفاع عن الإسلام ، قيل أنه توفي زمن معاوية سنة خمسين وقيل سنة ثلاث وخمسين. ينظر الأصفهاني ،**الأغاني** ، 27/15. والمرزباني ، **معجم الشعراء** ،342. وعمر فروخ ، **تاريخ الأدب العربي** ، 323/1. والزركلي، **الأعلام** ، 228/5.

[2] ـ صاحباه هما: هلال بن أميّة ومرارة بن الرّبيع.

[3] ـ قال تعالى :" وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثمّ تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله التواب الرحيم " التوبة ، آية118.

[4] ـ **طبقات فحول الشعراء**، 183.

ويعرب كعب عن سعادته الغامرة بمجيء الإسلام ، حيث يفتخر بقومه لأنهم آمنوا، ونصروا الدين الجديد ، وأعزوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك بأسلوب شيّق وبيان رفيع ، يدل على قدرة شاعريّة فائقة، يقول في بدر : (الكامل)

لأنا عبـــــــدنا الله لم نرج غيره   رجاء الجنـــــــــان إذ أتانا زعيمها
نبي لـــــــه في قومه إرث عزّة   وأعراق صـــــــــدق هذبتها أرومه
فســــاروا وسرنا فالتقيــنا كأننا   أسود لقـــــــاء لا يرجى كليمها
ضربناهـــــم حتى هوى فـــي مكرنا   لمنـــــــــحر سوء من لؤي عظيمها
فولوا ودسناهـــــم ببيــض صوارم   سواء عليـــــــنا حلفها وصميمها ([1])

والأبيات تحفل بالمعاني الإسلاميّة ، فالرسول عزيز من بيت عزّ ، وقومه ركيزة من ركائز الدولة الإسلامية ، وهم من ساعد على نشره ، وأبلوا بلاء حسنا في معارك الإسلام الفاصلة ، فهم الأسود في ميدان الوغى ، ونالوا من أعدائهم بالصوارم والبيض .

وعندما أتت موقعة بدر ، وقف كعب متوعدا أبا سفيان بن حرب بهزيمة نكراء ستطلّ عليهم من كداء ، عندها سيفرّ من اللقاء يقول : (الوافر)

فما حامـــــــــت فوارسكم ببدر   ولا صبـــــــــروا بـــه عند اللقاء
وردنـــــــــاه بنور الله يجلو   دجى الظلـــــــــماء عنا والغطاء
رسول الله يقـــــــــدمنا بأمر   من أمـــــــــر الله أحكم بالقضاء
فما ظفـــــــــرت فوارسكم ببدر   وما رجعـــــــوا إليكم بالسّواء
بنصر الله روح القـــــــــدس فيها   وميكـــــــــال فيا طيب الملاء ([2])

ويستغل معركة بدر ، حيث يشن هجوما عنيفا على الفئة الباغية ومن ناصرها من الشعراء، ويبيّن سوء المنقلب الذي حاق بالكفار وأعوانه، ويصوّب سهامه ضدّ سادة قريش، ممن قتلوا في هذه الموقعة ، فالنار مثواهم ، يقول :(الطويل)

عجبت لأمـــــــر الله والله قادر   على مـــــــــا أراد ليس لله قاهر

[1] ـ ابن هشام ، **السيرة النبوية**، 261/2.
[2] ـ نفســــــــــه، 261/2.

قضى يوم بدر أن نــــــــلاقي معشرا بغـــــــــوا وسليل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفـــــــروا من يليهم من النّــــــــاس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحـــــــاول غيرنا بأجمـــــــعها كعب جميعا وعامر
وفينا رســــــــول الله و الأوس حوله له معقـــــــــل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجـــــــار تحت لوائه يمشـــــــون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقينـــــاهم وكـــلّ مجاهد لأصحـــــــابه مستبسل النفس صابر
شهـــدنا بـــــأنّ الله لا ربّ غيره وأنّ رســــــول الله بالحقّ ظاهر
وقد عرّيـــــــت بيض خفاف كأنها مقابيـس يزهيـــــها لعينيك شاهر
بهنّ أبــــــدنا جمعهم فتبدّدوا وكان يلاقـــــــي الحين من هو فاجر
فكـــــــبّ أبو جهل صريعا لوجهه وعتبة قـــــد غادرنـــــه وهو عاثر
وشيبـــــــــة والتيمي غادرن في الوغى وما فيهم إلا بــــــذي العرش كافر
فأمســـــــوا وقود النار في مستقرّها وكـــــــلّ كفور في جهنّم صائر
تلظّـــــــــى عليهم وهي قد شبّ حميها بزبر الحـــــــديد والحجارة ساجر
وكـــــان رســـــول الله قد قال أقبلوا فولّـــــوا وقالـــوا: إنما أنت ساحر
لأمـــــــر أراد الله أن يهلـــكوا به وليس لأمـــــر حمّه الله زاجر ([1])

وبعد موقعة أحد يقف كعب ليردّ على هبيرة بن أبي وهب المخزومي ،حيث تتجلى فيها روعة التصوير في طاعة المسلمين لرسول الله والتفافهم حوله ، والدّفاع عنه ، وهم لا يفعلون ذلك إلا من أجل التقرّب وكسب رضا الرّب يقول : (الطويل)

وفيــــــنا رسـول الله نتبع أمره إذا قــــــال فينا القول لا نتطلّع
تدلّى عليــــــه الرّوح من عند ربّه ينزّل من جــــــوّ السماء ويرفع
نشاوره فيــــــما نريد وقصرنا إذا مــــا اشتـــهى أنّا نطيع ونسمع
وقال رســــــول الله لما بدوا لنا ذروا عنــــــكم هول المنيّة واطمعوا
وكونوا كمـــن يشري الحيـــاة تقرّبا إلى ملـــــك يحيا لديه ويرجع([2])

[1] ـ كعب بن مالك، **الديوان**،46-48.
[2] ـ نفســــــــــه ، 58-63.

ويقف كعب في غزوة الخندق موقفا بطوليا ، يظهر قدرا كبيرا من الالتزام الديني، يفتّ في عضد الكفار ، ويكرّ عليهم ويتحدّاهم في ساحة المعركة ، ويذكر صنوف العتاد الذي جهّزه المسلمون للانقضاض على الأعداء ، ويثني على المجاهدين الذين ناصروا الرسول ، وأسلموا أنفسهم لله طائعين ، وسلكوا طريق النصر، والله ناصرهم لا محالة ، يقول :

(الكامل)

من سرّه ضـــــــرب يمعمع بعضه   بعضا كمعمــــــــعة الأباء المحرق
فليـــــــأت مأسدة تسن سيوفها   بين المذاد وبين جـــــــزع الخندق
دربـــــــوا بضرب المعلّمين وأسلموا   مهجـــــــات أنفسهم لربّ المشرق
في عصبـــــــة نصر الإله نبيه   بهـــــــم وكان بعيده ذا مرفق
في كلّ سابـــــــغة تخط فضولها   كالنـــــــهي هبت ريحه المترقرق ([1])

ويتخذ كعب من موقعة الخندق مسلكا للردّ على شعراء قريش ويهاجمهم، فقد تصدّى لابن الزبعرى([2]) في البائيّة قائلا : (الكامل)

أبقى لنا حـــــــدث الزمان بقيّة   من خيــــر نحــــلة ربّنا الوهاب
بيضـــــــاء مشرقـــــة الذرا ومعاطنا   حـــــمّ الجـــــذوع غزيرة الأحلاب ([3])

فهو يبدأ قصيدته بالحديث عن المدينة المنوّرة ويبيّن جمالها، وكيف حماها الله سبحانه من الأعداء ، ثمّ ينتقل الشاعر إلى وصف الخيل ، حيث أفاض في وصفها بشكل دقيق ، ثمّ يصف أبطال المسلمين ويعدّد تشكيلات الجيش ، ويدخل في وصف السّلاح، ثمّ يمدح النبيّ الكريم ويشيد بالنعمة الكبرى التي أسبغها عليهم الإسلام ، ثمّ يختم بالبيت الذي أعجب به الرسول أيّما إعجاب ، يقول:

ومـــــــواعظ من ربّنا نهدى بها   بلســـــــان أزهر طيّب الأثواب

---

[1] ـ **المصدر السّابق** ، 75-76.

[2] ـ هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس، أحد شعراء قريش المعدودين ، كان يهجو المسلمين ويهاجمهم ،وكان شديد العداوة للرسول، كان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك ،ولكنه أسلم واعتذر للرسول فقبل اعتذاره،توفي في عهد عمر بن الخطاب،سنة15هجرية ، له ديوان شعر في المديح والهجاء . ينظر الصفدي ، **الوافي بالوفيات** ، 170/17. والزركلي، **الأعلام** ،87/4. وعمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي** ،268/1. ومحمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**، 204-206.

[3] ـ كعب بن مالك، **الديوان**،26-27.

عرضت علينـــــــــــا فاشتهينا ذكرها من بعـــــــد ما عرضت على الأحزاب
حكما يراهـــــا المجـرمـــــون بزعمهم حرجا ويفهـــــــمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كـــــــــــــي تغالب ربّها فليعلمنّ مغـــالب الـغــلاب ([1])

ولشدّة إعجاب النبيّ بالبيت الأخير قال" لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا "([2])، ففي هذا البيت الأخير يبين كعب ما وصلت إليه قريش من غرور ، فقد عميت بصيرتها؛ لأنها أرادت الوقوف ندّا لله ، ومن يفكر في ذلك فمصيره الخذلان والذل والهزيمة ،لأنّ الله غالب لا محالة .

ويغلب على شعر كعب في مديحه للرسول هالات دينيّة أخّاذة تدلّ على قدر كبير من الالتزام الأخلاقي اتجاه النبي وحبّه المتغلغل في صدر الشاعر ، ونأى كعب بنفسه عن الألفاظ الجافية والمعقّدة ، ولو أنّ كعبا لم يقل غير البيت إلي أعجب به الرسول لكفاه .

عبد الله بن رواحة ([3]):

لقد وقف ابن رواحة إلى جانب حسّان وكعب بن مالك في الذود عن الإسلام ، وفي مهاجاة الكفار ، فكان يعيرهم بالكفر وبعبادة الأوثان ، لكنهم كانوا يستخفون بهجائه في بادئ الأمر ، ولكن عندما أسلموا كان وقع الهجاء عليهم شديدا .
مدح عبد الله رسول الله مدائح عديدة ، وكان كثيرا ما يعنّف قريش على عصيانها للرسول ، ويظهر قدرا كبيرا من المحبة والتوقير لهذا النبيّ ، قال يهجو أبا سفيان بن حرب بعد بدر : (الطويل)

---

[1] ـ **المصدر السّابق** ، 27-28. وسخينة هي قبيلة قريش .
5ـ ابن سلام الجمحي ، **طبقات فحول الشعراء**، 222. وينظر معاذ السرطاوي وزميله، **مختارات من الشعر العربي**،68-79. حيث شرحت القصيدة وعلق عليها تعليقات لطيفة .
[3] ـ هو أحد النقباء الاثني عشر، أسلم وشهد بيعة العقبة الثانية ، كان كاتبا للرسول ، وبطلا مغوارا في الدفاع عن حمى الإسلام ، ومشهورا بمحبّته للرسول استشهد في معركة مؤتة سنة 8 هجرية . ينظر الصفدي ،**الوافي بالوفيات**،168/17ـ170. وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** ،12/1. وعمر فروخ ،**تاريخ الأدب العربي** ، 261/1-262. وخالد محمد خالد ، **رجال حول الرسول** ،206-209.

وعدنا أبـــــا سفيان بدرا فلم نجد لميعـــــاده صـــدقا وما كان وافيا
فأقســم لـــو وافيتــــنا فـلقيتنا لأبت ذميـــــما وافتقدت المواليا
تركنـا به أوصـــــال عتبة وابنه وعمـــــرا أبا جهـــل تركناه ثاويا
عصيتم رســــول الله أفّ لدينكم وأمركـــــم السيئ الذي كان غاويا
فإنـــــي وإن عنّفتموني لقائل فدى لرســــول الله أهلي وماليا
أطعنـــــاه لم نعدله فينا بغيره شهابا لنـــــا في ظلمة الليل هاديا ([1])

وعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب في أحد،أخذ عبد الله يبكيه ويثبّت من عزيمة الرسول حيث استشهد عدد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وها هو يمدح الرسول بأبيات في غاية الرّوعة، يذكر فيها بأنه وحي من الله ، وأفعاله كلها حسنة جميلة ، ويذكر بأنّ الأيام دول، يقول : (الوافر)

بكت عينـــــي وحقّ لها بكاها وما يغنـــــي البكاء ولا العويل
على أســـد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكـــــم الرجل القتيل
ألا يا هاشـــــم الأخيار صبرا فكلّ فعـــــالكم حسن جميل
رســــول الله مصطبر كريم بأمـــــر الله ينطق إذ يقول
ألا مــــن مبلــغ عني لـؤيّـا فبعـــد اليوم دائـــلة تدول ([2])

ومن جميل نظمه في الخندق ، يقول :(الرجز)

والله لـــــولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــــدّقنا ولا صلّينا
فأنزلـــــن سكينـــة علينا وثبّت الأقــــدام إن لاقينا
إنّ الذيــــن قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنـــــة أبينا ([3])

وعندما يمدح عبد الله بن رواحة الرسول ـ صلّى الله عليه وسلم ـ فإنه يذكر كثيرا من الصّفات المعنويّة ، التي كان يتصف بها ، ويكررها تأكيدا لتميّز النبي عمن سواه ، فهذا عبد

---

[1] ـ ابن هشام ، **السيرة النبوية**،125/3.
[2] ـ نفســـه ،89/3.
[3] ـ نفســـه ،210/3.

الله يتهيّأ للخروج إلى مؤتة بمعيّة جيش المسلمين ، يأتي إلى الرسول ليودعه قائلا :
(البسيط)

فثبّت الله ما آتـــــــاك من حسن تثبيت مـــــــوسى ونصرا كالذي نصروا
إني تفرّســـــت فيك الخير نافلة الله يعلـــــــم أني ثابت البصر
أنت الرّســـــــول فمن يحرم نوافله والوجـــــه منه فقد أرزى به القدر([1])

وعبد الله بن رواحة لا يختلف عن حسان بن ثابت وكعب بن مالك في مديحه للرسول، وإنما تشعر بأنّ العاطفة الدينيّة تسيطر عليه وتتملكه عن الآخرين ، وهذا يدل على عمق حبّ الرسول عنده ، أمّا مفرداته وألفاظه فقد جاءت موافقة للرسم العام الذي اختطه سابقه كعب في البعد عن الوعورة والتعقيد، ومع ذلك لم تنزل إلى حدّ الإسفاف أو الوضاعة ، وإنما جاءت مؤدّية للغرض .

ومهما يكن من أمر فإن الملاحظ على شعر المديح النبوي الذي تأجّج أواره في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، قد أخذ مناحي عدّة :

ـ فمنه ما جاء على شكل مديح الأعيان والرؤساء وكان الغرض منه كسب النوال والعطايا مثلما فعل الأعشى في مدحته ، حيث خلت من أيّ عاطفة دينيّة، وكان الميزان فيها يميل إلى الجاهلية، وهذا يتوافق مع ما أشار إليه صلاح عيد بقوله " وليس المديح إلا واحدا من صور النشاط الفني، وإذا تأملناه في الشعر العربي وجدناه في صورته العادية أو الشائعة يتضمن غاية مزدوجة دائما هي غاية الممدوح وغاية المادح، وغاية الممدوح هي غاية سياسية في أغلب الأمر، وربما أضيفت إليها غايته من إرضاء حاجة النفس الإنسانية إلى الإطراء، أما غاية المادح ففضلا عما يتغياه من تكوين مشاعر مرغوبا فيها تجاه ممدوحه، فإنه لا يتورع عن التصريح المباشر بغايته الاقتصادية الأولى والسياسية"([2]) .

ـ ومنه ما جاء على شكل اعتذار واستعطاف لكسب ثقة الرسول ، وللدخول في الدين

---

[1] ـ المصدر السّابق ،7/4.
[2]ـ صلاح عيد، **مديح الرسول في فجر الإسلام** ، 30.

الإسلامي ، وطلب العفو والصفح عمّا سلف ، ويمثل هذه الطائفة من الشعراء كعب بن زهير، وحميد بن ثور الهلالي ، غير أنه يمكن القول إنّ شعر الوافد الجديد إلى الإسلام لم يكن يحتوي تلك العواطف أو المظاهر الدينيّة ، أو المعاني الإسلاميّة التي ظهرت عند الشعراء الذين كانوا محسوبين على الرسول ، وكانوا من السّباقين إلى الإسلام ، وأبدعوا في ميادينه.

ـ و منهم أولئك الشعراء الذين كان لهم السبق إلى الإسلام ، وتأثروا به تأثرا عظيما ، ظهر هذا التأثر في المعاني التي طرقوها، وهي بمجملها معان دينيّة خالصة ، تدل على تدين من جهة ، وتدل على ما تملك هؤلاء الشعراء من حبّ لشخص النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، بل غدوا متأثرين بنهجه وأقواله وتصرّفاته ومستمدّين القوّة والعزيمة منه ، وبذلك التزموا تعاليم الإسلام ، مع أننا لا يجب أن ننسى أنهم مزجوا في مدحهم للرسول ما بين القديم الموروث، والجديد المستحدث ، مطوّعين بذلك ملكتهم الشعريّة خدمة للإسلام والمسلمين، ومصوّبين نار ألسنتهم إلى كلّ من يقف في وجه هذا الدين .

وبذلك نجد تباينا من وراء مديح الشعراء في هذه الحقبة للرسول الكريم ، فمديح حسّان يختلف اختلافا كبيرا عن مديح كعب بن زهير والأعشى ، مع كلّ ما نالته قصيدة كعب من استحسان وقبول وشيوع وذيوع عند الشعراء المقلدين والمعارضين ، وهذا الكلام ينسحب على الاختلاف بين مديح الأعشى للرسول ومديح كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .

ويبقى أن نضيف أنّ هذه الحقبة كانت الرّائدة و السبّاقة ، بل القدوة والمثال المحتذى للشعراء الذين جاؤوا بعدها من حقب في ميدان المديح النبوي، فقد أوجدت قصيدة كعب ساحة فسيحة للمعارضة ، وهكذا الحال بالنسبة إلى همزيّة حسّان التي عدّت من عيون المديح النبوي .

العصر الأموي :

وفي العصر الأموي تحديدا خفّ أوار مدح الرسول عن العصر السّابق ، غير تلك المساجلات التي حاول فيها الشعراء ربط أنساب الممدوحين بالرسول ،وبذلك نخرج تلك القصائد التي مدح بها آل النبي صلّى الله عليه وسلّم وعترته من فنّ المدائح النبويّة، نظرا لأنّ الشعراء عندما نظموا تلك القصائد سعوا لغاية محدّدة، وهي الانتصار لفريق على آخر ، وتبيان لأحقيّة الانتساب إلى النبيّ محمد، ومن الشعراء الذين نحوا هذا المنحى الكميت بن زيد في مديحه للهاشميين، وبيانه لأحقيتهم بالخلافة على حساب الأمويين ،ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى المغالطة التي وقع بها زكي مبارك عندما جعل مدح آل البيت جزءا من كتابه وضرب على ذلك أمثلة من شعر الفرزدق في مدح علي بن الحسين، والكميت في مدحه لآل النبي([1]).

لذلك يجدر بنا التنويه إلى أنه لم يعثر على قصائد مستقلة في مدح الرسول في العصر الأموي، إلا في بعض القصائد فقد ذكر في بيت أو بيتين من الشعر، ونستثني كذلك الكميت الذي مدح الرسول ببائيّته ، ويمكن أن يعزى هذا الأمر إلى طبيعة العصر وما حمل من نزاعات، وخصومات، ومناحرات، ومفاخرات أبعدت الشعراء قليلا عن النظم في المديح النبوي .

الكميت بن زيد ([2]):

يطالعنا الكميت بقصيدته البائيّة التي بلغت (138) بيتا، استغرق وصف الناقة(27) بيتا، ثمّ انتقل إلى بكاء آل البيت ، ووصف مقتل الحسين،ويعبّر عن حبّه لآل النبيّ ولكن بأسلوب يحمل نزعة المتصوّفين، ثمّ انتقل إلى هجاء الأمويين، مصورا ظلمهم واستبدادهم،

---

[1] ـ ينظر **المدائح النبويّة في الأدب العربي** ،39- 74.

[2] ـ هو الكميت بن زيد بن خنيس بن مخالد ، شاعر مقدّم ، عالم بلغات العرب، خبير بأيّامها من شعراء مضر، كان معروفا بالتشيّع لبني هاشم ضدّ الأمويين ، تعد قصائده الهاشميّات من خير شعره وأجوده ، توفي سنة ست وعشرين ومائة هجرية . ينظر الأصفهاني، **الأغاني**، 113/15–130. وابن قتيبة ، **الشعر والشعراء**، 581/2–584. وعمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي**،697/1-704.وشوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، 323-329. ومحمد عبد المنعم خفاجة، **الحياة الأدبيّة في العصر الأموي** ، 191-215.

والقصيدة أصلا مخصّصة لمدح آل البيت الكرام،ولكنها حملت في ثناياها كثيرا من صفات النبي، ومآثره التي تميّزه من بقيّة الخلق، ويصبغ الشاعر معانيه بحلة دينيّة، وبثوب سار على نهجه الشعراء من بعده،يقول فيها :(المنسرح)

فاعتتب الشـــــــوق من فـؤادي والـ شعر إلــــــــى مــن إليــه معتتب
إلى السّــــــــراج المنير أحمد لا يعــــــــــدلني رغبة ولا رهب
عنــه إلى غيره ولـــــــو رفع النّـ ـــاس إلى العيــــــون وارتقبوا
إليــك يـــا خير من تضـمّنت الـ أرض وإن عـــــــاب قولي العيب
لــــجّ بتفضــــيلك اللسان ولو أكثـــــــر فيك الضّجاج واللجب
أنت المصطفى المهذّب المحض في النّـ ـسبة إن نــــــــصّ قومك النسب
والســــابق الصــــادق الموفق والـ ـخـــاتم للأنبيـــــــــاء إذ ذهبوا
والحاشــــر الآخـــر المصــدّق لـلـ أوّل فيــــــــما تناسخ الكتب
يا صاحـب الحـوض يــوم لا شرب للـ وارد إلا مـــــــا كــــــان يضـطرب
نفســي فـدت أعظمـــا تضمّهـا قبــــــــرك فيه العفاف والحسب ([1])

وقد عاب الجاحظ على الكميت قوله لتلك الأبيات ، أو حتى استخدامه لتلك المعاني في مديحه للرسول، لأنه اعتبر مدحه للنبي بهذه الصورة كمن مدح الأمويين وعابه هاشميّ لأنّه جائز، أو العكس، وقد عدّه من المدح الخطأ .([2])

ويذهب الكميت إلى مباركة القبر الذي ضمّ الرسول، مثنيا عليه لأنّه حوى الحزم والسّماحة والبرّ ، يقول :

وبـــورك قبـــــر أنت فيه وبوركت بــــه ولــــــــه أهل بذلك يثــــرب
لـــــقد غيّبـــــوا برّا وحزمـــا ونـــائلا عشـــيّة واراك الصّفيــــــــح المنصّب

ويعلق الجاحظ بقوله: " فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامّة العرب ـ لما كان ذلك بالمحمود " ([3])

[1] ـ الكميت بن زيد ، **الهاشميّات**، 51.
[2] ـ ينظر الجاحظ، **الحيوان**،5/169-170.
[3] ـ **نفســـــه** ، 5/171.

ويردّ المرتضى على الجاحظ بأنّ ظاهر الأبيات خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلّم ، ولكنّ المقصود هم آله رضوان الله عليهم ولأنّ المسلمين لا يمتنعون عن الإطناب في وصف النبيّ وتفضيله، وتعنيفه، وبذلك لا يعنّفهم أحد ، وبذلك هو أراد آل النبي في حشد الصفات وتعنيفهم، فوجّه القول إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ([1]).

ويبدو من خلال تفسير المرتضى لشعر الكميت أنّه قد سلك طريق المديح النبوي خوفا من تعنيف الأمويين له ، وبذلك وظّف حديثه عن النبيّ من خلال ذكره لصفاته توظيفا آخر، ظاهره مديح للرسول وباطنه مناصرة لمبدئه الذي نهجه، وإذا ما عناه المرتضى صحيحا يمكن الحكم بأنّ العاطفة التي ظهرت في الأبيات لم تكن الغاية منها تمجيد النبي، وإنما كانت سترا وغطاء لبثّ مقدار من الحبّ لآل النبيّ .

العصر العباسي:

في هذا العصر تواصلت الخلافات المذهبيّة ،والطائفيّة التي طفت على السطح منذ بداية العصر الأموي، وانتشرت تيّارات متناقضة ، وبرز شعراء مناصرون ومؤيدون، وآخرون كانوا على النقيض، ولكن على صعيد المدحة النبويّة بقي الحال على ما كان عليه عند الأمويين، فلم تقصد لذاتها، على الأقل في العصر العبّاسي الأوّل، وإنما ظهرت على شكل أبيات ضمن قصائد تشترك فيها موضوعات مختلفة، ولكن سرعان ما بدأت تستقلّ شيئا فشيئا، ثمّ بدأت تطفو على مسرح الشعر قصائد كان الغرض منها المديح النبوي لذاته فقط .

---

[1] - ينظر **أمالي المرتضى** ، 80/2.

أبو العتاهية [1]:

بالنظر إلى ديوانه فإننا نلحظ طغيان الزهد بشكل لافت، وبغضّ النظر عن الطعونات الكثيرة التي وجّهت إلى زهده، فلا ريب أن نذكر أن الشاعر قد أجاد وبرع فيه، وتدفقت التقوى والحكمة على لسانه، بأسلوب ملؤه الرّصانة والجزالة ، ولكنه في الوقت نفسه لا يبتعد عن معجم الكلام الدارج بين أوساط الشعب ، ويظلله بمسحة من التضرّع، لهذا كانت تتلقفه الأسماع كما الظمآن الذي يحتاج إلى الماء البارد، ليطفئ ظمأه .

وقد أورد الصولي قطعا لأبي العتاهية يمدح فيها الرسول ،حيث أكرم الناس ببعثه، ويذكر الناس بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه الرسول ، ويلتفت إلى الشعراء يدعوهم إلى توجيه مدحهم إلى الرسول بدلا من مدح الناس والبشر، يقول: (الرمل)

يا بني آدم صـــــونوا دينكـــم	ينبغـــي للديـــــن ألا يطّرح
واحمـــــدوا الله الذي أكرمكم	بنبـــــيّ قـــــام فيكم فنصح
بنبـــيّ فتــــــح الله بـــه	كـــلّ خيـــــر نلتمـــــوه وشرح
مرسل لو يـــــوزن الناس بـه	في التـــــقى والبــــرّ شالوا ورجح
فرســـــول الله أولى بالعلا	ورســـــول الله أولــــى بالمدح [2]

بأسلوب التقريع والنقد اللاذع الذي عرف به أبو العتاهية ، وجّه سهام نقده لفريقين، طالبا منهما نصرة محمد صلّى الله عليه وسلّم مع ضرورة اتباعه، والسير على نهجه ، وتوجيه مدحهم له دون سواه؛ لأنه القمين بذلك المدح .

[1] ـ هو إسماعيل بن القاسم ، من أعلام الشعر في العصر العبّاسي الأوّل،اتصل بالهادي والرشيد، نظم كثيرا من الأشعار في التصوّف وأبدع فيه ،كان أحد الشعراء المطبوعين،وهو ممن يكاد أن يكون كلامه كلّه شعرا، توفي سنة مائتين وثلاث عسرة.ينظر ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**،791/2-795.وبروكلمان ،**تاريخ الأدب العربي**،34/2-36. وشوقي ضيف، **العصر العباسي الأوّل**،237ـــ253.وأنيس المقدسي،**أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**،149-181.

[2] ـ الموصلي،**أبو العتاهية أشعاره وأخباره**، 100. ولم أعثر عليها في ديوانه .

وفي قطعة أخرى نجد أبا العتاهية يقف بين يدي الرسول راثيا،ومستحضرا شخصيّته الكريمة، وكأنّ الرسول ارتقى إلى العلا في عهده، ويظهر الشاعر قدرا من العاطفة القويّة وهي عاطفة الحزن الشديد لفقد الرسول، ويظهر لنا أنّ أبا العتاهية من الشعراء القلائل الذين رثوا رسول الله بعد مرور قرنين على وفاته ،وهذا يدل على مدى تأثّره بشخص النبي، ويحمل ردّا على أولئك الذين وصفوا أبا العتاهية بالزندقة، يقول: (الطويل)

سلام على قبــــــــر النبيّ محمد نبيّ الهـــــــــدى والمصطفى المؤيّد
نبيّ هدنــــــــا الله بعد ضلالة به لم نكن لــــــــــولا هداه لنهتدي
فكــــــان رســـول الله مفتاح رحمة من الله أهـــــــــداها لكلّ موحد
وكــــــــان رسول الله أفضل من مشى علــــــــى الأرض إلا أنّه لم يخلّد
شهدت علـــــــــى أن لا نبوّة بعده وأن ليـــــــس حيّ بعــده بمخلّد([1])

ويذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد زيارته للحرمين ، ويركّز على الصفات العظيمة والطاهرة التي تميّز النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ويركّز على المكان لما يحمل من خصوصيّة، فمجرّد الزيارة ، هيجان للعاطفة، وتخليد للذكرى التي تهيّج البكاء والنحيب على قبر النبيّ الكريم، يقول: (الطويل)

ليبك رســــــول الله من كان باكيا ولا تنس قبـــــــرا بالمدينة ثاويا
جزى الله عنّا كـــــلّ خير محمدا فقد كــــــــــان مهديا دليلا هاديا
ولن تسري الذكــــرى بما هو أهله إذا كنــت للـــــــبرّ المطهر ناسيا
أتنسى رسول الله أفضــــل من مشى وآثاره بالـــــــــمسجدين كما هيا
تكدّر من بعـــــد النبيّ محمد عليه ســــــلام الله ما كان صافيا([2])

ونلحظ أنّ الشاعر في رثائه يركّز على عبارة (أفضل من مشى)وما هذا إلا تبيان لتعلقه بشخص النبي،ويختم مقطوعته بالسلام على النبيّ ، وعلى هذا النسق أخذ الشعراء يختمون مدائحهم فيما بعد .

[1]- المصدر السّابق، 116.
[2] - نفســــــه ، 433.

الحسن النيسابوري ([1]):

يقف أمام عظمة الخالق ـ عزّ وجلّ ـ ذاكرا ومسبّحا ، وينتقل إلى تعداد خصال النبيّ ومعجزاته الباهرة ، حيث أشرقت الأرض وعمّ النور ، يقول : [المنسرح]

سبحان من ليس في السمـــــــــاء ولا في الأرض نـــــــــدّ له وأشبـــــاه
أحـــــاط بـــالعالــمين مقتدرا أشهـــد أن لا إلــــــــه إلا هو
وخاتم المـرسلين سيّدنا أحمد ربّ السّـــــــــماء سمّـــــــاه
أشرقـــــــــت الأرض بعد بعثته وحصـــحص الحـــــقّ من محيّاه ([2])

مـن خـلال الأبيـات السّابقة يظهـر مـدى تـأثر الشـاعر بنـور العقيـدة الإسـلاميّة، فالإيمـان بالله،فهو الخالق المتفرّد جلّ في علاه ، والإيمان بالهدي النبوي، فنوره جعل الحـقّ يـبين، من بعد بعثه رسولا من ربّ العالمين .

مهيار الدّيلمي([3]):

عنـدما أسـلم مهيـار ، ونـوّر الله قلبـه بالإسـلام ، وقـف يفـاخر أهـل ملّتـه الـتي كـان عليهـا، ويدعوهم إلى أن يحذوا حذوه ، و يعتنقوا الإسلام ، ويمدح الرّسول في ثنايا أبياته، يقـول: (المتقارب)
وبلّغ أخـــــا صحبتي عن أخيك عشيرتـــه نائيـــــــــــــــا أو قريبـــا
تبدّلــت مــــن نــــاركم ربّها وخبــــت مواقـــــدها الخـــلد طيبا

[1] ـ هو أبو علي ، أديب نبيل ، وشاعر مصنّف ،من خوارزم ،شيخ أبي القاسم الزمخشري ،أديب فقيه فاضل وله نظم ونثر، توفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة هجرية . ينظر ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء**، 408/3ـ412. والصفدي،**الوافي بالوفيات**،271/12. والسيوطي، **بغية الوعاة** ،526/1.
[2] ـ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ،409/3.
[3] ـ هو أبو الحسن مهيار بن مروزيه الديلمي الفارسي الأصل، انتظم في سلك الشيعة بعد إسلامه ،عمل كاتبا في ديوان الخلافة،أغلب شعره تعداد لمناقب آل البيت، توفي سنة أربعمائة وثمان وعشرين . ينظر ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،242/3. وانظر ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 359/5. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة** ،26/5. شوقي ضيف، **عصر الدّول والإمارات**،375-378. وشوقي ضيف ، **الفن ومذاهبه في الشعر**،355- 375.

نصحتكم لو وجـــــدت المصيخ ونـاديتـــــــــكم لـــــو دعوت المجيبا
أفيئــوا فقد وعـــــد الله في ضلالــــــــة مثلـــكم أن يتــوبا
أمثـــــــــل محمد المصطفى إذا الحــــــكم وليتمــــــوه لبيبا
بعــدل مكـــــان يكون القسيم وفصــــــل مكــــــان يكون خطيبا
وثـبت إذا الأصــــــل خان الفروع وفضــــــــل إذا النـــقص عاب الحسيبا
وصـــدق بإقــــــرار أعدائه إذا نافـــــــــق الأولياء الكذوبا
أبــــان لنـــــا الله نهج السبيل ببعــــثه وأرانـــــــا الغيوبا([1])

فالله يقبل توبة العبد إن هو تاب وأحسن التوبة، فهو يدعوهم إلى أن يفيئوا إليه؛ لأنه كهف التائبين، فإذا ما ولجوا في دين محمد فسيجدون العدل وفصل الخطاب ، والمعروف بأنّ الرسول كلما أطلق وعدا أو عهدا ، فإنه يفي ، وصدق الله رسوله عهده ، عندما جاء بالغيبيّات التي لا يستطيع أحد أن يأتي بها .

أبو العلاء المعرّي:

لقد اتهم أبو العلاء المعرّي بأنه تعرّض للأنبياء عموما ، وللرسول ودعوته على وجه الخصوص، فهاجمه بعض معاصريه ،واتهم بالإلحاد، ولكن عندما نستعرض أشعاره التي وقف فيها مادحا الرسول، نجد أنّ أبا العلاء مؤمنا إيمانا تاما بالإسلام كدعوة أتى بها الرسول، وبالتالي يجعل الإيمان أساسا لحياته ، ونحن لسنا في معرض الردّ على ما وجّه إلى أبي العلاء من اتهامات ، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجو الفكري المضطرب الذي نشأ فيه الشاعر كان له كبير أثر في نفسيّته .

ومدحه للرسول ورد في اللزوميّات ، بمعنى آخر جاء في موطن الرّصانة والقوّة الذي عرف به أبو العلاء ، ولكنّ الشاعر ابتعد عن الغموض والتعقيد الذين عهدناه عنه، وكأنّ الشاعر طوع عاطفته فأجاد في تبيان أثر هداية الرسول للبشرية ، مع أنّ هذا المعنى قد طرق من قبل ، ولكن يبقى الوقع خاصّا من شاعر يمدح الرسول كأبي العلاء ، يقول :

---
[1] ـ مهيار الديلمي، **الديوان** ،13/1.

(الطويل)

دعاكم على إلى خيـــــر الأمور محمد وليس العـــــــوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم مــــن خلق الضحى وشهب الدّجــــــى من طالعات وآفل
وألزمكم ما ليــــــس يعجز حمله أخا الضعــــــف من فرض له ونوافل
وحثّ على تطهيــــــر جسم وملبس وعاقــــــب في قذف النساء الغوافل
وحرّم خمــــرا خلــت ألبــاب شربها من الطيــــــش ألباب النعام الجوافل
فصلّى عليــــــــه الله ما ذرّ شارق وما فتّ مســــكا ذكره في المحافل ([1])

وقد اتخذ شوقي ضيف من هذه المقطوعة ردّا على من رمى أبا العلاء بالإلحاد، فلو كان ملحدا لما مدح النبيّ . ([2])

الأبيوردي ([3]):

ذكرنا سابقا في معرض الحديث عن قصيدة كعب بن زهير أنّ قصيدة كعب بن زهير قد لاقت استحسانا من قبل الشعراء، لذا تسابقوا إلى معارضتها، وبذلك نالوا شرف مديح الرسول، ولكنّ الفارق بين القصيدة (البردة) وتلك المعارضات أنها قيلت في حضرة النبي، والنبي غير مجود بين ظهراني الشعراء المعارضين، وكأنهم وجدوا في تلك المعارضة متنفسا لمدح الرسول من جهة ، والسير على منوال بردة كعب من جهة أخرى .

غير أنّ بعض الباحثين من عزا عزوف الشعراء عن المديح النبوي ـ في القرنين الثالث والرابع على وجه الخصوص ـ إلى تهيّب الشعراء من المديح ، أو بالأحرى كيف يفتتحون

---

[1] ـ أبو العلاء المعرّي، **اللزوميّات** ، 192.

[2] ـ ينظر **فصول في الشعر ونقده** ، 134-135.

[3] ـ هو أبو المظفّر محمد بن أبي العباس، لقب بفخر الرؤساء، وبجمال العرب، ونسبته إلى أبيورد وهي بلدة بخرسان، كان إماما في العلوم، عارفا باللغة والنحو والنسب والأخبار، وكان راوية نسّابة وشاعرا ظريفا ، صنّف عددا من الكتب،وله ديوان شعر محقق في مجلدين، من تحقيق عمر الأسعد، توفي سنة خمسمائة وسبع هجرية . ينظر ابن خلكان، **وفيات الأعيان**،4/444ـ449.وابن تغري بردي،**النجوم الزاهرة**،5/206ـ207.و القفطي،**إنباه الرواة على أنباه النحاة**،3/ 49 ـ 52.ابن العماد، **شذرات الذهب**، 4/18-20. والسيوطي، **بغية الوعاة** ، 1/40ـ41. والسيوطي، **تاريخ الخلفاء**، 369-370.

مدائحهم النبويّة ؟ وما المعاني التي تليق في مديحه؟فخوفا من الوقوع في الخطأ وإبعادا عن الحرج لجؤوا إلى معارضة البردة، وغيرها من القصائد التي قيلت في حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم .([1])

والأبيوردي في معارضته لقصيدة البردة سار على غرار ما صنعه كعب ، فقد بدأ القصيدة بحديثه عن الرحلة وتغزّل بمحبوبته سليمى واستغرق هذا عشرة أبيات، قدّم فيها الشاعر لقصيدته بشكل رائع، يقول : (البسيط)

خاض الدّجى ورواق الليل مسدول   برق كما اهتزّ ماضي الحدّ مصقول
واعتاده من سليمى وهي نائية   ذكر يؤرّقه والقلب متبول
ريّا المعاصم ظمأى الخصر لا قصر   يزوي عليها ولا يزري بها طول
فالوجه أبلج واللبّات واضحة   وفرعها وارد والمتن مجدول
كأنّما ريقها والفجر مبتسم   فيما أظنّ بصفو الرّاح معلول ([2])

والشاعر يترسم طريق كعب في غزله، فقد أطلق الصفات الحسيّة وترك المعنويّة ، فبينما كعب يجمع بين الاثنتين ، وربما يعود السبب إلى أنّ الأبيوردي لم يسهب أو يطنب في أبيات الغزل، بعكس كعب الذي أسهب مما منحه حرية تعداد الصّفات، وينتقل الشاعر بسلاسة إلى الغرض الأساسي وهو مدح الرسول، يقول :

صدّت ووقّرني شيبي فما أربي   صهباء صرف ولا غيداء عطبول
وحال دون نسيبي بالدّمى مدح   تحبيرها برضى الرحمن موصول
أزيرها قرشيّا في أسرّته   نور ومن راحتيه الخير مأمول
تحكي شمائله في طيبها زهرا   يفوح والرّوض مرهوم ومشمول
هو الذي نعش الله العباد به   ضخم الدسيعة متبوع و مسؤول
أتى بملّة إبراهيم والده   قرم على كرم الأخلاق مجبول

---
[1] ـ ينظر محمود سالم، **المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي**، 99.
[2] ـ الأبيوردي ، **الديوان**، 97/1، 99.

يا خاتم الرسل إن لـــــــم تخش بادرتي علـــــــى أعاديـــك غالتني إذن غول[1]

ويعاهد الشاعر الرسول أن يلتزم هديه وسنّته ، وأن ينافح عنه بكلّ ما أوتي من قوّة، بلسانه وبسيفه، وأن يترسّم طريقه، وكأني بالشاعر يعلن إسلامه في هذه الأبيات، ويظهر كمّا هائلا من العواطف الجيّاشة التي يبدي من خلالها إعجابه بالرسول، بذكر صفاته التي يفوق بها البشر جميعا يقول :

والنصـــــــــــر باليد منّي واللسان معا ومن لـــوى عنك جيدا فهو مخذول
وساعدي وهو لا يلـــــــــوي به خور على القنـــا في اتّباع الحقّ مفتول
فمر وقل أتّبـــــــــع ما أنت تنهجه فالأمـــر ممتثل والقول مقبول[2]

ومن الإضافات الجديدة في مدحة الشاعر أنّه قام بمدح صحب الرسول، حيث ذكر أبا بكر وعمر عثمان وعليّ ، ويبيّن مدى ما يكنّه من حبّ لهم، ويذكر التضحيات الجسام التي قدّموها تثبيتا لدعائم الدولة الإسلاميّة، فبحبهم تنال النجاة ، و من عارض فالسيف مسلول في وجهه، يقول :

وكلّ صحبك أهـــــوى فالهدى معهم وغرب من أبغـــــض الأخيار مفلول
وأقتدي بضجيعيـــــك اقتداء أبي كلاهـــــما دم من عاداه مطلول
ومن كعثمـــــان جودا والسّماح له عبء على كـــــاهل العلياء محمول
وأين مثـــل علـــــيّ في بسالته بمأزق من يـــــرده فهو مقتول
إني لأعذل من لم يصـــــفهم مقة والناس صنفـــــان معذور ومعذول
فمن أحبّهم نال النجـــــاة بهم ومن أبى حبّـــهم فالسّيف مسلول [3]

وبمجيء هذه القصيدة التي تعدّ بداية الظهور الفعلي لفنّ المديح النبوي بما تحمل هذه الكلمة من معنى ، فبها يمكن القول إن المدحة النبويّة قد أخذت تتهادى لترسم

[1] ـ المصدر السّابق ،1/ 100-101.
[2] ـ نفســــه، 102/1.
[3] ـ نفســـــه ، 1/ 102- 103.

طريقها ، ويتفنن الشعراء في رسم ملامحها ، بل الإضافة إليها ليزيد جمالها وتكتمل صورتها عند الشعراء اللاحقين في القرن السادس والسابع وما تبعها من قرون .

ومهما يكن من أمر فإنّ العصر العباسي على ما عهد عنه من طول ، وما عرف عنه من غزارة شعر، وكثرة شعراء نظموا في مختلف الفنون، وعدّوا من أساطين الشعر إلا أننا نراهم قد تجنّبوا مدح الرسول ، فعلى سبيل المثال يكاد يخلو شعر المتنبي وشعر أبي تمّام وغيرهما من الشعراء العظام من مديح للنبي، وإن ورد المديح النبويّ فيرد في بيتين دون تخصيص منهم للمدح أو يقصد لذاته .

والمدح التي وردت عند الشعراء الذين خصّوا بالذكر لم يأت أصحابها فيها بالجديد، فهي لا تتعدّى ذكرا لصفات النبيّ، وتعدادا لمناقبه، وأوردها أصحابها على شكل مقطوعات، يبثون فيها شرف الانتساب إلى الرسول؛ لأنّها مكانة ساميّة يتطلّعون من ورائها تحقيق غايات في أنفسهم ، تأييدا لفريق على حساب آخر أو كسبا لودّ خليفة أو أمير ، أو انتصارا لمذهب على حساب آخر ، وفي هذا العصر كان المناخ ملائما لظهور تيارات جديدة، لم تعهد من قبل، وكانت ترفد فنّ المديح النبوي بروافد كان لها كبير الأثر على المجتمع الإسلامي، ومن هذه التيارات تيار الصوفيّة، إذ عدّت المداح النبويّة بابا من أبواب الصوفيّة ، تغنى فيها الشعراء ،وأجادوا إجادة بارعة ([1]).

وينسب إلى الصوفيين أنهم أكثر من تحدّث عن الحقيقة المحمديّة، التي أفاض الشعراء في ذكرهم لها ، وكان عنوانها الغيبيّات ، وتألقوا في رفع مرتبة النبيّ فوق الخلق بأسرهم ، ومن له قدم السّبق من المتصوّفة في هذا المجال الحلاّج([2]) ، فهو يقول:" يا عجبا ما أظهره وأبصره وأطهره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأصبره ،لم يزل كان مشهورا

[1] ـ ينظر محمد عبد المنعم خفاجي، **الأدب في التراث الصّوفي** ،243.

[2] ـ هو أبو المغيث الحسين بن منصور البيضاوي ، فارسي الأصل، حاول أن يدعو إلى مذهب سياسيّ وروحي يقوم به فقه معيّن ورياضيّات صوفيّة تتميّز بالتطرّف والشدّة للوصول إلى الهدف ، سجن بعد أن افتضح أمره ثمّ أعدم سنة ثلاثمائة وتسع . أبو طريف الشيبي، **مقدّمة ديوان الحلاج** ،16-20. وينظر ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 253/2.

قبل الحوادث والكوائن والأكوان، ولم يزل كان مذكورا قبل القبل ، وبعد البعد، والجـوهر والألوان ..."([1]).

وظلّ طابع السهولة يلازم القصائد التي ظهرت في هذا العصر ، بل هي سمـة مـن سماتـه ، إذ ابتعد الشعراء فيه عـن الغمـوض والإبهـام ، وجـادت قـرائح الشعراء في مـدائحهم بـبعض مفردات المديح النبوي ،تاركين لمن جاء بعدهم للتأنق وتتميم ما نثروه ليصل فن المديح إلى أرفع درجاته ، وأبلغ سماته .

[1] ـ **كتاب الطواسين** ،120.

الفصل الثاني :

عناصر المدحة النبوّية في شعر العصرين الزنكي والأيّوبيّ :

1. مقدّمة القصيدة.

2. عرض القصيدة .

3. خاتمة القصيدة .

إنّ الناظر للقصيدة العربيّة منذ منشئها إلى العصرين الزنكي والأيوبي ، يجد أنّ الشعراء في هذين العصرين قد خطوا خطو أسلافهم من جاهليين وأمويين وعباسيين،وبذلك نجد أنّ التقاليد التي رسمها وحدّد ملامحها الشاعر الجاهليّ هي تلك التقاليد التي سار عليها من أتى خلفه من الشعراء، بصرف النظر عن الغرض الشعري الذي طرقه الشاعر،لهذا نجد شوقي ضيف يقول: " وكأنما العصر الجاهلي نفسه هو الذي أعدّ[للقصيدة التقليدية] عند العرب قصيدة المدح والهجاء، فإنّ الشعراء كانوا يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث"([1]).

تحدّث النقاد العرب عن القصيدة العربيّة أحاديث كثيرة، وقد حدّدوا ملامحها الأساسيّة، وأشاروا إلى أنها تقسم إلى ثلاثة أجزاء أساسيّة و هي: المطلع والتخلص والخاتمة، وأتوا بمعايير خاصة للمفاضلة،وعلى الشاعر أن يجدّ ويجتهد منها: براعة الاستهلال والتخلص،والانتقال، وتليهما الخاتمة مع مراعاة استعطاف الجمهور، واستمالتهم.([2])

والقصيدة في العصرين الزنكي والأيوبي لم تتأثر بفعل التغير الزماني والمكاني، وإنما ظلت محافظة على شكلها ونسيجها المعهود، وإن كان الجمود ليس من صفة الأدب،لذلك نلمس أنّ المجاراة تبعا للعصر أصبحت من السمات التي تميز القصائد على مدى العصور ، فقصيدة المديح بشكل عام وقصيدة المديح النبوي بشكل خاص،استجابت لإطار العصرين ،فمظاهر التطور والتغيير موجودة، كلّ ذلك يعتمدبشكل أساس على قدرات الشاعر ومقدار ما يوظفه من خبرات في قصيدته، مع مراعاة البيئة الزمانية والمكانية،ويمتاز الشعر العربي بالتطور والتجديد في أبهى صوره وعصوره.

وقصيدة المديح النبوي ليست بمعزل عن الشعر العربي ، لهذا نلاحظ أنّ التجديد سمة من سماتها ، وإن كان كعب بن زهير حدّد بعضا من ملامحها، لكنها تطورت ووسمت بسمات العصر الذي وجدت فيه، وطبعها أصحابها بطابع يظهر كلّ مقدرته، وإبداعه.

---

[1] ـ **الفن ومذاهبه في الشعر العربيّ** ، 18.

[2] ـ ينظر علي عبد العزيز الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، 47.

ومن خلال ما سبق يمكن لنا إجلاء بعض ملامح التجديد في قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي من خلال تناول المفردات الأساسيّة لبناء هذه القصيدة، ويمكن تناولها من خلال ما يلي:

1. المقدّمة . 2. عرض القصيدة. 3. الخاتمة .

أولا ـ المقدّمة :

عني النقاد العرب بمقدّمة القصيدة باعتبارها جزءا أساسيا كبقيّة الأجزاء في عناصر البناء،ولا شكّ في أنّ هذا الجزء شغل كثيرا من النقاد، ودارت حوله نقاشات ودراسات،نظرا لارتباطه بالوضع النفسي للشاعر، وهو أوّل ما يقرع السّمع، ويُحكم على جمال القصيدة من خلاله، لذلك لا بدّ من الإحاطة بأهميّة المقدّمة من خلال معرفة بعض آراء النقاد .

فالنقاد يضعون شروطا خاصّة للمقدّمة، مثلما صنع ابن قتيبة حيث جعل مقياس الأساليب الحسنة والمتبعة عند الشعراء في مسالكهم، هو ذكر الديار والدمن والآثار، لما له من أثر على الظاعنين وذكرهم،ثمّ الوصول إلى النسيب،وما فيه من جلب للأسماع ، وتأثير على النفوس والقلوب،ولأنّ طبيعة النفس الإنسانية تعشق ألفة النساء وما فيه من حيث بث الوجد،و فرط الشوق،وألم الفراق،وينتقل بعدها إلى مكابدة التعب والنصب والسهر والسُّرى ، ومن ثمّ يذهب إلى المديح .([1])

وقد دعا ابن رشيق الشاعر إلى " أن يجوّد ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أوّل وهلة" ([2]).

[1] ـ الشعر والشعراء،1/74-75.
[2] ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،1/195.

غير أنّ ضياء الدين ابن الأثير ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد أطلق العنان للشاعر فطلب إليه " إذا نظم قصيدا أن ينظر، فإن كان مديحا صرفا ،لا يختصّ بحادثة من الحوادث فهو مخيّر بين أن يفتتحها أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أوّلها " ([1]).

وقد أكد حازم القرطاجني على ضرورة تحسين الاستهلالات والمطالع والمقدّمات، حيث جعلها بمثابة الغرّة والوجه لما لها من أهميّة .([2])

وإذا ما أردنا استقصاء آراء النقاد في المقدّمة، فهي كثيرة والمجال يضيق عن ذكرها جميعا هنا،ولكن حاولنا تسليط الضوء على أهم تلك النقاط عند أشهر النقاد،وبالنظر إلى مقدّمة المديح النبوي في العصر الزنكي والأيوبي ، فإنها قد التزمت تلك المعايير التي ذكرت ، على أنه يجدر بنا الإشارة إلى أنها قد انتظمت تحت محاور متعدّدة وهي: الرئيسيّة وتتمثل في مقدّمات التغني بالديار الحجازية، أو التشوّق إليها ، أملا في الوصول إلى أهلها، وهي شائعة عند أغلب الشعراء في هذا العصر،و المقدّمات الطلليّة المعروفة والمطروقة في المديح النبوي وفي غيره ، والأخرى المستحدثة وتتمثل في مقدّمات حبّ الحبيب محمد، والمقدّمات التي تتمثل في حبّ الذات الإلهيّة، وتمجيدها والمقدّمة التي تدعو إلى النهوض من السبات.

أ ـ التغني بالديار الحجازية :

ويلوح في هذا الأفق قداسة المكان عند شعراء المديح النبوي، وذلك من خلال الاعتزاز بمدينة الرسول محمد على وجه الخصوص، وما يحمل هذا المكان من دلالات تاريخيّة، وأصالة عقائديّة، فهي الموطن الأوّل الذي ترعرعت فيه العقيدة الغرّاء،على يدي المعلم الأوّل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلّ ذلك بمباركة من ربّ السّماء، وبدعم الصّحابة النجباء ـ رضوان الله عليهم ـ فذكر المكان يدّل على قداسة خاصّة، ورباط مقدّس، يهيج العواطف والمشاعر، ويستنهض الهمم لزيارة المدينة، وبذكر المكان

[1] ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،96.
[2] ـ ينظر منهاج البلغاء،309.

هيجان للذكريات، ولا ننسى أن ارتباط المدينة (المكان) بشخص النبيّ يدلّ على علاقة قويّة، وروابط أصيلة، كان للنبيّ دور الرائد والمعلم فيها.

يعدّ الصرصريّ من أبرز الشعراء الذين استكثروا من التغني بالديار الحجازية في فواتح مدائحهم النبويّة،ربما يعود ذلك إلى طبيعة العصر الذي عاشه الشاعر نظرا لأنه عايش الحروب الصليبية ، ورأى بأمّ بصيرته ما تعرضت له بلاد المسلمين على يد النصارى من اغتصاب ، فقد انتهكت الأعراض، ودنست البلاد ، فمحاولة منه لاستنهاض الهمم عند المسلمين ركز على ذكر البقاع الحجازية لما لها من خصوصيّة وقدسيّة عند المسلمين،يقول : [البسيط]

مستـــك يا دارة الأحباب أفراح	وصبّحتك من الإقبـال أرواح
وجـاد تربـك من صوب النعيم حيا	هامي الشـآبيب في الأطلال سحّاح
وفضّ فـوق ربـاك الـروح نشر صبا	مهينـم مندلـيّ العطر فيّاح
و لا جفـا عذبات البان منك ضحا	مغـرّد غـردُ الألحان صداح
وماس رنـدك واهتـزت خمائله	كأنـه ثمـل دارت له الراح
ولا تـزال مـع الأسحـار دائرة	من المعـاني على أهليك أقداح
أخفـي هواك ودمع العين يظهره	والدمـع للعـاشق المستور فضّاح
ألتـاع إن لم أجد من عنك يخبرني	وإن بـدا من حماك الركب أرتاح([1])

فالشاعر يظهر تعلقا بتلك الديار، فهو يدعو لها بدوام الخضرة،ومهما حاول أن يخفي هذا الحبّ الكامن في نفسه ، فإنّ دموعه كفيلة بفضحه، ويظهر الشاعر القلق الذي خالج صدره، ويبدّد هذا القلق الركب القادم إليه من تلك الديار.

وفي موضع آخر يديم الشوق لتلك المنازل، لأنها نعم المرتع للعيون النواظر، فيذكر سلع والعقيق ، والثرى الطيّب الذي حوى الحبيب، فرائحة المسك فوّاحة من ذلك الثرى، يقول الصرصريّ : [الكامل]

---

[1] ـ الصرصريّ، الديوان، 96.

بين العقيـــــــق وبيـــن سلـع مربع   للقلـــــــــب فيه وللنواظر مرتع
عطر الثـــــــرى أرج كـأنّ لطيمة   مـن مســـــــك داريّ به يتضوّع
بـــــدر السّعـادة كامـل بسمائه   وببرجـــــــه شمس الحقائق تطلع
حلو الجنـــــا عــذب الموارد عنده   مـــن كـــــــلّ شرب معنويّ منبع
يـــا منـــــزلا فيـه لأرباب الهوى   مرأى يـــــــروق من الجمال ومسمع
ما بـــــــال وردك ماؤه يشفي الصّدى   وأنا المحـــــــبّ وغلـتي لا تنقع
لي فيــــك عهد هوى قديم ليس للـ   ـعـــــذال في الإقلاع عنه مطمع
لولا أدكــــــارك لـم يهزّ معاطفي   برق على شعــــب الأبـــارق يلمع
ولما أرقـــــت وهاج شجوي في الدّجى   ورقـــــاء في فنن الأراكة تسجع
وكذاك لـــــــولا سرّ قصدك لم أكن   ألتــــاع إن ذكر الـــغوير ولعلع
ويعـــــــرض الحادي بجرعاء الحمى   والجـــــزع من وادي الأراك فأجزع
كلفي ببانــــــات العقيق وإنمـا   وجـــــه اشتياقي بالحجاز مبرقع
عجبا لجســــــم بالعراق مخلّف   وفؤاده مغـــــرى بـطيبة مولع([1])

ففي الأبيات السابقة ذكر الشاعر معظم المواطن والبقاع الحجازية التي دأب الشعراء على التغني بها، وهذا ليس بالغريب على شاعر مثل الصرصريّ الذي أفاض في ذكرها وتعدادها في قصائده، فقد ذكر (العقيق، وسلع ، وشعب الأبارق، والغوير، ولعلع، وجرعاء الحمى، ووادي الأراك،و طيبة) .

ويتأجّج الشوق عند ابن جبير للديار الحجازية تحنانا، ووصولا لزمزم والمقام، ومن خلال طيبة حيث الوصول إلى أهلها،فهو لا يرضى بديلا عن إلقاء السلام على ساكنيها،فالحياة ليست طيّبة إذا لم يزر طيبة، يقول: [الوافر]

أقــــــــول وقد دعا للخير داع   حننت لــــــــه حنين المستهام
حـرام أن يلـــــــــذ لي اغتماض   ولم أرحــــــل إلى البيت الحرام
و لا طافـــــــــت بي الآمال إن لم   أطف مـــــا بيـــن زمزم والمقام

---
[1] ـ المصدر السّابق، 277-278.

و لا طابـــــــــــــت حياة لي إذا لم أزر في طيبـــــــــــــة خير الأنام
وأهديــــــــــــــه السلام وأقتضيه رضى يدنـــــــــــي إلى دار السلام ([1])

فالشاعر يعبّر عن خلجات صدره ، وما يعتريه عندما يسمع نداء داعي الخير،فهو حتما أوّل الملبين لذاك الشخص، لأنه يبتغي غاية في نفسه ، يأمل تحقيقها.

ومن الشعراء منْ تنقل بين البقاع انطلاقا من وطنه ، حتى وصل أرض الحجاز، فهذا يعقوب الدمشقي لا يترك منزلا إلا ويذكره ، مبديا قدرا كبيرا من الشوق، ومصحوبا بالدمع،وباحثا عن الأجر: [الخفيف]

هجر الأهـــــــــــل والأحبّة لما قصد الخالـــــــــــق الجواد الفردا
وترامى عن جلـــــــــــق وأتى الكسـ ـوة والدمـــــــــع قد كسا الخدّ خدّا
حار لمّا رأى معالـــــــــــم حورا ن و بصـــــــــــــرى لمّـــا تبصّر رشدا
وســــــــــــرى بعدها إلى المنهل الأز رق والشـــــــــوق قـد تزايد جدّا
عظـــــــــــــم الأجر بالعظاميّ لمّا جدّ في قصـــــــــده وأضحى مجدّا
وتمـــــــــــادى منه العمريّ العذ ب فوافـــــــاه يفضل الثلـــج بردا
و أتـــــــــــــى حرّ وهو أحلى من الشهـ ـد وأزكـــــــــى عذوبة و أشـــدّا
ثمّ وافـــــــــــى بسيطـــة وبساط الشـ ـــــوق يحدوه والركـائب تحدى([2])

ونلحظ في حديث الشعراء في غزلياتهم الحجازية أنهم يكثرون عن قضيّة تعفير الخدّ بالتراب ، ويركّز على الالتزام بفرض الحجّ ومناسكه، داعيا الشعراء إلى ضرورة التخلي عن هوى سعدى ولبنى ، بل عليهم التغني بالديار المقدّسة،وأن يسرعوا في ذلك، يقول يعقوب الدّمشقي: [الخفيف]

خــلّ عنها تغوّر غـــــــــــورا ونجدا واهجـــــــرن في المسير لبنى وسعدى
وصل الوخـــــــد بالذميـــــل فما ندرك ســــــــؤلا و لا بسيـــرك وخدا
واحتـــــرز في مناســـــــك الحجّ واجعل فرضهـــــــا وصلة إلـــى الله نقدا

[1] ـ فوزي الخطبا ،**شعر ابن جبير** ، 93.
[2] ـ ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء الزمان** ،10/160-161.

واقصـــــــــد الكعبة الحـــرام وعفر بتـــــــــراب المقــام أنفــا وخدّا
واعتمـــــــــد في فعالك الحقّ واخلص تجد الحـــقّ قد أباحك خلدا([1])

بينما نرى فتيان الشاغوري يمني النفس بزيارة تلك الديار الحجازية،ويطلب إلى الحجّاج أن يحملوا معهم شوقه لتلك الديار، ويبثوا أشواقه لساكن الديار الرسول المختار، فنار الشوق ملتهبة، ويطفئها تقبيل قبر الرسول ، وتمريغ خدّه بالتراب، يقول: [الطويل]

إليـــــــك رسـول الله مني ألوكة حنانيـــــك قد يحنو على العبد سيّد
أؤمّـــل مــن خيـــر الأنام شفاعــة بهـــا فـــي نعيم بالجنان أخلد
فأنـــــــت رسول الله وهي شهادة أقـــــرّ بهـــــا حتى المعاد وأشهد
وددت بأنـــــــــي زرت قبرك راجــلا وقبّلـــت تربـــا أنت فيه موسّد
ومرّغت خـــــــدّي عند قبــرك ضارعــا بأرض حصـــاهـــــا لؤلؤ وزبرجد
وإني لـــــذو شـــــوق إليك مضاعــف بـــــواعثه لا تأتلــــي تتجدّد
ألا أيـــــــها الزوّار بالله بلغـــوا سلامي إليـــــه وارفقـــوا وتأيّدوا
وقولـــــــوا لـــه فتيان يشكو صبابـــة إليك ووجـــدا حـــرّه ليس يبرد
يرجّـــي غـــــــــــدا تبريـــد غلته إذا شفعت له في الحشر والحوض مورد ([2])

والشاعر في الأبيات السابقة يظهر قدرا كبيرا من التودّد، ويأمل في طلب الشفاعة، وهذا النمط يسير عليه أغلب الشعراء الذين مدحوا الرسول، وكأنهم يلتمسون شيئا،يركزون عليه.

ويستذكر الحسن بن صافي ـ ملك النحاة ـ مدينة يثرب، ويُحمّل من يتوجه إليها السلام، أملا في أن يبلغ دار السلام، لأنّ الاستجارة لا تتمّ إلا من خلال مَن كفل الشفاعة لأمته أمام الديان ، وعلى مرأى من الأشهاد، يوم التناد ، فالرسول يرقد في المدينة،والمسلمون ييمّمون اتجاهها، مقيمين شعائرهم، ومطبقين سنته ـ عليه السلام ـ

---

[1] ـ **المصدر السابق**، 10/159-160.
[2] ـ فتيان الشاغوري، **الديوان**، 109-110.

وملتزمين فرائض الدين الذي أتى به، لذلك تراهم يقصدون يثرب، حبا وطمعا ورغبة في الإجارة : يقول: [البسيط]

يا قاصـــــــــــدا يثرب الفيحاء مرتجيا أن يستجيـــــر بعليا خاتم الرّسل
خذ من أخيـــــــــك مقالا إن صدعت به مدحت فـي آخر الإعصار والأوّل([1])

وفي قصيدة أخرى نرى أنّ التحنان يساوره مرّة أخرى، فهو يبدي لوعة وشوقا كإنسان مغروم ، قد شفه الوجد، يريد إيصال شوقه وغرامه لمن يعشق، فهو لا يتخذ من الحمام الزاجل ناقلا، أو مبلغا، وإنما يتخذ وسيلة أخرى وهي الأجدى من وجهة نظره، أي مَن جهّز العدّة، والزاد، والراحلة ، وغذ السير طلبا للبقاع الحجازيّة، ووصولا إلى الرسول، يقول: [البسيط]

من حامـــــــل عن أخيه بسط مألكة يهدّهـــا إن أفيـــــــض القال والقيل
يقول والحجـــــــــرات الغرّ تسمعه والوفد كــــــــلّ بمـــا يعنيه مشغول
هل سامع يا رســــول الله أنت لمن ولاؤه لـــــــــك مـرويّ ومنقول
بلغت من غاية الإكـــــــرام منزلة عنها أعيـــــــد الأمين الـــروح جبريل
ولترضك الصّلـــــــــوات الغرّ دائمة يزين أمراطــها([2]) ما شئـــت ترفيل([3])

وقد اشتدّ الشوق والغرام، والتاع المستهام ،حنينا ووجدا بذكر الحبيب، ويشتمّ من تربه الطيب،ممزوجا بدمع سكيب ، فهذا عبد الرحمن الجوزي يبث شوقه لتلك الدّيار بعد أن نادى الدّاعي من كلّ الأقطار، وليكون الرسول الشفيع أمام الجبّار، يقول من قصيدته البائية: [الوافر]

حداة العيـــــــس رفقا بالنجائب فقلبي ســـــــــار في إثر الرّكائب
وجسمـــــــــي ذاب من ألم ووجد ومن شـــــــــوقي إلى لقيا الحبائب
فهل لـــــــي من سبيـــل للتلاقي فدمعي قد غـــــــدا مثل السحائب
لئـــــــن سمح الزمان بطيب وصل وبلــغت المقاصـــــــد والمآرب

[1] - ابن عساكر ، **تهذيب ابن عساكر**،167/4.
[2] - الأمراط: مفردها مِرط ، وهو الكساء من الصوف. الفيروز آبادي،**القاموس المحيط**،926/1.(مرط) .
[3] - كمال الدين بن العديم، **بغية الطلب في أخبار حلب**، 5/ 2392. وينظر شفيق محمد الرّقب، **الشعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السّادس الهجري**، 275.

لألثم وجـــــــــه ذاك الترب جهرا وأرويـــــــــه بأدمعي السواكب
وأحظى بالـعقيـــــــــق وساكنيه ومن قد حـــلّ في تلك الذوائب ([1])

وفي غمرة الشوق للديار الحجازيّة، قام الشعراء بوصف أعباء الشقة التي قطعوها وصولا للديار الحجازيّة، فقد وصفوا القفار والأمل يحدوهم بالوصول للديار، فالتعب نال منهم ، ولكنّ الرغبة قويّة، من ذلك يقول يعقوب الشيباني: [الكامل]

لأكلفنـــــــك قطـع قفر قطعه يذر الفيــــــــــق وما عليه سنام
فـــــي صحائـــف تغلي لشدّة حرّه وتجيش فيــــه بمـــــا حوته الهام
حصباؤه كالجـــــــمر تخطو فوقه فتـكـــــاد أن تتـــلهّب الأقـدام
وإذا المـــــطيّ بنا بلغن محمدا فظهــــــورهنّ على الرّحـــــال حرام
قرّبننا مـــــــن خير مــن وطئ الحصا فلهـــا علينـــــا حرمـــة وذمام
عندي لهــــــا إن صــافحت ثفناتها أكنـــــاف يثـرب مسرح ومسام([2])

ويهرول الرّكب إلى الحجاز فزعا، عندما ظهرت النار في الحجاز سنة 654هـ، حيث يتوجّهون إلى الرسول طالبين لأنفسهم الشفاعة والنجدة ، ففي المقدّمة الحجازيّة يقول علي بن عمر بن قزل : [الطويل]

ألا سلما عنــــــــي على خير مرسل ومـــــن فضـــله كالسيل حطّ من علِ
وأشرف من شُــــــــدّت إليه رحالنا لتورد هـيم الشـــــوق أعذب منهل
تحملن منا كــــــلّ أشعث أغبر فيا عجــــــبا من رحلها المتحمّل
إلى سيّد جــــــاءت بعالي محله ومعجـــــزه أي الكتاب المنزل ([3])

ونلحظ تأثرا واضحا من قبل الشاعر بمعلقة امرئ القيس من جهة البحر العروضي، الطويل،والتضمين لبعض أشطار الأبيات ، ومطلعها: [الطويل]

قفا نبك مـــــن ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللـــوى بين الدخــول فحومل ([4])

---

[1] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**، 90.
[2] ـ ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء الزمان**،88/10.
[3] ـ ابن قزل،**الدّيوان**،336.
[4] ـ امرؤ القيس ، **الديوان**، 7-26.

ويرى الباحث من خلال استعراض المقدّمات الحجازيّة أنّ الشعراء حاولوا بثّ الحزن للرسول، وكأنّ حائلا حال بينه وبينهم و منعهم من زيارته،لذلك لجؤوا إلى التغني بتلك البقاع التي يرقد فيها، أضف إلى ذلك الحرص والحذر من سوء العاقبة من خلال التنقل والترحال بين الأقطار، نظرا لأنّ الأمن كان شبه معدوم في وقت من الأوقات ، فالناس لم يكونوا بمأمن من الوصول إلى الدّيار الحجازية ، لهذا قام صلاح الدين وبعض قادة المسلمين بتأمين طرق الحجّاج خوفا عليهم من سطو الفرنج من جهة واللصوص من جهة ثانية.

ومن التعليلات الأخرى لظهور المقدّمات الحجازيّة في المدائح النبويّة في العصرين الزنكي والأيّوبي محاولة الشعراء استبدال المقدّمات الحجازيّة بالمقدّمات الغزلية، نظرا لقداستها ، ولما لها من مكانة عند المسلمين ([1]).

ب ـ المقدمة الغزلية:

أسلفنا في الفصل السّابق أنّ شاعر الرسول الأوّل حسان بن ثابت كان يفتتح قصائده بالتغزل بمحبوبته التي يعشق، وكذلك الحال بالنسبة لكعب بن زهير عندما افتتح بردته بالتغزّل بمحبوبته سعاد،والمعروف أنّ الغزل فيه إمالة للقلوب ، وهذا النمط كان متفشيا في البيئات المختلفة عند الشعراء، لذلك لم يتهيّب الشعراء من افتتاح مدائحهم بالغزل.

ولكنّ إذا جاز للشاعر التغزل وذكر المحبوبة، فهل يطلق له العنان في غزله كيفما يشاء ؟! ويتصدّى للإجابة عن هذا التساؤل ابن حجّة الحموي قائلا: " إنّ الغزل الذي يُصدّر به المديح النبوي، يتعيّن على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل ويتشبب، مطربا بذكر سلع ورامة، وسفح العقيق والعذيب، و الغوير ولعلع، وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد، والتغزل في ثقل الأرداف ، ورقة الخصر ، وبياض الساق، وحمرة الخدّ، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك" ([2])

[1] ـ ينظر محمود سالم محمد ، **المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي**،317.
[2] ـ **خزانة الأدب**،1/ 36-37.

ويذهب الباحث إلى أنّ أغلب القصائد النبوية التي عارض فيها أصحابها قصيدة كعب ابن زهير قد جاءت موافقة لما نهجه كعب في مدحته خاصة فيما يتعلق منها بالمقدّمة الغزلية، فالزمخشريّ سلك مسلك كعب في التغزل بأسماء، يقول من قصيدته اللامية : [البسيط]

أضـــــاء لي باللوى والقلـب متبـــول نجــــــديّ برق بنـار الحبّ موصول
كأنّ ومضـــــته من نـــــاره قبـس فالخــــــدّ منه بمـاء الشوق مهطول
قمر خوافقه يهــــــوي إلى طـــلل عهدي بــــــه وهو من أسماء مأهول
وكاد نضوي من فــــرط النزاع بـــه يطيــر تلقــاء نجـــد وهو معقول
وقلت للركب في خافــــي الصوى قذف عليه سجـــــف من الظلماء مسدول
أتلكم برقـــــة من عـــــارض ومـضت أم عــــــارض بالبشـام اللدن مصقول
أريهم البــــــــرق في نجد وبارقتي نجــادها خضل بالدمع مبلـول([1])

ويـذهب ابـن السـاعاتي المـذهب نفسـه،فهو يستهل مدحته النبويّة بالغزل،فصاحب الصّبابة ولهـان ومعلول،والـدمع المرسـل نـازف ومطلول،والبعـد جلـب للعاشـق العويـل، وأضحى الحبيب معزولا، يقول: [البسيط]

جدّ الغــــــــرام وزاد القال والقيل وذو الصّبـــــابة معــــــذور ومعذول
ظللت في الـــــــدار أبكيها ويضحكها دمع على تلــــــكم الأطلال مطلول
لا جرّ حيــــــــــن خلت منهم ملاعبها ذيــل النسيم علــيها وهـــــو مبلول
مجالس أوحشــــــــت منهم وأندية على العويـــــل بهــــــا للصبّ تعويل
يـــا والي القلــــــب أهواه ويظلمني وكـلّ والٍ بحـــــكم الدهــر معزول
أشكــــــو فينصركم قلبـــــي ويخذلني وفـــــي المــحبّة منصور ومخذول
للبرق فيــــــــــك إشارات لها طربي وللنسيم حــديث عنك منقول([2])

ويستغرق ابن الساعاتي في غزله وغرامه، وتأخذ المقدّمة الغزلية خمسة عشر بيتا مـن واقـع أربعة وسبعين بيتـا هـي عـدد أبيـات القصيدة،وفيها يضمّن الشـاعر لـواعج صـدره،

---

[1] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره،القسم الثاني**،263.
[2] ـ ابن الساعاتي، **الديوان** ، 47.

ومدى تأثره ببعد حبيبته، ولا ينسى أن يضفي كما من الصفات الحسيّة والمعنويّة للمعشوقة، وانظر إلى جمال التشخيص الذي أتى به الشاعر في البيت الأخير في قوله: (وللنسيم حديث) حيث جعل من النسيم إنسانا، وأضفى عليه الحركة والحيوية .

ويبلغ تأثر الشعراء بقصيدة كعب بن زهير مبلغا عظيما، فتراهم يشطرونها، فمن هؤلاء الذين نحوا هذا النحو الشاعر شرف الدين الأنصاري،فمن شدّة شغفه بقصيدة كعب قام بتضمين أغلب أبيات قصيدة كعب في لاميته،يقول: [البسيط]

أوهمت نصحـــــا لو انّ النصح مقبول لا ألهينـــــك إني عنك مشغول
بان التجلد عنــــي و التصبّر مـذ بانـــت سعاد فقلبي اليوم متبول
تيّاهـة آثـــرت صدّا لـمغرمها متيّـــم إثرها لـم يفد مكبول
ثرّت دمـــوعي إذ افترّت بذي أشر كأنـــه منهـل بالـــرّاح معلول
جديدة الحســـن يبدو في مقسّمها عتـــق متيـــن وفي الخدّين تسهيل
حلمـت عنـــد تمنيها بزورتـــها إنّ الأمـــاني والأحـلام تضليل
خـــوّانة حققت فينـا توعّدها وما مواعيـــدها إلا الأباطيل ([1])

ولا أعتقد بأنّ الشاعر كان صادقا في إطلاقه للصفات الحسيّة أو المعنويّة،وإنما هدف من وراء ذكرها مجاراة كعب بن زهير في حديثه عن محبوبته التي طالما برع في التغزل بها،مع الأخذ بعين الاعتبار قصوره عن المجاراة، ولأنّ المعاني التي طرقها قصّر فيها عن اللحاق بمعاني كعب،وعندما طرق كعب تلك المعاني فإنه أوفاها حقها .

<u>المقدّمات المستحدثة التي ظهرت في هذا العصر وتشمل :</u>

أ ـ التغزل بالرسول محمد :

هذا اللون نشأ في مقدّمة المدحة النبوية في هذا العصر ، ونلحظ تفاوتا في اهتمام الشعراء بهذه المقدّمة ، ويظهر في تلك المقدمات مدى تعلق الشعراء بالرسول محمد،

---

[1] ـ شرف الدين الأنصاري، **الديوان**، 390.

وكأننا أمام عاشق ومعشوق، ويقوم الشاعر كذلك بإضفاء الصفات الحسيّة والمعنوية، ويبرزها من خلال شعره ، فالخفة ، والرشاقة، والطرف الغضيض،وبدر تمّ بازغ، وجاءت الصفات التي أودعها الله في شخص النبيّ ولم يمنحها لأحد سواه.

ويوجّه بعض الباحثين سهامه إلى هذا اللون من المقدّمات الغزلية، فيطالعنا مسعد العطوي بقوله: " واستهلال قصيدة في مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغزل بالمذكر مما يعاب على الأدب والشعر في تلك الحقبة الزمنية، وتدلّ على ذوق مريض"([1]).

وقد علق مخيمر صالح على ظهور هذا اللون من المقدّمات قائلا :" فهي من أغنى المقدّمات حياة،وحيويّة، عمقا وتدفقا." ([2])

بينما عزا غازي شبيب ظهور مثل هذه المقدّمات بأنّ الشعراء قد تأثروا بشعراء العصر الأموي، خاصّة الغزل العذري، ومنهم من يعدّ هذا النوع من الغزل في المقدّمات لونا من ألوان الابتلاء الرّباني، لأنّ الشعراء يتغزلون بمن أحبّوا، لهذا سيجمعهم بهم يوم القيامة([3]) ، ومن ذلك يقول الإمام الرّباني ، الصرصريّ ـ وهو من أكثر شعراء المديح النبوي نظما على هذا النمط ـ من قصيدته الغينية: [الكامل]

نفسي الفــــــــــداء لبدر تمّ بازغ	ســــــــام على غصــــن الجمال النابغ
لا يعتـــــــــري نقص المحاق كماله	كلا وليـــــس قوامــــــه بالزائغ
يهتـــــــزّ في حلـــــل المواهب مائسا	في ظـــــلّ قــــرب للجلالة سابغ
غـــــضّ النضــــارة نشــــــره متعطر	ريّـــــان من نشــــر المزيد الزائغ
أهـــــــــدى له الرحمن أحسن صبغة	فتبـــــــارك الرّحمن أحسن صابغ
بلغـت عنايتـــــــــــه به ما لم يكن	أحـــــد إليه من الأنام ببالغ ([4])

[1] ـ الاتجاهات الفنيّة في الشعر إبان الحروب الصّليبيّة،171.
[2] ـ المدائح النبوية بين الصّرصري والبوصيري،123.
[3] ـ فنّ المديح النبوي في العصر المملوكي،64-65.
[4] ـ الصّرصريّ، الديوان،305.

ورسم الشعراء في مقدّماتهم الغزلية بالنبيّ صورة جميلة له، حيث ذكروا صفات النبيّ التي أعجبوا بها، والصورة التي رسموها لا تختلف في ملامحها عن صورة يرسمها أيّ شاعر لمحبوبته ، وممن صور تلك الملامح الشاعر، شرف الدين الأنصاري، في مقّدمة احدى مدائحه النبوية: [مخلع البسيط]

ويلاي مــــن غمضي الــمشرّد فيـــك ومـــن دمعي المردّد
يا كامـــل الحسن ليس يطفي ناري ســوى ريقك المبرّد
يا بدر تـــمّ إذا تجلى لم يبـــق عذر لمن تجلد
أبديت مــــن حالي المورّى لمّا بـــدا خـــدّك المورّد
رفقا بولهـــان مستهام أقامـــه وجده وأقعـد
مجتهد فـــي رضـاك عنه وأنـــت في أمـره المقلد
ليس لـــه منـــزل بأرض عنـــك ولا في السّماء مصعد([1])

ولم يقتصر الشعراء في تلك المقدّمات الغزليّة، على الصّفات الحسيّة ، وإنما يحاولون إضافة ما هو جديد، وهو بثّ التحيّة والسلام ، مزجاة إلى سيّد الأنام، يقول صفوان بن إدريس: [السريع]

تحيّة الله وطيـــب السّلام على رســـول الله خير الأنام
علـــى الـــذي فتح بـاب الهدى وقال للنـــاس ادخلوها بسلام([2])
بدر الهـــدى سحب الندى والجدا ومـــا عسى أن يتناهى الكلام
تحيّـــة تهزأ أنفاسها بالـــمسك لا أرضـــى بمسك الختام
تخـــصّه مـــني و لا تنثنـــي عـــن آلـه الصّيد السّراة الكرام([3])

وفي مثل هـذه المقدّمات دأب بعض الشعراء على بثّ الشكوى للحبيب محمد، يطلب من خلالها الصّفح والعفو، ويتأتى ذلك لتقصير، أو لخشوع قلب ، أو لكبح جماح الشهوات، وبذلك يطلب الشاعر وصل صفح من الرسول، عساه يبلغ ويكسب العفو ويحقق

[1] ـ شرف الدين الأنصاري، **الديوان**، 147-148.
[2] ـ في الشطر الثاني من البيت الثاني ورد خطأ في استقامة الشطر، ويستقيم بالقول: (ادخلوا بسلام) .
[3] ـ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 4/339-340.

الأمنية التي لطالما حلم ببلوغها وهي تتمثل بالشفاعة يوم القيامة، من ذلك ،يقول الصرصريّ: [الطويل]

إليـــــــك رسول الله أشكو تخلفي وشدّة تقصيـــر بقلـــــــــبي مجحف
وفقد خشــــــوع للفوائد جالب وأعظم من فقديــــــــــه فقد تأسفي
إذا ألمعت للرشـــــد في القلب لمعة تغمدّها سدف الحجـــــــاب فتختفي
إلام وقد أكمـــــلت ستين حجّة ألـــــوث على ذلّ النقيصـــة مطرفي
وحتام أنهى النفس عــــــن شهواتها وتضمـــــــن لي أن لا تعـــود ولا تفي
وأزجرها عن غيّـــــها وجماحـــها فتخدعني منهـــــــا بوعد مسوف (1)

ومن الشعراء من بدأ قصيدته بتعداد صفات النبيّ، وقد تستغرق منه أبياتا طوال، وما هذا إلا دليل قوّة الوشيجة وعمق الرابطة التي انطلق منها وبنى عليها هذه المدحة النبوية، يقول جمال الدين أفضل الإسلام عبد الرحيم بن الأخوّة البغدادي الشيباني: [الكامل]

صلى الإلـــــــه على النبيّ محمد هادي البــــــــريّة والإمام المهتدي
الصّابر البـــــــرّ الرؤوف الـــمرتضى الماجد النــــــدب الكريم السيّد
الصّادق المصـــــــــدوق والبدر الذي عـــــــمّ البـــلاد بنوره المتجدّد
نجّى بـــه الله الأنــــــــام من الرّدى والنّـــــــاس في ليل الظلام الأسود
لا ينقضي بين الـــــــــورى إعجــازه فدليــــــــله في اليوم باق في غد
فمن اهتدى بهــــــــــداه فاز ومن عتا عَنَهُ تـــــردّد في العذاب الموصد(2)

وقد أورد له صاحب الخريدة قصائد ومقطوعات نظمها على هذه الصّورة، وكأني بالشاعر يردّ على فريق،أو يستنهض همّة الأمّة لإحياء تعاليم الرسول، والبقاء على نهجه الذي رسمه، فهو من رسم الطريق ووضّح معالمها ، ودعا إلى سلكها، وضرورة التقيّد بها ، يقول في قصيدة أخرى : [المتقارب]

سلام علـــــــــى أحمـــد المصطفى ســــــــلام على الطـــاهر المرتضى

---

[1] ـ الصّرصريّ، **الديوان**، 326.

[2] ـ العماد الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، **قسم العراق**،199/1.

سـلام علـى صفـوة العالمين سـراج البـريّة شمس الـورى
سـلام علـى خاتـم الأنبيا محمـد الماجـد المجتبى
بـه شيّـد الله ركـن التقى بـه رفع الله شأن الهـدى
وأيّـد ملـته فانطـوى رداء الضـلال بها وانجلى([1])

وظهور هذا النوع من المقدّمات الغزلية في شخص النبيّ، لا يعدّ انتقاصا من شخصه، أو مما عيب على الأدب والشعر ، فهولا يقارن أو يوازن بما ظهر في العصر العباسي، زمن أبي نواس عندما كان يصوغ جلّ شعره متغزلا بالذكران، ولسنا في معرض تتبع تلك الأسباب التي دعت أبا نواس إلى التغزل بالذكران أو الإكثار منه، وما يهمنا أنّ أبا نواس كان متهتكا، وشعره غير محتشم، ولكن شعراء هذين العصرين كانوا محتشمين مع الرسول، وفي هذا ردّ على الباحث مسعد العطوي عندما وجّه طعنا في هذا اللون من الغزل .

ب ـ مقدّمة حبّ الذات الإلهيّة

وهي تلك المقدّمات التي يبدأ الشاعر فيها بالحمد والثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويبدو أنّ تلك المقدّمات ظهرت بوجود الأحداث الجسام التي حلت بالمسلمين في العصرين الزنكي والأيوبي، فالهجمات الصليبيّة والتتريّة ، والانتكاسات الإسلاميّة على صعيد الحياة الاجتماعية ، والثورات السياسيّة، والظواهر الطبيعيّة كالنار التي ظهرت في الحجاز سنة(654هـ) ([2])، اتحاد هذه العوامل جميعا دفعت بعض الشعراء إلى افتتاح مدائحهم النبوية بتمجيد الذات الإلهية، وطلب الرحمة والعفو، وبتعداد صفات الله ونعمه التي أسبغها على الإنسان .

و أورد أبو شامة المقدسي قصيدة لشاعر لم يورد اسمه نظمها في مدح الرسول وتعرّض

---

[1] ـ المصدر السّابق، 200/1.
[2] ـ ينظر أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**،296-295/5.

للنار الحجازية بالذكر([1])،وفيها يتوجّه إلى الله بطلب العفو لأن المآسي والخطوب أحاطت بالمسلمين من كلّ جهة، يقول: [البسيط]

يا كاشف الضرّ صفحا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها حملا ونحن بها حقا أحقاء
زلازلا تخشع الصّمّ الصّلاب لها وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعا ترجّ الأرض فانصدعت عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار يجري فوقه سفن من الهضاب لها في الأرض أرساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة كأنها ديمة تنصبّ هطلاء ([2])

ويتوجه ابن الأخوة من جديد إلى الله مثلما توجّه سابقا إلى الرسول، طالبا منه العفو وجاعلا الرسول شفيعا له ، عساه يفوز بالجنة، ويكثر من التسبيح لله ، ويذكّر الإنسان بعظمة الإله، ويعدّد أنعمه،يقول: [البسيط]

سبحان من جعل الكواكب زينة وبهنّ في ظلم الليالي يهتدى
سبحان من رفع السماوات العلا والأرض مهدها لأصناف الورى
سبحان من شقّ البحار بقدرة سبحان من أرسى الجبال على الثرى
سبحان من خلق العباد فمن رضي عنه استقل ومن تسخطه هوى([3])

ودعا بعض الشعراء إلى ضرورة التخلص من تلك المقدّمات التي يتغزّل فيها أصحابها بعزّة أو سلمى، أو غيرهما من صويحبات الشعراء، أو التغني بالملوك وحكمهم، فقد جرت العادة عند أغلب الشعراء في العصور السالفة إلى افتتاح قصائدهم بذكر المحبوبة ، أو بمدح الملوك، وبذلك نشاهد دعوة صريحة من شعراء المديح النبوي في هذين العصرين ، يحاولون فيها ثني شعراء عصرهم عن افتتاح قصائده بتلك المقدّمات الغزلية، لأنّها تجرّ عليهم المهالك، وبالتالي يبتعدون عن التنسك الذي يقرّب من الله.

---

[1]- وهي تلك النار التي ظهرت في الحجاز في أوّل جمعة من جمادة الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة في شرقي المدينة، وصفت بأنها نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم ، انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتّىحاذى جبل أحد ثمّ وقفتن وعندما ظهرت هرع أهل المدينة إلى نبيّ الله عليه السّلام مستغفرين تائبين إلى ربّهم. أبو شامة المقدسي، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة،الذّيل** 293/5.

[2]- **الذّيل على الرّوضتين** ،296/5.

[3]- العماد الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر،قسم العراق**، 138/1.

ومن الشعراء الذين نحو ا هذا المنحى الصرصري ، الذي سلك في مقدّمات كثيرة هذا المسلك، ويحمل في مضمونها دعوة صريحة إلى التنسك، ذلك المسلك الذي اتبعه الشاعر أبو العتاهية في أغلب قصائده، يقول : [البسيط]

دع ربع عزّة واذكـــــر عزّة الملـــك ودار سلمى اجتــــــنب تسلم من الهلك
خلّ الغـــــواني واشكر للغنـــي وذر حبل اللـــــــوى وبحــبل الله فامتسك
واهجر جنى زخرف الدنيا الزهيد وصـل بالزهــــد فيـــــها جزيـل البرّ والنسك
واشدد يديك بإخـــوان الصّفاء تصب وانبذ وداد خـــــؤون القلــب مؤتفك
وعن خليلك فاصفــــح إن تجد خـلـلا ســـوى مخل لحــــــدّ الشرع منتهك
واقبل نصيحـــــة مستور أخي ثقـــة ولا تطـع أمـــــر واهي العزم منتهك ([1])

فالشاعر قد سلك هذا الدّرب تحقيقا لغاية في نفسه، فهي دعوة صريحة إلى كسب رضا الله ليغفر زلته وخطيئته ويكفر عن ذنبه، وهـي ممهدة للوصول إلى مديح النبيّ وطلب شفاعته يوم يقوم الأشهاد .

ج ـ مقدّمة النهوض من السبات:

وهي تلك التي جاءت دعوة صريحة للجهاد والقتال، والوقوف لصدّ العدوان، والذود عـن الحمـى ، مـن خـلال بـثّ روح العزيمـة والجهـاد، واسـتنهاض الهمـم، في نفـوس المسلمين، وكأنّ الشاعر قد رأى قصورا من أبناء المجتمع في هذا الجانب،فآلمه ما رأى، وأثار سخطه على المجتمع ، فأخذ يعبّر عن شعوره الداخلي ، ويبدي نظرته فيما يدور حوله، وأخذ يستذكر فيها الشاعر بطولة الرسول وصحبه في ميادين الوغى، يقول الصرصريّ ـ رحمه الله ـ: [الطويل]

ذر العجـــــز وانهض خائضا للمعـــارك فما العــــــزّ إلا في السيوف البـــواتك
و لا تثـــــن عن طلابك المجد همّة ولو كـــــــان في هام النجوم الشوابك
وأقـــــــدم فإمّا أن تـرى فوق معقل منيـــع وإمّـــــــا تحت وقع السّنابك

---

[1] ـ الصرصريّ، الديوان، 362.

فلـم نر إحـــــــراز السّلامة للفتـــى المشمر إلا فـــــــي اقتحام المهالك
أرى السّبــــــــل المثلى على غير أهـلها تضيــــــــق وإن كانت رحاب المسالك
فلا تـــــــــرض بالأولى وكـــن متطلبا نفيس المعـــــالي بالعوالي الفواتك
و لا يلهك الإهمـــال عـــن سدّ خلة الثّغـــور بربّـــــات الثغور الضّواحك ([1])

فالصرصريّ يعلم علم اليقين أن الأمّة لا يمكن أن ترفع هامتها إلا بعزّتها ومجدها المأثول ، فعلها أن تذود عنه بالسيف الصقيل،وكأني بالشاعر رأى بثاقب بصره ما تعرضت له الأمّة، فهي نظرة لا يتميّز بها إلا الشعراء ، وشاعرنا هذا ممن استشرفها، ولكن هيهات !! فالصليبّون والتتار عادوا من جديد.

وتدور معاني مقدّمات المديح النبوي التي عثرنا عليها حول الغزل الذي كان مطروقا، وإن دخلت الحداثة في المقدّمة من جهتين : ما يخصّ الرسول والتغزل به من جهة، وكان الشعراء محتشمين متأدبين في هذا المجال إلى حدّ كبير، وما يتعلق بالثناء على الله، وإظهار الخشية ، وتعداد صفاته ونعمه من جهة أخرى، وكلّ ذلك جاء مصحوبا بعاطفة جيّاشة ونزعة إيمانيّة جارفة ، كيف لا؟! وأغلب الشعراء الذين نظموا المدائح النبويّة هم من الفقهاء .

ثانيا: عرض القصيدة :

ذكرنا سابقا أنه لم تحفل شخصيّة من الشخصيّات الإنسانيّة مثلما حفلت به شخصيّة النبيّ محمد على الأصعدة جميعا، فقد امتدحه الأدباء والشعراء، وأجادوا في الثناء عليه، فقد كانت أخلاقه وصفاته محور حديثهم،منهم من كرّر مدحه، ومنهم من تفنن وأجاد.

والناظر لقصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبي، يجد أنها احتوت في مفرداتها على مجموعة من أحداث سيرة الرسول من حيث (فضله و صفاته، وشجاعته،

[1] - المصدر السّابق ، 359.

وبطولاته، ومعاركه) ومعجزاته والحقيقة المحمدية ، وأصحابه ، والتوسل به([1]).

1. فضله وصفاته وشجاعته وبطولاته ومعاركه:

لقد امتدح الشعراء اليوم والشهر الذي ولد فيه محمد، فقد أشرقت الأرض بنور وجهه، وفرحت المخلوقات، وترنمت الطيور طربا،وتمايلت الأغصان فرحا،وكذلك النسيم والعطر قد فاح بمولده، ففرحت به آمنة كبقيّة البقاع التي نطقت شاكرة ربّها هذا الفضل العظيم بمولد سيّد المرسلين،يقول ابن الجوزي: [الكامل]

صبح الهدى ملأ الوجود سرورا   لمّا بدا وجه الحبيب منيرا
أطلعت يا شهر الربيع مشرّفا   قمرا يفوق مع الكمال بدورا
شهر الرّبيع أتى بمولد أحمد   ولقد أتانا بالهناء بشيرا
وترنّم الأطيار عند ولاده   بقدوم أحمد في الأنام نذيرا
وأتى النسيم مبشرا ومعطرا   وقضت بميلاد النبيّ نذورا
لمّا بدا وجه الحبيب تلألأت   كلّ البقاع وقد نطقن شكورا
ورأته آمنة يسبّح ساجدا   عند الولاد إلى السماء مشيرا([2])

ومن خلال الصفات التي ركز عليها ابن الجوزي،فقد حظيت صفات الرسول منها الخلقيّة والأخلاقيّة بنصيب وافر، فهو يقول : [الوافر]

ظريف كيّس حسن جميل   سخيّ الكفّ سيماه الكرامه
لطيف الذات ما أحلاه بدرا   تثنّي الرّمح حين رأى قوامه
رئيس سالم من كلّ عيب   بهيج نيّر وله علامه
له قدم لها في الصّخر إثر   وفوق الرّمل ليس لها علامه

---

[1] ـ لمزيد من الاطلاع على صفات النبيّ وخصاله وشمائله، انظر كتاب يوسف النبهاني، **وسائل الوصول إلى شمائل الرسول**.

[2] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**،88.

بشعر أدعج وله سواد   كليل مظلم أرخى لثامه
بطرف نيّر وله جبين   له نور ينوّر في القيامه
أزجّ الحاجبين بأنف اقنى   كحيل المقلتين حوى القسامه
ضحوك السّنّ تنظره بشوشا   وما في حبّه عندي ملامه
غزال سارح في أرض نجد   يصيد الأسد إن أرخى لثامه ([1])

فقد حاول الشاعر استقصاء الصفات الجسميّة والتركيز عليها، وهذا يظهر في مدائحه التي خصّ بها النبيّ محمدا، وأورد أيضا صفاته المعنويّة التي تميّزه، مما جعل منها مضرب المثل،وموضع التناول.

ويقف ابن الساعاتي، ليذكر مكانة الرسول ويبين منزلته،حيث عمّ فضله البريّة جمعاء، وعلت منزلته فوق منازل النبيين، يقول: [البسيط]

لولاه لم يك لا شمس ولا قمر   ولا الفرات وجاراها ولا النيل
ولم يجب آدم في حال دعوته   نعم ولم يك قابيل وهابيل
فسيّد الرسل حقا لا خفاء به   وشافع في جميع الناس مقبول
له تزخرف أفناء الجنان وعن   رضوانه حلّ منها العرض والطول
كم بردت غلة من ماء كوثره   اذن وكم فكّ مصفود ومغلول
بثت نبوته الأخبار إذ نطقت   فحدّثت عنه توراة وإنجيل([2])

ويبين شرف الدين الأنصاري مكانة الرسول،ويثني على قدره الذي لا يداني، ويعدّد دور الرسول في هداية الأمّة الإسلاميّة، فمجده يفوق الآخرين ، وبالتالي هو الذي يستحقّ الثناء والمدح، يقول: [مخلع البسيط]

خير نبيّ نبيه قدر   عودي إلى المدح فيه أحمد
ومرسل حمده شعاري   لأنه في المعاد أعود
عقابه للطغاة مقص   وبابه للعفاة مقصد

[1] ـ المصدر السّابق،93-94.
[2] ـ ابن الساعاتي، الديوان، 48.

إن يحســــــــدوه علــى علاه　　　فمثلـــه في العـــــــلاء يحسد
أبــــــان نقـــــص الجمــيع عنه　　　لمّـــا غــــــــدا في الكمال مفرد
ردّ مـــــــــــن العـدل ما تولــى　　　كــــــــــفّ مـن الجور ما تولد
ألبسنـــا المجـــــــــد فانتصرنــا　　　بحـــــدّ عضـــب لـــــه مجرّد
وكــــــم شــــــديد الضّلال أعمـى　　　أشـــــــرك لمّـــا رآه وحّد(1)

فجعل من الرسول سبيلا للنصر، ومأوى يلجأ إلى كهفه التائبين،فهو العزّ والفخار.

ويصل ملك النحاة بالرسول إلى مكانة سامية، فهو يتبوّأ مكانة لا تداني في السّماء والأرض، فالقلم عاجز عن وصف مكانته، ومع ذلك تفخر النفس بهذه المكانة،ويختم حديثه بالصلاة والتسليم عليه،يقول: [البسيط]

سمـــــــــت علاك رسول الله فارتفعت　　　عـــن أن يشيـــــر إلـــــــى إثباتها قلم
يا مـــــــــن رأى الملأ الأعلى فراعهم　　　وعـــاد وهـــــــــو على الكونين يحتكم
يا مــــــن له دانت الدّنيا وزخـــرفت الـ　　　أخرى وبعـــــــــــــلاه يفـــخر النسم
يا مــــــــن به عاد وجه الحـــقّ متضحا　　　من بعـــــد أن ظوهـــرت بالباطل الظلم
علوت عـــــن كلّ مدح يستفاض فما الـ　　　جـــــلال إلا الــــــذي تنحـوه والعظم
على عـــــــلاك سلام الله متصـــــــلا　　　ما شـــئت والصلـــوات الغرّ تبتسم(2)

أمّا أخلاق النبيّ فلو وضعت في كفة ووضعت أخلاق العرب والعجم ، فحتما سترجح أخلاقه،فهذا علي السخاوي يذكره،فالرسول من بدّد الظلمة،وكشف الغمّة، يقول:

نبيّنـــا بهــــــــــداه تهتـدي الأمــم　　　كمـــــــا بنور سنـاه تشرق الظــلم
محمد خيـــــــــــــر خلق الله كلهم　　　لا العـــــــرب فيها له شبه ولا العجم
يا أمّـــــــــــــة المصطفى هذا نبيّكم　　　وهـــذه تربة المختار فاستلموا (3)

---

[1] ـ الشرف الأنصاري،**الديوان**، 149.
[2] ـ شفيق محمد الرقب، **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السّادس الهجري**،272.
[3] ـ هنريت سابا، **اتجاهات الشعر العربي**،رسالة دكتوراة مقدّمة إلى جامعة القاهرة، 290.
3ـ نفســــــــــــــــــــه ، 297.

وامتدح السخاوي حسب النبيّ في قصيدة أخرى، فهو خير الورى حسبا، وسيّد الأنبياء، ويمتاز بسعة الفكر، وبفضل الكرم، كما تهتدي به الأمم ، ولا نظير له عند العرب والعجم، يقول: [البسيط]

نبيّنا بهداه تهتدي الأمم   كما بنور سناه تشرق الظلم
محمد خير خلق الله كلهم   لا العرب فيها له شبه ولا العجم
يا أمّة المصطفى هذا نبيّكم   وهذه تربة المختار فاستلموا ([1])

وبمثل ذلك المعنى يمدحه الشاعر يعقوب الدمشقي، ويذكر فضل الرسول من خلال تعداد سور القرآن الكريم، فقد خصّه الباري بها ، ولم تنزل على أحد سواه، يقول: [البسيط]

خير الأنام رسول الله من نزلت   عليه طه وياسين وتنزيل([2])

وتصدّى الصرصريّ لسرد سيرة النبيّ في قصيدة يصل عدد أبياتها إلى ثمانمائة واثنين وخمسين بيتا من الشعر ، بدأ بذكر أجداد النبيّ، ثمّ تناول مولده ، ورضاعته، ونشأته،وبعثته، وأخلاقه ،وإسرائه،ومعراجه،وجهاده،ومعجزاته، يقول فيها : [الكامل]

لمّا اصطفى الله الخليل وزاده   شرفا ونجّاه من النيران
اختار إسماعيل من أولاده   وبني كنانة من بني عدنان
ثمّ اصطفى منهم قريشا واصطفى   أبناء هاشم الفتى المطعان
ثمّ اصطفى خير الأنام محمّدًا   من هاشم فسمت على قحطان
وأبانَ كعب جدّه في خطبة   بعروبة في سائر الإخوان
فضل النبيّ وودّ أن يبقى إلى   أيّامه لقتال ذي شنآن
ولقد بدت أنواره بجبين عبد   الله ظاهرة لذي عرفان
وبدت لآمنة الحصان لحملها   بأخفّ حمل راجح الميزان([3])

1- شفيق الرّقب، **الشعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السادس**، 272.
[3] - الصّرصريّ ، **الديوان**، 551.

ولا يترك الشاعر فرصة دون تبيان حسن أخلاق الرسول، وجميل صفاته، وأنه مؤهل من ربّ العالمين ليكون نعم المبلغ، ثمّ ينتقل للحديث عن معجزاته وفضله على بقيّة الأنبياء، ولا يفوته مدح صحابته الأخيار، وبذلك جاءت سيرة النبيّ متكاملة في هذه القصيدة .

ومضى الزمخشري في عرض الهدي النبوي، فالرسول خير من هدى العالمين، فقد أرسله الله إلى الثقلين، وهو خير من سلك طريق إبراهيم، وبعد ذلك انتقل إلى بطولته وشجاعته، فهو سيف مسلط على كلّ من وقف في وجه الباغين، والمعرضين،فقال:

إلى الثقلـــين المصطفى كان مـرسلا   من المتعـــالي جـــدّه المتبارك
ولمّـــا أتــــاهم بالحنفيّة التـــي   هي الصّبح جلّى جنــح أسود حالك
بملّـــة إبراهيـــم أثبـــت ملـــة   وأرسخها قبـــل الجبال الرّوامك
أتاهم بآيـــات الكتـــاب فأصبحت   بوازغ فـــي الآفـاق غير دوالك
بداهـــم بأشبـاه السّيوف بواتكا   فصـــدّوا فثنى بالسيـوف البواتك ([1])

ويتحدّث عبد المحسن التنوخي عن ضرورة الالتزام بالدّين الإسلامي،ويثني من خلال مديحه على القرآن الكريم، فهو منهاج حياة، وهو منقول عن العرش فلم يخالطه ريب، ففيه من الحكمة والبيان والموعظة مما يجعل البشر عاجزين عن مجاراته أو الإتيان بمثله، يقول:

هـــو النبـــيّ فمـــن والاه منتصر   على عـــداه ومـن عاداه مخذول
لقـــد هدانـــا إلـى دين له شهدت   بالحـــقّ والصّـــدق توراة وإنجيل
وجاءنـــا بكـــلام لا يبدّلـــه   خلـق وهـــل لكلام الله تبديل
فيـــه بيـــان وأمثال ومرحمـــة   وحكـــمة ومـــواعيظ وتفصيل
كلامـــه الصدق لا ريب يخالطه   لأنـــه عـن إله العرش منقول([2])

[1] ـ علي عمرو، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، 18.
[2] ـ النبهاني ، المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة، 3/36-43.

وبذلك نشاهد أنّ الشعراء اختلفوا في طريقة تقديم وعرض سيرة الرسول، فمنهم من بدأ بالحديث عن الصفات مباشرة، ومنهم من عرض أحداث السيرة حسب تطورها الزمني، مثلما فعل الصرصريّ، ومنهم من أفاض في بيان نسبه، ونلاحظ تفاوتا في الحديث عن النسب، وتفوقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بقيّة الرسل والبشر، وبطريقة التناول هذه يمكن القول بأنّ شعراء العصرين قد أجادوا أيّما إجادة في تناول المفردات النبوية التي تتكوّن منها المدحة النبويّة، ولا ننسى أنهم ركزوا على حقيقة دينيّة وهي أنّ الدين الإسلامي حوى ما قبله من أديان وجاء متمّما لها، وشاملا لما حوت، وبالتالي لا يقبل الله غير الإسلام دينا.

2ـ معجزات الرسول:

لا شكّ في أنّ الحديث عن المعجزات النبويّة قديم حديث، لأنّ غالبية الشعراء قد تحدّثوا عنها وأفاضوا في ذلك،والمعجزات التي أجراها الله على يدي الرسول كثيرة، منها: ما هو سماوي كحادثة الإسراء والمعراج، أو أرضيّة كحنين الجذع ، ومنها ما يتعلق بالإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد، أضف إلى ذلك ما يتعلق بأخلاقه وبشارات الأنبياء والنبوءات، على أنّ أعظم معجزاته على الإطلاق هي معجزة القرآن الكريم، وهي المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة. ([1])

وأكثر الشعراء حديثا عن المعجزات النبويّة الصّرصريّ، فقد أفاض في تعداد تلك المعجزات مع تنوّعها،وتتصدّرها معجزة الإسراء والمعراج، والشفاعة الممنوحة له دون سواه، ويخاطبه متوسلا به قائلا: (البسيط)

يا سيّدا لاسمه المشتقّ من سمة الـ محمود بالنور فوق العرش أسجال
يا سيّدا وضعت عنا بمبعثه مهدي الفوائد آصار وأغلال
يا سيّدا نال بالمعراج مرتبة علياء فيها له قرب وإقبال

[1] ـ ينظر مصطفى مراد، **معجزات الرسول**، 10.

يا سيّدا يـــــوم حشر العالــــــمين له بمقعد القــــــــــرب تبجيل وإجلال
يا سيّدا خصّــــــــه بالقطف من عنب ربّ عليــــــه لــــــه منّ وإفــــضال
يا سيّدا في كنوز الأرض أصـــــبح ذا زهد فـــحلت له في الحـــــرب أنفال
يا سيّدا ســـــحّ ماء مـــن أصـــــابعه من فارس هـــــــو للأقـــــران فلال
يا سيّدا سبّحــــــت لله في يـــــده صمّ صوامـــــت والأصحـــــاب حفال
يا سيّدا حـــــنّ جذع حين فـــارقه حنين ثكلــــى لها بالفقد إعــــــوال
يا سيّدا سجـــد السّاني العصــــيّ له فآض بعـــــد نفـــور وهـــــو مذلال
يا من دعا بنــزول القطـــــــر في سنة شهباء فانهــلّ هامي الودق هطـــال[1]

فالرسول قد خصّ بمقعد صدق عند مليك مقتدر لا يبلغه أحد إلا هو،ويغبطه عليه الأنبياء، والمؤمنون، وهو النبيّ الذي حللت له الغنائم، وسبّح الحجر بين يديه، وانهال الماء بين أصابعه، وحنّ الجذع إليه بعد أن افتقده، فهذه مفاخر خصّ بها النبيّ، فتنبّه أيها السامع لما في ذلك عبرة وعظة .

وقد استغلّ بعض الشعراء حديثهم عن المعجزات، ليذكروا الناس بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه ربّ السماوات ،فالفرد يجب عليه أن يلوذ إلى ربّه ،مصليا وصائما وزاهدا ، ففي هذا صلاح له، وكأني بابن عربي يستغلّ التعريض بحادثة الإسراء والمعراج ، ليتغزّل بالذات الإلهيّة ، ويدعو الناس إلى سلوك طريق الصّوفيّة،يقول :
[البسيط]

أنضى الركـــاب إلـــى ربّ السمــاوات وانبذ عن القـــــــلب أطوار الكرامات
واعكف بشاطئ وادي القــــدس مرتقبا واخلـــع نعـــــالك تحظى بالمناجاة
وغـــب عن الكون بالأسماء يا سندي حتى تغيب عــن الأســـــــماء بالذات
ولذ بجانـــب فـــــرد لا شبيـــه له ولا تعـــرّج على أهـــــــل البطالات
بــــل صم وصـــــلّ وفكّر وافتقر أبدا تنـل معالـــــم من علــــــم الخفيّات
فقـــد قـضــــى الله بالميراث سيّدنا لكـــلّ عبـــد صـــــدوق ذي تقيّات[2]

[1] - الصرصريّ ، الدّيوان، 369-370.
[2] - ابن عربي ، الديوان، 9.

وقد حاول بعض الباحثين التشكيك في صحّة بعض المعجزات التي أوردها الشعراء أثناء مدحهم للرسول، فمنهم من دعا إلى التحقق من صحتها،فقد أشار زكي مبارك في معرض حديثه بأنّ عرضها يحوي خطورة، وإذا قمنا بعرضها فإنها تحمل معها الخشية، وإن قصد بها النفع .([1])

ومن الشعراء من اقتصر على إيراد معجزة واحدة ، حيث اقتصر على الظاهرة منها، فهذا شرف الدين الأنصاري اختار الشفاعة وضمنها همزيّته النبويّة، يقول:

فأنــــــــــــت النبيّ الوجيه الذي ... حـــــــــــوى في الشفاعة فضل الجزاء
فشرّفـــــه الله مختـــــــــــاره ... بخيـــــــــر صـــــلاة وأزكى ثناء([2])

وفي لاميّته يبيّن الأنصاري أنّ مجيء المعجزات وظهورها، هو تصديق للرسول،وبها نال القبول، يقول:

أظهرت فينــا المعجـــــــزات فحققت ... صدق الرســــــول بلطف منع المرسل
فأطاع من سبقـــــــت له الحسنى ومن ... جـــــــــاد القبــــــول له بجدّ مقبل
وعصــــــاك مـــن كتب الإلــه شقاءه ... فطغـــــــــى وأمهلــــــه ولما يهمل
زحزحت عن طــــــرق المظالم عادلا ... فينــــــا ومـــــن للعدل إن لم تعدل([3])

وأودع عبد المحسن التنوخي مدحته اثنتين من معجزاته، فمحمد صاحب الحوض، وهو الشفيع المشفع يوم القيامة،يقول:

ذو الـــحــوض يورده في الحشر أمته ... وذو الشفاعـــــة مـــــا في ذين تأويل([4])

ومن الشعراء من تخيّر بعض المعجزات وضمّنها مدحته، وجاء بها ليقنع النفس، ليحملها على الإيمان، ويحثها على الإقرار بحبّ الحبيب محمد، لتظلّ على صلة به، لتحظى بشفاعته يوم القيامة، يقول عبد الرحمن بن الجوزي: [البسيط]

---

[1] ـ **المدائح النبوية في الأدب العربي**، 190.
[2] ـ شرف الدين الأنصاري، **الديوان**، 536.
[3] ـ نفســـــــــــه، 562.
[4] ـ إسماعيل النبهاني، **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية** ،36/3.

يا نفس نلت المنـــى فاستبشري وسلي   هذا الحـــــبيب وهذا خاتم الرّسل
هذا الــذي مـــلأت قلبي محبّته   هذا الذي سهـــرت من أجله مقلي
هذا الـذي فــي مقــام الحشر شافعنا   إذا استغثنا بـــه من شدّة الوجل
هذا الذي جـــاء للأبـــحار مالحة   فمجّ فيهـــا فصار الماء كالعسل
هذا الذي ردّ عينـــا بعــد ما قلعت   وريقه قد شفـى عيـــن الإمام علي
يا درّة الأنبيـــا يــا روضة العلما   يا ملجأ الغربـــا يا سيّد الرّسل
كن لي شفيعا إذا جـــاء الحساب غدا   من حرّ نار بهـــا الأحجار تشتعل([1])

وكثيرا ما كانت ترد المعجزات النبويّة في غمرة تبيان بطولات الرسول،وذكر معاركه الحربية التي خاضها من أجل تركيز دعائم الإسلام ، وورودها في مثل هذه الأماكن يحمل دلالات خاصّة، فالإشادة ببطولات الرسول وتعداد صفاته وهو في ميدان المعركة، يقصد الشاعر من ورائه استنهاض الهمم، وفيه دعوة إلى الإقتداء بالرسول وبالسير على نهجه لتخليص البلاد والعباد من دنس المحتل ووجوب دحره، يقول الصرصريّ : [الطويل]

فقام بنصـــر الله بالسيف جاهدا   فما رام إلا والظـــلام دحور
فأضحـــت شموس الحقّ بعـد كسوفها   بأحمـــد يعلو ضوؤها وينير
له معجـــزات سوف أذكر بعضها   اختصـــارا فأوصاف النبيّ كثير
فمعجزة القـــرآن أعجز خصمه   فحــار فصيـــح القوم وهو مهير ([2])

فالرسول بعد الدعوة السلمية، أعلنها جهاديّة محمديّة، لكلّ من أمال وجهه وأعرض عن الدخول في دين الله، وصنع ذلك بعد أن أذن له .

والشعراء والكتاب يعجزون عن ذكر معجزاته جميعا، وبالتالي فهم لا يوردونها كاملة أو مفصلة، فهذا الزمخشريّ يذكر قصور الشعراء وغيرهم عن إعطاء الرسول حقه:
محمد إن تصـــف أدنى خصائصه   فيا لهـــا قصّـــة في شرحها طول

---
[1] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف** ، 100-101.
[2] ـ الصرصري ، **الديوان**، 156.

وتبقى المعجزة مفردة مهمّة من مفردات المدحة النبويّة في هذين العصرين وفي بقيّة العصور اللاحقة، فقد عدّت من المفردات التي لم يتوان الشعراء عن ذكرها، أو التغني بها،ولأنها تدلّ على العواطف الدينيّة التي يحملها الشعراء،عندما يذكرونها، وهي تحمل دلالات هامّة ، تبيّن قدرا كبيرا من الإثارة للسامعين تستهويهم وتجلب انتباههم لما تحمل من خوارق العادات، أضف إلى ذلك أنها لم تظهر إلا على يدي نبيّ من أنبياء الله، وكثرت عند الرسول الأكرم فخارا له، و تأييدا لدعواه، وحفزا للمتردّدين ، أو الجاهلين بأمور الدين من أجل دعوتهم للإيمان .

3ـ الحقيقة المحمدية :

عندما نذكر الحقيقة المحمديّة، فإنه يتبادر إلى الأذهان مباشرة الصّوفية والتصوف، وهم من تحدّث عنها كثيرا، ويرون أنّ الرسول نور أزلي ظهر في آدم حين أوجده الله، وتمثل كذلك في إدريس حين أصبح نبيّا،وكذلك وجد في شخص نوح حين دعا قومه وعصوه، وعندما صنع الفلك،ونجا هو ومن آمن معه ، وتجلى بوضوح في شخص إبراهيم، فصورة موسى وعيسى، ثمّ ظهر باسم محمد آخر الأنبياء والمرسلين وخاتمهم.([1])

ويعلق محمود سالم محمد على ظهور الحقيقة المحمدية بقوله:" أخذ شعراء المدائح النبوية جميعهم بالحقيقة المحمدية، أخذ بديهة دينيّة لا تحتاج إلى نقاش،وذكروها في قصائدهم ، ومدحوا رسول الله بها، بل جعلوها أقصى ما يمدح به، فقد استهوتهم نظرية الحقيقة المحمدية، لأنها تتجاوب مع تحليق الخيال ومع المبالغة الشعرية، وقد مدّهم أصحاب السيرة والخصائص والدلائل بفيض من الروايات الغيبية،التي تثير المخيلات، وتفسح القول أمام القول الشعري.([2])

وبالنظر إلى تلك المكانة السّامقة التي تبوّأها الرسول بين الرسل، وحاز من بينهم أعلى المراتب، وتفاخر بذلك الشعراء، وأطلقوا لأنفسهم العنان في سبقه الأكوان وما

[1] ـ ينظر علي صافي حسين، الأدب الصوفي في مصر في القرن السّابع الهجري،380.
[2] ـ المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي،249.

حوت، وتجسّده فيمن سبقه من الرسل،مع أنهم بعثوا على فترات، إلا أنّ نوره سطع وغلب، واستحقّ بذلك هذه الرتبة التي تغنى بها الشعراء، وأصبحت مفردة لا غنى لشعراء المديح النبوي عنها، وظلوا يكررونها في مدائحهم.

ومن أقدم الشعراء الذين ذكروا النور المحمدي في أشعارهم العباس بن عبد المطلب عمّ النبيّ محمد، وذلك عندما مدحه، يقول: [المنسرح]

من قبلهـــــا طبت في الظـلال وفي   مستودع حيـــــــــث يخصف الورق
ثمّ هبطــــــــت البــــلاد لا بشرٌ   أنـــــت و لا مضغـــــــة ولا علق
بل نطفـــــــة تركـــب السفين وقد   ألجـــــــم نســـــــرا وأهله الفرق
تنقل مـــــــن صالـــب إلى رحم   إذا مضـــــى عالـــــم بدا طبق
حتى احتـــــوى بيتك المهيمن من   خندق عليـــــــــــــاء تحتها النطق
وأنت لما ولـــــدت أشرقـــــت الـ   أرض و ضـــــــاءت بنورك الأفق ([1])

وهـذا ابـن السـاعاتي، يقـف في مدحتـه مبيّنـا مكانـة الرسـول، فهـو جـوهر الكـون وأساسه،وهو من بشرت به الكتب السماوية،يقول الساعاتي عندما وقف معارضا كعب بن زهير في بردته:

هو البشير النذيـــــر العدل شاهده   وللشهادة تجـــــــــــــريح وتعديل
لولاه لــــــم تك لا شمس ولا قمر   ولا الفـــــــــرات وجاراه ولا النيل
وسيّـــــــد الرسل حقا لا خفاء به   وشافـــــــــع في جميع الناس مقبول
بثت نبوتـــــــه الأخبار إذ نطقت   فحدّثت عنــــــــه تـــوراة وإنجيل ([2])

وهـذه الأبيـات سـبق أن سـقناها في معـرض الحـديث عـن مـدح الرسـول، وبيـان صفاته،هذه الأبيات كانت بما حوت، وما فيها من تكرار،و أشار بعض الباحثين إلى أنّ

[1] ـ الصّفدي، **الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم**،275/1.
[2] ـ ابن الساعاتي، **الديوان**،48.

المعاني التي أوردها ابن الساعاتي هي التي استقرّت لاحقا لدى الصوفيين من أمر الحقيقة المحمديّة.([1])

وتظهر النزعة الصّوفية بجلاء في حديث ابن الجوزي عن الحقيقة المحمديّة، خاصّة في همزيّته، فهو يفتخر بشرف النبيّ، وبمكانته، فالرسول سيّد الكونين،وسيّد هاشم،به توسّل آدم من ذنبه،وكذلك فعلت حوّاء، ونوح عندما أتى قومه الطوفان، وكذلك نجا إبراهيم من النار عندما أوقدت له فخرج منها بسلام،وبوساطته دعا يونس في ظلمات الحوت،وإسماعيل وعيسى وداود وموسى ، يقول:

هو سيّد الكونيـــــــــن سيّد هاشم	**ما في سيـــــادته عليـــــــــه خفاء**
فيـــه توسّــــــل آدم مــــــن ذنبه	**وتشفعــــت بجنابـــــــــه حوّاء**
وبــــــــه توسّــل نوح في طوفانه	**فأجيب حيــــــــــن طغى عليه الماء**
وبــــــــه الخليل نـجا من النار التي	**قد أضرمـــــــــــت من أجله الأعداء**
وبــــــــه دعا إدريـس فارتفعت له	**عند المهيمــــــــــــن رتبـــة علياء**
وبــــــــه الذبيح فدي بـــذبح جاءه	**فله كمـــا شهــــــــد الكتاب فداء**
بمحمد فــــــاز الكليـــم بـطوره	**لمّـــا أتـــــــاه من الإله نداء**
إنجيـــــــل عيـسى والزبور بفضـــله	**شهـــدا وكــــــــــم فضل له وعلاء**
وببعثـــــــه التـــــوراة يشهد لفظها	**للـــمصطفــــــــى ولـــها عليه ثناء**
الله أكبـــــــر مــــــا أتـــمّ فخاره	**في بعـــــــــض ذا تتخيّر العقلاء([2])**

ويرى الباحث أن تلك الأنوار التي ذكرها الشاعر ؛ إنما هي من باب المبالغات التي دأب عليها الصوفيّون، وأن الشاعر بإيراده لهذه الأنوار إنما تحمل دلالة قطعيّة على تعلق الشاعر بشخص النبيّ ، فقد حملته العاطفة الدينيّة إلى ذلك ، أضف إلى ذلك شدّة الحبّ والتفاني في الحبيب ومن أجل رفع منزلته حدت بالشاعر إلى بلوغ تلك الذروة من التغني به.

[1] ـ ينظر محمود مكي،**أدبيات المدائح النبوية**،106.
[2] ـ صلاح الدين هواري،**المولد النبوي الشريف**،97-98.

وعند حديثنا عن الحقيقة المحمدية والتغني بها لا بدّ من التعريج على الشاعر الصرصريّ، فهو ممن له صولات وجولات في هذا الباب، يقول: [الكامل]

يا سيّــــــــد الأشراف يا مــن حبّه في كـــلّ قلــــــــــب صـادق مغروز
يا من لرتبته التــــــــي سمت الذرى علــم على هـــــــــام الذرى مركوز
بــــــــرزت في نيل المقامات العلى ولمثــل مجــــــــــدك يثبت التبريز([1])

وتتعدّد طرق الصوفية، وتظهر في هذين العصرين مجالات يصل فيها الشعراء إلى الرمز ، خاصّة أولئك الذين شغفوا بالذات الإلية وبحبّه، فهم يستغرقون حواسّهم في إبراز شاعريّتهم، وصولا إلى من أحبّوا، فهذا عمر بن الفارض (توفي سنة ستمائة واثنتين وثلاثين هجرية) يقول:

وما منــــهم إلا وقــــــد كان داعيا بــــه قومــــــــه للحــقّ عن تبعيّة
فعالمنا منــــــــــــهم نبيّ ومن دعا إلى الحـــــقّ منـــــــــا قام بالرّسليّة
وعارفنا في وقتنــــــا الأحمدي من أولي العــزم منهــــــــم آخذ بالعزيمة
وما كان منهم معجـــــزا صار بعده كرامـــــة صـــــدّيق لــــــه أو خليفة
كراماتهم من بعـــــــض ما خصّهم به بما خصّهــــــــم من إرث كلّ فضيلة ([2])

فهو جعل السّبق للنبيّ، والرسل الذين سبقوه من قبل كانوا تابعين له، فأخبر أنّ للنبيّ المعجزات، ولغيره من الأنبياء السّابقين الكرامات، فهم بمثابة أصحابه الذين كانت ترافقهم بعض الكرامات.

وهذا ابن عربي يعبّر عن أزليّة النور المحمدي أو الحقيقة المحمديّة،فالشاعر يظهر أنّ محمدا أوّل الوجود كله،نزل مؤيّدا بالقرآن معجزته الكبرى، وفي ثنايا حديثه عن أزلية النور، ذكر مجموعة من الصفات التي خُصّ بها النبي،وتحدّث عن معجزاته، يقول في داليّته: [الطويل]

ألـــم تـــــــــر أنّ الله أكــرم أحمدا ونـــــادى بـــه حتى إذا بلغ المدى

---

[1] ـ الصرصريّ ، **الديوان** ، 238.
[2] ـ ابن الفارض، **الديوان**، 104.

تلقـــــاه بالقـــــــــرآن وحيـــــا منـزلا فكــــــــان لـه روحــــا كريما مؤيّـدا
وأعطـــاه ما أبقـــــــــــى عليـــه مهابة فأورثـــــــــه علمـــا وحلما وسؤددا
وأعلى بـــــــــــه الدين الحنفي والهدى وصيّـــــــــره يـــــــوم القيامة سيّدا
وهيّأ يـــــــــــــوم الفصل عنـــد وروده لـــــه فــوق أدنى في التقرب مقعدا([1])

ونلاحظ في الأبيات السّابقة،أنّ الشاعر لم يأت بالغموض والتعقيد اللذين درج عليهما عندما يغرق نفسه في معرض تعلقه بالذات الإلهيّة،أو عند حديثه عن الحقيقة المحمديّة التي أفاض في ذكرها كباقي الصوفيين.

كما نلاحظ أنه قرن محبّة الرسول بمحبّة الله، وجاء هذا مخصصا عند الصوفيين، وفي ذلك يقول شوقي ضيف:" ويدوي المديح النبوي في كلّ مكان، ويتكاثر في كلّ بيئة، وخاصّة بيئة المتصوّفة الذين جعلوا محبّة الرسول جزءا من محبّة الذات الإلهيّة، بل إنّ محبّتهما واحدة، وحقيقتهما واحدة، فلا فرق بين الحقيقة المحمديّة والحقيقة الإلهيّة التي تمثلت في الأنبياء، وتتمثل في أقطاب الصّوفيّة من بعدهم، ولعلّ متصوفا لم يتغنّ بأزليّة الوجود المحمدي كما تغنى ابن عربي الصوفي المشهور" ([2])

ويذكر الشاعر شرف الدين الأنصاري الحقيقة المحمدية، فقد اصطفى الله نبيّه، وحباه بالقرب من دون البرية، وبذلك أصبح مضرب الأمثال، يقول في لاميّته:

ومن اصطفاه الله مــــــن دون الورى فأجله فـــوق الكـــــــــــواكب من عل
وحباه بالقـــــــرب الـــذي أضحى له جبريـــل عـــــــن عجب الجلال بمعزل
وعلا في الامثـــــــال فـهو لــمن علا في الوصــــــــف أقصى غاية المتمثل([3])

---

[1] ـ ابن عربي، **الديوان**، 123.
[2] ـ **فصول في الشعر ونقده**،232.
[3] ـ شرف الدين الأنصاري، **الديوان**، 561.

ويقف الشاعر عبد المحسن التنوخي على قبر محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ويمتدح نوره المحمدي، فنور الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أضاء قبره، و من يشاهد نوره فإنه يذهل، ويمتدّ نوره ليصل إلى هابيل الذي اقتفى النهج المحمديّ، يقول:[البسيط]

يا طيبُ طبــــت بقبـر فيــك ساكنه	لـــــــه على كـــــــلّ خلق الله تفضيل
قبــر بـــــــــه النور لا تخبو أشعته	رائـي سناه من الأنــــــــــوار مذهول
قبـــــــر لـه حـــلّ بيتا حلّ فيه رضا	مــــن الإلـــه وتكريــــــــم وتبجيل
فيه النبـــــــــيّ الــــــذي لولا نبوته	لمــــــا اقتفى الرّشد قبل اليوم هابيل ([1])

وأغلب شعراء العصرين الزنكي والأيّوبي تحدّثوا عن الحقيقة المحمديّة، وأوردوها في قصائدهم النبويّة، ويعود ذلك لأسباب منها: انتشار الصّوفيّة والحبّ الإلهي، والوازع الديني ، والحرص على صفّ المسلمين وجماعتهم من الأخطار التي أحدقت بهم، والردّ على أهل العقائد والنحل الأخرى ، خاصّة تلك التي كانت منتشرة في مصر وبلاد الشام، ولا نستثني وجود النصارى، الذين غزوا بلاد المسلمين،وورودها يحمل دعوة إلى التمسّك بالمنهج النبوي؛ لأنّ فيه الصّلاح في الدارين، ولا يجب أن ننسى أنّ أغلب الشعراء الذين مدحوا الرسول كانوا من الفقهاء، وبالتالي هم أقرب الناس إلى الدعوة المحمديّة، ومن نظم على شاكلتهم إنما صنع ذلك مجاراة لهم .

4. صحابة الرسول وآل بيته ـ رضوان الله عليهم جميعا ـ :

لقد تبوّأ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مكانة بارزة في الإسلام منذ ظهوره،لهم أياد سابغة عليه، فهم المناصرون للرسول منذ اليوم الأول لبداية الدّعوة المحمدية،نالوا درجات رفيعة ومنازل عالية، وأخصّ بالذكر أولئك الذين خلفوا محمدا بعد وفاته، ولم ينل أيّ واحد منهم مكانته تلك من فراغ، وكتاب صحيح مسلم يزخر بتلك الأحاديث النبوية التي تبين فضلهم([2]) .

---

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**،36/3.

[2] ـ ينظر الإمام مسلم،**صحيح مسلم**، 1188.(كتاب فضل الصحابة رضي الله عنهم)

وقد بيّن الرسول فضل صحابته،ففي الحديث الذي أورده البخاري في صحيحه، يقول سيّدنا محمد: " خير الناس قرني ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم ويمينه شهادته" ([1]).

والحديث عن فضائلهم في الشعر العربي ليس بالغريب، فقد حاول الشعراء ذكر فضائلهم في منازل عدة، بداية من حسان ووصولا إلى الشعر الحديث، مرورا بالشعر العربي في أزهى عصوره الأموية منها والعبّاسيّة ، وفي باب المدائح النبويّة كان الشاعر كعب بن زهير ممن له قدم السبق إلى مديحهم عندما قام بمدح المهاجرين،و سلك الشعراء مسلكه من بعده، وبذلك جعلوا مديح الصحابة مفردة من مفردات المدحة النبوية.

وذكر الصّحابة في المدحة النبوية،يعني التغني بفضائلهم وبأمجادهم، فهم تحملوا مع الرسول عبء الرسالة، فقد ذكر الشعراء بطولاتهم، وتغنوا بتضحياتهم، وأشادوا بكريم شمائلهم،أمّا موضع مديحهم هذا من المدحة النبوية، فهو يأتي بعد مدح الرسول، وذكر معجزاته، أي في الأبيات الأخيرة، وتسبق الخاتمة.

وشعر المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيوبي ذكر الصّحابة بصورة بارعة ، فأغلب مدائح الرسول تحتوي ثناء عليهم، وتركز على فضلهم، خاصّة الخلفاء الأربعة ،فقد جاؤوا مرتبين حسب خلافتهم للرسول،فقد وقف عليّ السخاوي، يعدّدهم ويبيّن فضل كلّ منهم، فأبو بكر من السابقين للإسلام،وكان حقيقا بالخلافة لأنه قام بأعبائها خير قيام،وهو أحد الصحابة الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الدعوة حتى غدا معدما،وسمّاه الرسول بالصّدّيق نظرا لسبقه وتصديقه للرسول،وهو أنيس الرسول في الغار، وسيكون رفيقه في الجنان منعّما،و بعد أن أقرأ الرسول السّلام،يقول في ميميته:

[الكامل]

وعلى أبي بكر خليفتك الذي   للحقّ قام مثقفا ومقوّما

وغدا بأعباء الخلافة ناهضا   لا عاجزا فيها و لا متلوّما

[1] - البخاري، **صحيح البخاري**،204/2. (باب فضل الصحابة)

وعلى سبيـــــــــــل الله أنفق مالـــه حتى تمـــــــــــلك بالعبادة مـقدما
سمّاه بالصديـــق صـــــــــدق نقيّة سبـــــق الرجـال إلى النجاة فأسلما
وغـــــــدا بذيـل المصطفى متمسّكا وعلــــــى أوامـــره يشـــدّ مصمّما
وأنيســــــــه في الغـار حيث يقول لا تحـــزن فإنّ الله أمنــــع من حمى
وصحبتـــــــــه في قـــرّه ورفيقه يوم القيامــــــة في الجنان منعما ([1])

ونلحظ أنّ ثناءه على أبي بكر قد استغرق سبعة أبيات، وانطلق يمدح عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، يقول:

وعلى أميـــر المؤمنين منكس الأصنام حيـــــن غـــــدا بملتها مسلما
عمر الــــذي للدّين كـــان مؤيّدا ولـمــن يعافـــــك مذلا مراغما
في الحـــــــقّ فظ ّ ليّن متعاظم يجفـــو الشريـــف لـــه ويدنو الأيما
فتح الفتـــــوح وشـــاد للدين العلى وغـــــدا به ربـــع الضّلال مهدّما([2])

وينتقل إلى عثمان بن عفان، واصفا حياءه، وهو من جمع القرآن،واستحت منه الملائكة، وزوج ابنتي الرسول،وبذلك نال شرفا رفيعا،يقول:

وعلى ابن عفـــان الـذي استحيت لأجل وقـــــاره منه ملائكة السما
القانت العقـب الصّبـــور أحاطت الـ بلـوى فأذعـــــــن للقضاء مسلما
عثمـان ذي نـور نصيـــر المصطفى زوج ابنتيـــه عـلا بذلك مكرما ([3])

ثمّ يمدح أبا الحسن عليّاً، الذي ارتضاه الله إماماً ،كريمَ النسبِ، وصاحبَ الفخر، وزوجَ البتول، ما تأخر يوما عن نصرة الإسلام والدينِ، يقول:

وعلى أبي الحســـــن الإمام المرتضى ذي الفخـر والنسب الكـريم المنتما
زوج البتول أخـــــي الرسول فتى الوغى مـــــا فرّ قــطّ ولا تأخر محجما ([4])

---

[1] - ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**،25/5-26.
[2] - **نفســــــه** ، 26/5.
[3] - **نفســــــه** ، 5/ 26.
[4] - **نفســــــه** ، 26/5-27.

ومن الشعراء الذين ركزوا على الخلفاء الأربعة،مع عدم إغفال الآخرين من الصحابة،الصرصريّ الذي يقف مركزا على جانب النصرة للرسول في ميادين القتال،فهم نعم النصير ، وهم من فتح الأمصار،واستحقوا أن يكونوا نعم الأخيار، يقول: [البسيط]

واختار أصحـابـه منها لنصـرته من كـلّ ما معلم في الحرب مشتهر
فاختـار منـهـم لنصر الدين أربعة ساروا وقـد خلفوه أحسن السير
منهم أبـو بـكر الصـديق مؤنسه في الغار إذ نفـروا من حادث الغير
ومنهم عمـر الفـاروق مفتتح الـ أمصـار عـدل الحكم لم يجر
وإنّ عثمـان ذا النـورين جامع آ يات الكتـاب لمنهم خير مصطبر
والهاشميّ عليّ صـهره وأبو سبطيه منـهم إمـام طاهر الأزر
أولئكم شهـد الهادي البشير لهم حقـا بمقـعد صـدق عند مقتدر
وأهل بيـت رسول الله ليس لهم مكافئ فـي فخـار عند مفتخر
والأربعـون فمـن أبـدال أمّته زهـر خلائقـهم أبهى من الزهر ([1])

فالشاعر ينطلق من مدح الرّسول إلى مدح خلفائه الأربعة، ثمّ ينتقل لمدح آل البيت ثمّ الأربعين المقرّبين، وهؤلاء الصحابة يستحقون أعلى الجنان عند عزيز مقتدر.

غير أنّ بعض الشعراء لم يفصحوا من خلال مدحهم بأسماء الصّحابة ، وإنما امتدحوا معمّمين مدحهم ليشمل الصحابة، و آل البيت ، والأحزاب ، وأهل الفضل، والقدر الرّفيع،يقول ابن الجوزي: [الوافر]

عليـه الله صـلى ما تغنى حمـام فـوق أغصـان الرّبيع
وآلٍ ثـمّ أصحـاب وحزب أهيـل الفضـل والقدر المنيع ([2])

ويمدح عبد المحسن التنوخي الصحابة، ولكنه لا يفصح من خلال مديحه لهم بذكر أحدهم، وإنما عمد إلى بيان فضلهم ، وذكر مآثرهم على الإسلام، فقد كانوا متممين

[1] ـ الصرصري، **الديوان**، 201-202.
[2] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**، 91.

ومكمّلين، وبما أنهم أرضوا ربهم، فقد رضي الله عنهم ، يقول في لاميّته: [البسيط]

ثمّ الصلاة على أصحـــــابـــه فبهم قـــد كـــان للديـــــن تتميم وتكميل
وعنهم رضـــــــي الرحمن إنهـم أرضـــــــوه والأجـــر عند الله مكفول
هم الألى بايـــعـــــوه تحت أيكته و للمــــــلائـــــك تكـــبير وتهليل([1])

ومديح الشعراء للصحابة يقودنا إلى تضمين الشعراء مدائحهم النبويّة مديح آل البيت النبوي، فقد تغنوا بهم ، من هنا جاءت الانطلاقة ، حيث ازدهر مديح آل البيت من خلال المدائح النبوية، إذ تعدّ المدائح النبويّة حديقة غناء يانعة أثمرت ونبتت فيها أنواع من الورود التي تعبق بروائح عطريّة من بينها مديح آل البيت الكرام، وكلّ جاء بصرف النظر عن الطائفيّة أو ما يعرف بالتشيع، وإن أغرق الشيعة بمديح آل النبي، وأفردوا قصائد مستقلة في مدحهم.

تفاخر الشعراء بمدحهم لآل النبيّ ، فمجدهم مأثول في الجاهليّة والإسلام، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا الشرف، والفضل يعود إلى روابطهم الأسرية بالنبي محمد، وفضلهم تقصر عنه السادات، ويتغنى عبد المحسن التنوخي بهم قائلا :

هـــــــل مثل مجـــدكم آل النبيّ له في الجاهـــــــــليّـــة والإسلام تأثيل
مجد أثيــــــل قريش شيّدتــه لكم ما شـــــــان شائـــــدة ذمّ وتبخيل
فخرا بذلــــــــــكُمُ آلَ النبيّ فقد أدركتـــم مـــا ونــــت عنه البهاليل([2])

وبعد فإن ابن جبير يعبّر عن حبّه للرسول، ثمّ يلتفت ليبث هذا الحبّ إلى آل بيته الغرّ الميامين،فيصفهم بالنجوم المضيئة، ويدعو إلى موالاتهم، مع أنه يوضّح مبدأه صراحة، فهو لا يكنّ حقدا لصحابته، ويرى أنّ من يكن حقدا لهم هو كافر، وجاحد لفضلهم وجهادهم، ونصرهم للرسول بالسيف عندما تطلب الأمر،يقول: [الطويل]

أحبّ النبـــــيّ المصطفى وابــن عمّه عليّـــا وسبطيـــــه وفاطمة الزهرا
هم أهــــــل بيت أذهب الرّجس عنهم وأطلـــعهم أفق الهــــدى أنجما زهرا

[1] ـ يوسف النبهاني ، **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**،3/ 39.
[2] ـ **نفســــــه** ، 39/3.

موالاتـــــــهم فرض علـــى كـــلّ مسلم وحبهـــــم أسنـــــــى الذخائر للأخرى
ومـــــا أنا للصحب الكـــــرام بمبغض فإنـــي أرى البغــــــضاء في حقهم كفرا
هـــــــم جاهدوا في الله حـــقّ جهاده وهـــــم نصروا دين الهدى بالظبا نصرا
عليــــــــهم ســـلام الله ما دام ذكرهم لدى المــــــلأ الأعلى وأكرم به ذكرا([1])

5ـ التوسل بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم :

لعلّ التوسّل بالنبيّ محمد يعدّ من مفردات المدائح النبويّة المهمّة؛لأنها الغاية التي من أجلها قام الشاعر بالمديح،ولم تكن البغية من وراء هذا التوسل تحقيق مكاسب ماديّة، أو دنيويّة، وإنما أرادوا طلب العفو، واستسماح الرسول كي يكون نعم العون يوم القيامة، لهذا لجأ أكثر الشعراء إلى التوسل بالنبي، ويعزى هذا إلى حاجة في نفس الشاعر يريد بثها، ربما لمعصية اقترفها،ويبغي تبرئة نفسه منها،لشعوره بعظم الذنب، أو ورثاء لأمّة يندب حظها، ويرثي لحالها.

وممن يصوّر بعض الملامح النفسيّة في قصيدة المديح النبوي ويختار التوسل عنوانا له، قول شرف الدّين الأنصاري في إحدى مدائحه النبويّة،حيث يصوّر حالته النفسيّة التي وصل إليها، ويطلب من الرسول أن يكون شفيعه، يقول: [الكامل]

أدعوك للـجـــــــــلى وتلك شفاعة لم تـــــــرض لـي أني أخـاف وأنت لي
إن لـــــــــم يكن عملي زكيّا فادع لي قطـــــع الفـــــــلا فتلذذي بتذللي
أحسن وأجمـــــــــل بــي لعلي أنني في الفعــل لم أحـــــسن ولمـا أجمل
وانظر إليّ بعـــــــــين عونك نظرة أهدى بهـا سنن الطـــــــريــق الأمثل
فلقد ضللت عــــــــن الرشاد وإنني بــك أستنير وأنـــــــــت هادي الضلل
وإليك مـن دون الأنـــــــام توجّهي وعليــك مــــــــــن بين الكرام معوّلي
ولقد أتيتـــــــــك مادحـــا لتجيزني في الحشر كاســــات الرّحيق السلسل([2])

[1] ـ فوزي الخطبا ، **شعر ابن جبير**،64.
[2] ـ شرف الدين الأنصاري ، **الديوان**، 563.

فالشاعر يبين مقصده من وراء مديح الرسول، فالنفس قد ضلت، وعمله ما عاد زكيّا، لذا أسرع إلى الرسول يطلب إحسانه وإجماله، ويضفي الشاعر نفحة صوفيّة من خلال تلذذه بالتذلل والانقياد والانصياع لأوامر الرسول أملا في العفو، فالرسول هادي الضلل، وهو كهف التائبين إلى الله، لهذا خصّ الشاعر الرسول باللجوء دون سواه، ورغبة من الشاعر في أن يشرب كأسا يوم القيامة من يد الرسول لا يظمأ بعدها أبدا.

على أنّ فتيان الشاغوري يلجأ إلى الرسول طالبا العفو والشفاعة كي يكسب من خلالهما نعيم الجنة، وظلها الوارف ، وهذا أقصى ما يتمناه الإنسان على ربّه يوم القيامة، ونراه عمقا إيمانيّا من خلال التركيز على الشهادة التي هي ركن الإسلام الأوّل ، يقول : [الطويل]

أؤمّـــــــــــل مـــن خير الأنام شفاعة بهـا في النعيـــــــــــــم بالجنان أخلد
فأنـــــــــــت رســول الله وهي شهادة أقـــرّ بهـــــــــا حتى المعاد وأشهد([1])

ويقف ابن الجوزي مخاطبا رسول الله ويطلب إليه مدّ يد العون يوم القيامة،فالغفران مقصد الركبان، و قد جاؤوا جميعا إلى جناب السلطان،عسى أن يدخلوا جنة الرضوان، يقول: [الخفيف]

يا رســــــــــول الله يـــا حبـيب الله أنـــت لي عـــــــــــونٌ يوم ألقى الله
رنا والرّكبــــــــــــان نحو ذا السّلطان نرتجي الغفران بجـــــــاه رسول الله([2])

ويرفض الزمخشريّ أن يكون مدحه للرسول صلّى الله عليه وسلّم أملا في تحقيق مطامع ماديّة، حتى لو كانت أموال البرامكة كلها ما عدلت شفاعة الرسول،لأنّ المال هالك مع الدنيا الهالكة، وقد ركز على صفة السّخاء التي كان يتميّز بها سيدنا محمد، يقول في الكافيّة: [الطويل]

إليك رســــــــــول الله جهزت مدحتي وإنـــك أسخى كـــــــــــلّ باق وهالك

[1] ـ فتيان الشاغوري، **الديوان**، 109.
[2] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**،92.

ألا إنّ أدنـــــــــــى رشحة من نداك لم   يقـــــــــاس إليها بحـــــر جود البرامك
وإني لفي أسخى الجـــــــــوائز طامع   فلا تـــــــــــك في وادي تخيّب تاركي
وجائزتي فاعطـــــــــــــف عليّ شفاعة   تنجّي إلى رضـــــــوان من يد مالك([1])

ويمثل ذلك التوسل ما ساقه عبد المحسن التنوخي، حيث يشيد الشاعر بشمائل الرسول التي لا يخيّب فيها رجاء من يرتجيه في الشفاعة، فزيارة الشاعر للقبر كفيلة بإقالة العثرة، وبمحو الوزر والزلة، يقول: [البسيط]

لعلّ وزري إذا مــــــا زرت قبـــرك أن   يـــــــروح وهـــــو بعفـــــو الله مشمول
عساك تسأل ربّ العـــــــــرش فيّ فما   يخيب مــــــــــن فيه ربّ العرش مسؤول
فقد تدنس عرضي بالذنـــــــوب عسى   أن يغتدي وهـــــــو بالغفران مغسول([2])

ومن الشعراء من مدح الرسول توسلا به لعلّ الله يشفيه من مرض أعياه، فقد وقف الصرصريّ طالبا البرء من عجزه، فقد عرف عنه بأنه كان أعمى، فهو قد ضاق ذرعا بعماه، ولا يستطيع تحمّل ما يلاقيه ليلا، فنراه يتوجّه إلى النبي لعله يطلب الشفاء له من ربّ العالمين،ويرد مثل هذا التوسل عند الشاعر في قصائد كثيرة، خاصّة تلك التي يبدي فيها عجزه عن الذهاب مع قوافل الحجّاج، فجسمه في العراق ولكن قلبه معلق بالحجاز يقول في رائيّته: [مخلع البسيط]

ومـــــــــا لـــــه غيركــــم إذا مـــا   ضـــاق بـــــــــــه الأمر من نصير
يا حجّـــــــــــــة الله في البرايـــا   على مطيـــــــــــــــــــع وذي نفور
عطفا علـــــــــــــى عاجــز ضعيـــف   معالـــــــــــــــــــج نفثة الصّدور
قد ضــــــــــــــاق ذرعا بما يلاقي   في الليل منـــــــــــــــها وفي البكور
فســــــــــل لـــــه رحمــــــة ليشفى   من ربّـــــــــك الـــــواحد الكبير ([3])

[1] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره**، 21/2.
[2] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبوية**، 36/3.
[3] ـ الصرصريّ ، **الديوان**، 210.

وفي موطن آخر يتوسل الشاعر بالرسول ليشكو إليه نوائب الدهر، فضيق الأحوال المعيشيّة مثل الغلاء، والهجمات المتكررة من قبل الأعداء، والخوف والفرقة ، وانتشار الخبث والخيانة كل هذه عوامل دفعت الصرصريّ إلى التوسل، يقول الشاعر في الصّادية :[الطويل]

أغثني فإني فـــي زمـــــــــان خطوبه لها بيـــــن أحناء الرّجال كصيص ([1])
غلاء وخـــوف واختــــــــلاف ومطعم خبيث وقــــــرن خائنون شصوص([2])
وكيف نجاة المرء والحــــــــال هذه إذا لـــم يكــــن منها إليك مغيص ([3])

ومن خلال ما سبق تطالعنا توسلات المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيّوبي، أنّ الشعراء قد ضمّنوها لمدائحهم لغايات(هموم فرديّة، وهموم جماعيّة) منها ما هو نفسي على نطاق الفرد، حيث يعبّر الشاعر عن أوجاع أو عيوب، أو نقص، لهذا يلجأ إلى التوسل ، ومنها ما يخدم الجماعة من خلال حمل الشاعر لهموم المسلمين، أو نقدا للمجتمع يبغي من ورائه إصلاحه، وفيها دعوى مبطنة إلى التزام بالهدي النبوي، كلّ ذلك ساقه الشعراء في مواقع مختلفة من قصائد المديح النبوي، وجاءت تتراوح بين بيت شعري لتصل إلى سبعة أبيات وقد تزيد .

6ـ التغني بقبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، والحنين إليه:

ومن المفردات المهمّة التي ظهرت في هذين العصرين في قصيدة المديح النبوي، ظاهرة التغني بذلك القبر الذي يحتل مكانة بارزة،وخصوصيّة قلّ نظيرها عند المسلمين عامّة ، وعند شعراء المديح النبوي على وجه الخصوص،والحقيقة أنّ الخاصيّة التي نالها تعود لمن حوى وضمّ، فهو حوى عظيم الأمّة، ورجلا قلما جادت به الإنسانيّة والبشرية،فهو الرسول والقائد، وهو من أرسى دعائم الإسلام ،وجاء بدين الله، دين البشرية جمعاء، لذلك هو خير من حضنته غبراء.

[1] الكصيص: الرّعدة. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**. 854/1.(كيص)
[2] ـ شصوص: لصوص ،جدبة .الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**. 844/1.(شصص)
[3] ـ الصرصريّ، **الديوان**، 258. مغيص: محيص.هكذا في الديوان، ووجع في المعدة. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،856/1.(مغص)

وقدوم الشعراء إلى قبر الرسول والوقوف بين يديه، وهو مدفون لم يأت من فراغ ، وإنما أتى امتثالا للآية القرآنية (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيما)([1]).

وقد أورد ابن كثير ضمن تفسيره لتلك الآية بيتين من الشعر، يستشفع فيهما أعرابي عندما وقف على قبر الرسول وسلم عليه، فقد جاءه مستغفرا لذنبه، و مستشفعا به ربّه، وقال: [البسيط]

يا خيـــــــــــر من دفنت بالقاع أعظمه فطـــــــــــــاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسي الفــــــــــــداء لقبر أنت ساكنـــه فيه العفــــــــــــاف وفيه الجود والكرم

وأورد ابن كثير على لسان العتبي قال: كنت جالسا عند قبر النبي فجاء الأعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله، وقرأ الآية (ولو أنهم إذ ظلموا) وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي، وأنشد البيتين السابقين، ثمّ انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي في النوم، فقال: " يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره أنّ الله قد غفر له"([2]) .

وتناول شعراء العصرين الزنكي والأيّوبي قبر الرسول في مدائحهم النبوية بشيء من الخصوصيّة، لذا وصفوه بأوضح وأرقى الأوصاف ، واستخدموا مترادفات كلمة القبر مثل الضريح، واللحد والجدث.

فقد قام شرف الدين الأنصاري بوصف الرحلة التي قطعت حيث المشقة والعناء في الوصول إلى قبر الرسول أملا في الصلاة بجواره، وطمعا بنيل شفاعته، وكل ذلك جرى في جوّ يملؤه الغبطة والمحبّة، وقد استعمل كلمة الضريح يقول في داليّته:
[مخلع البسيط]
وكم قطعنــــــا إلـــــــــــى ذراه مــــن مهمـــه مــــوحـــش وفــدفد([3])

---
[1] ـ سورة النساء، آية 64.
[2] ـ ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم**، 519/1-520.
[3] ـــ الفدفد: الفلاة والمكان الصلب الغليظ، والمرتفع، والأرض المستوية. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 443/1. (فأد) .

حتى وفدنـــــا إلـــــى ضريح جنــابـــه للوفــــــــــود مشهد
لذنا إليــــــه بـــــه محبّين طورا وتـــــــــارة ركعــــــا وسجّد
نأمل فــــــي ظلــــــه إذا ما أبــــــرق مـــــن كادنا وأرعد([1])

وقد أفاض عبد المحسن التنوخي بالحديث عن قبر الرسول، فالمدينة طابت بوجود القبر الذي حوى صاحب الفضل، وحوى القبر كذلك نور محمد يخرج منه ليرى من مسافة بعيدة فيذهل مما رأى، وحوى القبر صاحب الهداية التي لولاها لضلّ أغلب الناس، وحوى صاحب الشفاعة التي يتمناها المسلم والكافر،فالقبر نال هذا التشريف بفضل من استقرّ به، وكذلك المدينة، يقول: [البسيط]

يا طيـــــب طبت بقبر فيـــك ساكنه لــــه علـــى كـــلّ خلق الله تفضيل
قبر به النـــــــور لا تخـــبو أشعته رائـــــي سنـــاه مـــن الأنوار مذهول
قبر لــــــــه حلّ بيتا حـــلّ فيـــه رضا مـــن الإلــــــه وتكـــريم وتبجيل
فيه النبيّ الـــــــــذي لـــــولا نبوته لمـــا اقتفى الرشد قبـــل اليوم هابيل
فيه النبيّ الـذي لـــــــــــولا هدايته لمـــا انجلى عن ذوي التضليل تضليل
فيه النبيّ الـذي لـــــــــــولا شفاعته مـــا فُـكّ من ربقـة العصيـــان مغلول([2])

وقـد كنـت أوردت بعضـا مـن هـذه الأبيـات في معـرض الحـديث عـن الحقيقـة المحمديّـة،التي تجلّت بوضوح ،وبينما نرى بأنّ المسك يحسد تراب القبر لشرف ما يحوي ، فإنّك إن أتيته سيقابلك الجود ،والكرم، وكلّ فضل، ومعروف وعزّ وسؤدد، يقول فتيان الشاغوري: [الطويل]

وذاك ضريـــــــح يحسد المسك تـــربه وكلّ شريـــــــــف القدر لا شكّ يحسد
به حلّ كـــــــلّ الجود والمجد والندى وفضـــــل ومعــــــــــروف وعزّ وسؤدد

ويبلغ الغاية في التشوّق المتجدّد والدائم لذلك القبر ، والحجرة البيضاء التي حوت الخير الذي يقصده الإنسان في الدّارين، يقول من القصيدة نفسها :

---

[1] ـ شرف الدين الأنصاري، **الديوان**،150.
[2] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 36.

وإني لذو شـــــوق إليك مضاعــف بواعثـــه لا تأتـــــلي تتـجدّد
إلــــى الحجرة البيضاء والجدث الذي بــه الخير في الدّارين يرجى ويقصد ([1])

ويتساءل الصرصريّ إذا كان بإمكانه زيارة قبر النبيّ ، و رؤية ذلك الضريح بناظره، هيهات له ذلك فقد كان كفيفا، ولكنه يتمنى على الله ذلك كي يغسل ذنوبه، فطوبى لمن زار النبيّ قبل موته ، وطوبى لمن زاره أملا في وصول إلى مأربه من خلال نيل شفاعته ، يقول: [الطويل]
فطوبــى لعبــــد زاره قبل موته ونــال الـــذي يرجوه من ذلك القبر
ترى هـــل أرى ذاك الضّريح بناظري وأغســـل أوزاري فقد أثقلت ظهري([2])

7ـ العناية بمظاهر الطبيعة :

لا شكّ في أنّ الطبيعة بما حوت من مظاهر تعجز الألسنة عن وصفها، وتقف الأقلام إجلالا واحتراما لها، نظرا لجماليات الإعجاز الرباني الذي ظهر فيها ، ولأنّ ورودها هنا في المدائح النبوية لم يأت صدفة؛ وإنما للتدليل على قدرة من أبدعها حيث العبرة لأولي الألباب من جهة ، وردعا لأولئك المخالفين والطاعنين والشاكين من جهة أخرى.
وبذلك فموضوع الحديث عن مظاهر الطبيعة في الشعر العربي ليس بجديد، وإنما هو قديم جديد، فقد تحدّث الشعراء عن البدر ، وشبّهوا الرسول به، وصحابته بالنجوم الطالعات،وكذلك شبّهوا الإسلام بالظلّ الممتدّ وفي هذا يقول الزمخشري:
وما كان البـــــدر تحتــفّ حوله صحابـــة صــدق كالنجوم الشوابك
إلـــــى أن دجا الإسلام وامتدّ ظله وعضّ على إبهامــــه كلّ آفك ([3])

ويكثر ذكر مظاهر الطبيعة في المدائح النبوية عندما يتغزل الشعراء بالمحبوبة، فالليل يشبه شعر المحبوبة، وهو من التشبيهات المقلوبة الغريبة، ويتغنى الشعراء بالأشجار،والورد

[1] ـ فتيان الشاغوري، **الديوان**، 109-110.
[2] ـ الصرصريّ ، **الديوان**، 197.
[3] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره**، 20/2.

كالأقحوان ، وطير الكرى، والنسيم الذي يحمل الروائح الشذية، يقول عبد المحسن التنوخي: [البسيط]

يا ليـــل أشبـه ليلى في ذوائبـــها   منـــك اثنتان سواد اللـــون والطول
كأنه أقحـــوان الـحـــزن عاوده   في الليـــل طلّ فأضحى وهو مصقول
كأنما ريقها غـــبّ الكـــرى ضرب   لمجتبيه بمـــاء الـــورد محلول
لأركبنّ ظهـــور العيـــس يحمـــلها   شوق كحاملـــها بالشـــوق محمول
قفرا خلت من دواعـــي الأنس ليس بها   للطلـــح شـــرب ولا للطير مأكول ([1])

فانظر كيف وظف العسل المستخرج من خليته، وربطه بريق محبوبته، فسال كماء الورد، ثمّ يذهب للعيس التي قطعت القفار وتحملت المشاق وصولا للرسول، مع العلم بأنّ القفار خالية من كلّ أسباب العيش .

وعند وصفه للمسلمين وحديثه عن بطولاتهم وتضحياتهم، فقد وصفهم بالجبال الراسيات،وهم بحر الجود وعطاياهم كثيرة، وهي كالمطر تنزل على الآخرين،وإذا ما نزلوا إلى ميدان المعركة فهم يكرّون على أعدائهم كالأسود، يقول:

إذا احتبوا فهـــم الأطـــواد راسية   وإن حبـــوا فهـــم الدّأماء والنيل([2])
وهم غيوث لهـــم أموالـــهم مطر   وهم ليـــوث لهـــم سمر القنا غيل ([3])

وتشيع أوصاف الطبيعة عند شرف الدين الأنصاري، خاصـــة عندما يمدح الصحابة رضوان الله عليهم فهو يشخصهم ويرى جمال هديهم، ويشيع الحركة في هذا الوصف، ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة عند غيره من شعراء المديح النبوي،يقول: [البسيط]

نعم الهـــداة هـــم في كلّ مظلمة   كأنّ أوجههم فيهـــا قناديـــل
هيـــم إلـــى وردهـــا لا يستفزهم   صـــاف بأبطح أضحى وهو مشمول

---

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**، 32/3-33.
[2] ـ الدأماء: البحر.الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**،459/1.(مأد)
[3] ـ **يوسف النبهاني، المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 38/3. الغيل : مأوى الأسد. الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، 1374/2.(غيل)

وكــــم بدا منهــــــــــم بدر بكلّ وغى   كأنّ ضـــــــاحيه بالشمس مهلـــــول ([1])

وظهرت مظاهر الطبيعة بشكل لافت في مدحة ابن قزل عندما وصف النار الحجازيّة، فشررها كالبرق، ولها صوت كصوت الرّعد عند قصفه،وقد تغيّر لون الشمس فأصبحت كالليل في سواده،أمّا القمر فإنه لم يبد كعادته للرائي، وغابت النجوم قبل أوانها، وتصاعد الدّخان منها، ووصف شدّة حرارتها حيث ذبلت الأشجار العالية، ولهولها تزلزلت الأرض، يقول: [الكامل]

لها شرر كالـــــبرق لكـــــــــــن شهيقها   كالــــرعد عنـــــد السامـــــــع المتأمل

وأصبح وجــه الشمس كالليــــــل كاسفا   وبدر الدجـــــــى في ظلمة ليس تنجلي

وغابت نجـــوم الليل قبـــــــل غروبها   وكدّرهـــا دور الدّخـــــــــان المسلسل

وهبّت سمـــــــــوم كالـــحميم فأذبلت   من الباسقات الشـــــتمّ كــــــل مذلل([2])

والصرصريّ من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة، وبلغ الاتصال في أغلب مدائحه النبوية، وتظهر الطبيعة عنده في معرض وصف النبي، والحديث عن نبوته، يقول في قصيدته الرائية: [الكامل]

أبقى بسنتـــــــــه طريقــــــا واضحــــا   رحبــــا ســــــــــواء ليلــــــه ونهاره

يمحو سنا الشـــــمس الكسوف وينقص الـ   قمــــــــــــــر المــحاق ويعتليه سراره

وشموس شرعـــــة دينـــــــــــه محروسة   من حـــــــــادث يمحو الضياء غباره ([3])

فسنته واضحة عبّدت الطريق وبها أصبحت واضحة كما الليل والنهار،وهذا يدلّ على مدى تأثر المسلمين بهدي الرسول، وسيرهم على الطريق الذي اختطه ورسمه لهم، والرسول بنوره المشع غطى على الشمس والقمر، وغلب عتمة الليل، وهذه الشموس المتناثرة محروسة من حوادث الأيام.

---

[1] ـ شرف الدين الأنصاري ، **الديوان** ، 394.
[2] ـ ابن قزل ، **الديوان** ، 337.
[3] ـ الصرصريّ ، **الديوان** ، 140.

ومن الشعراء الذين مالوا إلى وصف الطبيعة ابن الساعاتي، ولا ريب في ذلك نظرا لأنّ الشاعر قد تعلق بدمشق، فقد وصف الرّياض وما فيها من أشجار وزهور وظلال ونسائم، وكذلك وصف المظاهر الجويّة من برق وسحاب وشمس ونجم، فهو شاعر دمشق وخمائلها وبلابلها وكلّ جزء من أجزائها، وهو صورتها الواضحة ومرآتها الصّافية، ولسانها البليغ ولحنها العذب ([1]).

ومن الطبيعي أن يتطرّق ابن الساعاتي إلى الطبيعة في مدحته النبويّة، فقد ذكر المظاهر الجويّة من شمس وقمر، وكذلك المظاهر الطبيعيّة من أنهار وجنان، يقول:

لولاه لم تـــــــــــك شمس لا ولا قمر   ولا الفرات وجـــــــــاراها و لا النيل
له تزخرف أفنـــــــــــــاء الجنان وعن   رضوانه حــلّ منها العرض والطول ([2])

وتبقى الطبيعة من السمات التي وسمت بها المدائح النبوية في العصرين الزنكي والأيوبي، إذ أنّ أغلب الشعراء تحدّثوا عن مظاهرها بشقيها، الطبيعة الحيّة، في معرض حديثهم عن الحيوان، والطيور، والنبات، وفي تلك المظاهر الأخرى من وصف للشمس و القمر والنجوم وليل ونهار ، كما يظهر الشعراء متعة عند حديثهم عن الطبيعة التي أبدعها الخالق، وشاهدها الرسول، ونظر إليها بعينيه، ودعا البشرية إلى التفكر بها ، وبعظمتها لتقود الناس إلى التفكير بمن أبدعها.

8ـ التحذير من العدوان :

لقد كانت المدائح النبويّة عبارة عن منابر يتخذها الشعراء للتعبير عن عمّا يجول بخاطرهم، فتجد منهم من يبثّ شكواه من ألم ألمّ به، ومنهم من يطلب العفو لذنب اقترفه، أو يستشفع لمصيبة حلت، طبيعيّة كانت أو من صنع الإنسان، وعندما بدأ أعداء الإنسانيّة من أبناء الصّليب أو التتر يتحيّنون الفرصة تلو الأخرى للانقضاض على

---

[1] ـ شفيق جبري، **شعر ابن الساعاتي**، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، جزء 11- 12. 1943.
[2] ـ ابن الساعاتي، **الديوان**، 48.

المسلمين، والنيل منهم ومن دولتهم، فإننا نجد أمام ذلك الوضع الرّهيب من ينصّب نفسه للدفاع باللسان عن الحمى، أو يحرّض المسلمين على الوقوف في وجه تلك الاعتداءات أو التحرّكات ، وبذلك ضمّن الشعراء مدائحهم النبويّة التنبيهات من الأخطار، وفيها دعوة صريحة للجهاد، والقتال من أجل درء أخطار الصليب والتتار، ومن الشعراء الذين استنجدوا بالرّسول الصّرصريّ ، يقول : [الخفيف]

ويريـــــــــــد الكفارُ محوَ سناه   دونَ ما حـــــــــــاولوه ضربَ الحسامِ
فأعنّـــــــا عليهـــــــــــــم وأغثنا   غوثَ نصـــــــــــرٍ على الطغاةِ اللئامِ
سل لنـــــــــــــا الله ذا المعارج نصرا   دائـــــــــــــرا فيهمُ بكاسِ الحِمامِ
وثباتا كيـــــــــــــــــوم بدر لأقدام   جنـــــــــودٍ لنـــــــا ذوي إقدام
قل إلهــــــــــــــــي ثبّت قلوب رجال   عـــــــن حريم الإسلام أضحت تحامي
واقـــــــــذف الرُّعب في قلوب عِداهم   وارمِهـــــــــــــــم بالشّتات بعد التِئامِ
فلقد أرعبـــــــــــــــــوا قلوب البرايا   فتجـــــافى الجفونَ طيبُ المنامِ (1)

فالشاعر يحذر المسلمين من خطر قادم ، يريد اجتثاث الحقّ، ومحو دولة الإسلام، فيدعو الله ويتوجّه إليه كي يخلص المسلمين من ذلك الخطر الدّاهم، ويمني نفسه بأن تكون الدائرة على المعتدين، ليصيبهم ما أصاب الكفار ببدر ، ولتكون الغلبة عندها لأمّة الإسلام ، ويحيق الخذلان بالكفر والأعوان.

والقصائد التي يستشرف فيها الصرصريّ ذلك الخطر الداهم كثيرة ومتعدّدة، يحاول فيها أن يبثّ العزيمة في نفوس المسلمين، ويستذكر بطولاتهم في شتى الميادين، يقول في قصيدة أخرى :[الكامل]

جاءت بعصبتـــــــــها الطغاة تروم من   دار الخـــــــــــــــلافة خطة تستشنع
فدنوا فصفـــــــــــوا شرّ جيش ضلالة   بـــــــــإزاء جيــــــش بالهدى يتدرّع
وعووا عواء الكلــــــب فوق سروجهم   وهـــــــــــــــــم أحقّ بوصفه ليروّعوا
ســـــــــــــل جبر أمتك الكسيرة إنه   لـــــــــم يبـــــق قوس التجلد منزع (2)

---

1 - الصّرصريّ ، **الديوان** ، 506- 507.
2 - نفســـــــه ، 278-279.

بمثل تلك العبارات التحريضيّة نهج الصرصريّ، وبمثل ذلك القلب الذي يتفطر وجعا، خطّ طريقا للتوسل والشفاعة من الله أوّلا ومن الرّسول ثانيا، ولا ينفكّ عن ذلك في قصائد كثيرة ، حملت عواطف متوهّجة ومتأجّجة حبّا للمسلمين، وحقدا على الكافرين، وأملا بالنصر من ربّ العالمين .

***ثالثا:* الخاتمة:**

مثلما أولى النقاد مطالع القصائد اهتماما بالغا، كذلك فعلوا مع خواتيم القصائد، فقد دعوا إلى الاعتناء بها؛لأنها آخر ما يبقى منها في السّمع، فإن حسنت الخاتمة حسن الحكم على القصيدة،وإن قبحت قبحت القصيدة،وهي القفلة مثلما أوّل الشعر مفتاحه([1]).

ومن النقاد من دعا إلى الاحتراز في الخاتمة، فقد وضعوا شروطا خاصّة،إذ يجب أن تتضمن حكمة بالغة، أو مثلا سائرا، أو تشبيها مليحا ([2])،ومنهم من أوجب الاحتراز من وقوع الألفاظ الكريهة،أو تلك المعاني المنفرة،لأنّ ذلك يؤثر سلبا على إحسان القصيدة المتقدّم ([3]).

إضافة إلى ما سبق من صفات الخاتمة، فقد أورد يوسف حسين بكار صفة مهمّة وهي أن تحتوي أجمل بيت في القصيدة، واستشهد ببيت ابن الزبعرى عندما وقف معتذرا بين يدي الرسول، حيث يقول: [الكامل]

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت   واقبل تضرع مستضيف تائب

ومن تلك الصفات الخواتم الحسنة الأخرى التي أوردها وأوردها القدماء، وطلبوا إلى الشعراء بضرورة الالتزام بها، أن يكون تشبيها حسنا.([4])

---

[1] - ينظر ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**،210/1.
[2] - ينظر أبو هلال العسكري، **الصناعتين**،502.
[3] - حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء**، 285.
[4] - ينظر **بناء القصيدة في النقد العربي القديم(في ضوء النقد الحديث)**،229-230.

وإذا كانت جلّ القصائد التي نتناولها في العصرين الزنكي والأيوبي موجّهة إلى شخص النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ومدحه، فإننا نشاهد أنّ الشعراء أظهروا حرصهم على تحسين خواتم مدائحهم النبوية، فأغلب قصائد المديح النبوي في العصرين ركزت على خاتمة تكاد تكون هي السمة الغالبة للقصائد حتى غدت نهجا يتبع ، وهي الصلاة والسلام على النبيّ المختار، فأغلب الشعراء أوردوها ضمن قصائدهم.

ومن الشعراء الذين ختموا مدائحهم بالصلاة على النبيّ المختار ابن الجوزي، وجاءت دعوة صريحة من الشاعر إلى دوام الصلاة على النبيّ،فالله يصلي عليه من فوق سبع سماوات،وعلى البشر أن يفعلوا ذلك صباحا ومساء، وجاء ذلك في بيت واحد يقول: [الكامل]

صلـــــــــــى عليه الله في السَّبع العُـــلا أبـَــــدَا ومَـــا عَقَبَ الصّباح مَسَاءُ([1])

ويبدي الصرصري في أغلب خواتم قصائده النبوية تذللا وتضرعا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، طالبا منه الشفاعة والعفو، ويطلب كذلك إلى الرسول أن يسأل له الخلاص في الآخرة ، فالرسول صلّى الله عليه وسلّم خير مبعوث ، وخير ناصح، يقول: [البسيط]

محمد خيـــــر مبعـــــوثٍ بمرحمـــــةٍ وجاهُـــــــهُ الغمـــــرُ للراجين مبذولُ
فاشفع لي الآن في إطــــلاق نفسي من وثاقهـــــا فقرينُ النّفـــــــسِ مكبولُ
وفي المعاد فسل حســـــن الخلاص لها إذ كـــــــــلّ عبـــــد بما يعنيه مشغولُ
عليك أزكى صــــــــلاة الله باقيـــةً بقـــــــاءَ دارِ إليهـــــا أنتَ منقولُ ([2])

وفي مواضع أخرى نجد الصرصريّ يعكف على ختم قصائده بالتغني بالأماكن الحجازية، حيث يدعو لها بالسقاء من ربّ السماء، ويظهر قدرا كبيرا من تعلقه بها، ويدعو الله أن يرعاها، يقول في ميميته: [الوافر]

فهـــــــــل بالقبـــاب قبـــاب سلع طـــــــراز الملـــــــك واسطه النّظامِ
رياضِ الأنـــــــسِ مجتمعِ الأماني مقيـــــــل مـــــــــن عكوفٍ أو لمامِ

---

[1] - صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**، 98.
[2] - الصرصري ، **الديوان** ، 401-402.

فعذب شرابهــــــا يـــروي غليلي ... وبـــــــــرد ظلالـــــــها يشفي سقامي
تمازج حبهــــــــا بدمي ولحمي ... ومخــــــــي ثـــــــمّ خيّم في عظامي
رعاهـــــــــا الله ثـــمّ سقى ربـاها ... غمائم بالــــــرضى فيــــها هوامي ([1])

ويختم ابن قزل(علي بن المشد) مدحته بالتغني بمدينة طيبة ، حيث يتضوّع المسك منها،ويعبق شذاها جنوبا وشمالا، كلّ ذلك جاء لفضيلة عظيمة ، وفي تذكرها تذكر للحبيب محمد،فقد سكنها ودفن بها، وهو مأمول، وهو نعم الموئل، فعليه الصلاة والسلام، يقول: [الطويل]

فيا راحــــــلا عـــــن طيبــة إنّ طيبة ... هـــــي الغايــــــة القصوى لكـل مؤمّل
قفا نبك ذكـــــــــراها فإنّ الذي بها ... أجلّ حبيــــــــب وهـــــي أشـرف منزل
دخلت إليهـــــــــا محــرما وملبّيا ... وأضربــــــــت عن سقط الدّخول فحومل
مواقف أمّا تربهـــــــــا فهـــي عنبر ... وأمّا كلاهـــــــا فـــــهو نبت القـــرنفل
يضــــــوع شذاها ثـــمّ يعقب نشرها ... لمـــا نسجتها مـــــــــن جنـوب وشمأل
فيا خيــــر مبعـــــوث وأكرم شافع ... وأنجـــح مأمــــــــول وأفضــل موئل
عليـــــك سلام الله بعـــــــد صلاته ... كمـــا شـــــفع المسك الفتيق بمندل([2])

ويختار الزمخشري مدح الفئة المؤمنة التي ناصرت الرسول خاتمة لمدحته،ويهاجم فيها الفرق الضالة الزائلة،ويعقد موازنة بين الفئتين الموحدة المتمسكة بالتقوى والأخرى العاصية، يقول: [الطويل]

موحّدون إلهـــا أنـــــــــت صفوته ... مصـــــــــــــدّقوك فـــــلا غالتهم غول
إن زال عن رمـــي أغراض الهدى فرق ... تلهـــــــــــــو مضللة قالـــــت لهم زولوا
فقوس قومي بالـــــــــتقـوى موترة ... وسهمهم باتبـــاع الحــــــــقّ منصول([3])

---

[1] ـ المصدر السّابق،502.
[2] ـ ابن قزل، **الديوان**، 338.
[3] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره**، 266/2.

ومن الشعراء الذين درجوا على ختم مدائحهم النبوية بذكر أسمائهم السخاوي والصّرصريّ وابن الجوزي،فهذا السخاوي يتوجّه إلى الرسول في معرض طلب الشفاعة لنفسه وللسامعين، وللمنشد، يقول :[الكامل]

يا ذا الجلال ارحم بحقّ المصطفى الـ عبد الفقيـــــــــــــر المستجيـــر المحرما
وامنن عليـــــه بتوبـــــة تمحو بـــها مـــــــــــــا كان منـــــه وما جناه وقدّما
واغـــفر لمنشدهـــــــا عليّ ذنـــبه واغفـــــــــــــر لمنشدهـــا علي وارحما
فبمدح أحمـــــد يرجـــوان شفاعـــــة ذا منشـــــــــــــدا فرحــــا وذاك منظما
واغفر لمستمتع دعـــــــا لهمـــــا فما أجـــــــــدى دعـــاء المسلمين وأكرما ([1])

ويطلب فتيان الشاغوري من زوار قبر الرسول أن يبلغوه سلامه، فالشاعر صبّ وفيه لوعة واشتياق إلى من ضمّ القبر، فالنار متأججة في صدره، ولن يبرد إلا إذا تمكن من زيارته وطلب شفاعته ليرد الحوض بصحبة الرسول، يقول: [الطويل]

ألا أيّهـــــــــــــــا الزوّار بالله بلغــوا ســــــــــلامي إليـــــــه وارفقوا وتأيّدوا
وقولـــــــــــوا لـــه فتيان يشكو صبابـة إليــــــــك ووجـــــــــــدا حرّه ليس يبرد
يرجّـــــــــــــــي غــــــدا تبريد غلته إذا شغفت لـــــــه في الحشر والحوض مورد([2])

ويعرب ابن الأخوة عن تقصيره في ثنائه على الرسول، فالثناء قاصر ولا يرقى إلى مستوى الرسول، يقول بعد الصلاة عليه :

صلى عليـــــــــــــــه الله ما هبّت صبا أو جـــــــــــنّ ليـل أو بدا وضح الضحى
هذا ثنائي وهـــــــــــــــو دون محله مـــــــــــن ذا ينـــال بكفه بدر الدّجى ([3])

---

[1] - ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، 26/5.
[2] - فتيان الشاغوري، **الديوان**، 110.
[3] - ناظم رشيد، **المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة**،101.

ويقف ملك النحاة عاجزا أمام حضرة الرسول، فثناؤه المرسل إلى الرسول لا يعتريه الكذب والزيف والانتحال، يقول في ختام مدحته: [البسيط]

أتتـــــك غـرّ قوافي المـــدح خاضعة لديك فاقبـــــــــــل ثناء غير منتحل
ثناء مـــــن لـــم يجد وجناء تحمله إليـك أو صــــــــــدّ بالإقتـار عن جمل
صلى عليك إلـــــــــه العرش مشتملا علـــيك يـــا خيــــر حاف ومنتعل ([1])

وبذلك نلحظ أنّ أغلب خواتم قصائد المديح النبوي قد سارت على مبدأ واحد، لم يحد عنه أغلب شعراء الزنكيين والأيوبيين ، حيث قام أصحابها فيها بالتوجّه بالدعاء، وطلب الشفاعة، وطلب التوبة من الرسول ، كي يكونوا رفقاء له يوم القيامة، ويحظوا بالقبول من ربّ العالمين.

[1] ـ كمال الدين بن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**،5/ 2393.

الفصل الثالث:

أثر قصائد المديح النبوي في العصرين الزّنكي والأيوبي في العصور اللاحقة

لا شكّ في أنّ الشعر العربيّ متجدّد في أطواره، لذا لا ينفصم في عراه، وشعر المدائح النبويّة جزء لا يتجزّأ من الشعر العربيّ، فقد تأثر الشعراء عبر العصور بامرئ القيس مثلا، ونلاحظ ذلك التأثر بتضمين أشطر شعرية مثلما صنع ابن قزل في مدحته النبوية، وكذا الشأن عند بقيّة شعراء المديح النبوي، فإننا نجد أنّ شعراء العصرين الزنكي والأيّوبي قد تركوا بصماتهم على فنّ المديح النبوي، وكان هذا بمثابة الدافع للشعراء الذين ورثوا فنهم إلى التأثر بهم ومجاراتهم، وتضمين أشطارهم وأبياتهم،خاصّة أننا عرفنا أنّ تينك العصرين شهدا تكامل عناصر المدحة النبويّة .

إذا ليس من الغريب أن نرى تأجج المعارضات، والتشطيرات، والتخميسات، والبديعيات، وما إلى ذلك من فنون ظهرت وتألق فيها أصحابها ، فقد برز البوصيري في الحقبة التي تلت العصرين، وظهر شعراء آخرون لا يقلون في مدائحهم النبويّة عن تلك الدرجة التي وصل إليها الزمخشريّ، والسخاوي، والصّرصريّ وغيرهم ممن سبق وأبدع، وظلّ امتداد التأثر حتى وصل إلى العصر الحديث، ليطالعنا البارودي، وشوقي، والبردّوني، ومحمد التهامي، بتلك القصائد التي حملت في طيّاتها ما يحمل الإبداع والسير على نهج السلف من الشعراء الذين جادت قرائحهم بمدائح ظلت وستبقى أبد الدهر عنوانا للمدائح النبويّة.

وعندما نستعرض المدائح النبوية التي برزت وبدت متأثرة بما نظم في العصرين الزنكي والأيوبي، فإننا نجد أنّ العوامل التي ساهمت في كثرة المدائح النبوية في العصور اللاحقة تكاد لا تختلف كثيرا عن تلك العوامل التي دفعت شعراء الزنكيين والأيوبيين لنظم المدائح النبوية، حتى ليصل الأمر إلى أن تكون هي الأسباب نفسها، فكان التوسل بالرسول المخلص والشفيع يوم القيامة.

لذا سنقوم باستعراض تلك التأثيرات من النواحي المختلفة، سواء كانت من حيث المضمون، أو من ناحية الخصائص الفنيّة، ومدى تأثر اللاحقين من شعراء المدائح النبويّة بمن سبقهم خاصّة شعراء العصرين الزنكي والأيّوبيّ، وعليه سنحاول تسليط الضوء على مشاهير شعراء المديح النبويّ في العصر الملوكي وصولا إلى العصر الحديث.

البوصيري([1]) :

فعلى صعيد المقدّمات التي يفخر بها الشاعر ممجدا الذات الإلهية،ويعتذر إلى الرسول عن النار التي ظهرت في أرض الحجاز، ويثني على الله بالحمد العظيم، فالله نعم المانح، له الأمر من قبل ومن بعد، وحكمه ماض إلى يوم القيامة،أمّا الإنسان فلا حول له ولا قوّة أمام تلك القدرة والعظمة، ويتصدى الشاعر فيها بالرد على النصارى واليهود،وينبري فيها لمدح الرسول، يقول في داليته: [الطويل]

إلهـــــي على كلّ الأمـــــور لك الحمد فلـــــيس لما أوتيـــــــــت من نعم حدّ
لـــــك الأمر من قبـــــل الزمان وبعده ومالـــــك قبـــــــــلٌ كالزمان ولا بعد
وحكمـــــك مـــــاض في الخلائق نافذ إذا شئـــــــــت أمرا ليس من كونه بد
تضل وتهـــدي مـــــن تشاء من الورى ومـــــا بيـــد الإنسان غيّ ولا رشد([2])

ويظهر مما سبق أنّ الشاعر قد عايش ظهور نار الحجاز، وتكاد تكون المعاني المستخدمة هي تلك التي استخدمها ابن قزل عندما وقف معظما الذات الإلهيّة، ومادحا الرسول، ولكن الاختلاف يظهر عند ردّ البوصيري على النصارى واليهود، حيث فند مزاعمهم.

ويبدو تأثر البوصيري بشعراء الزنكيين والأيوبيين كبيرا، فهو في بردته التي نظمها عندما أصابه الفالج، ويستشفع فيها بالرسول محمد، عله يبرأ من سقامه، وينال رضاه ، ويستدرّ عطفه وصولا إلى البغية، فقد ابتدأها بالنسيب، ثمّ يذهب إلى التحذير من هوى النفس البشرية، ليصل إلى مدح النبيّ المختار والحديث عن مولده ومعجزاته وجهاده ، ليختمها بالتوسل والمناجاة،وعندما ندقق النظر في تلك القصيدة نجد أنّ صاحبها قد صنعها على غرار قصيدة ابن الفارض الميميّة، ويظهر التشابه في المطلعين،يفتتح ابن الفارض قصيدته بقوله:[البسيط]

هل نـــــار ليــــــلى بدت ليلا بذي سلم أم بـــــارقُ لاح في الــــــــــزوراء فالعلم

---

[1] ـ هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، نسبته إلى بوصيرمن أعمال بني سويف بمصر، تثقف بثقافة عصره، فدرس القرآن،ودرس علوم العربية، اطلع على أسرار الصوفية، مدح الرسول بقصائد كثيرة، توفي سنة ستمائة وست وتسعين هجرية. ينظر ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،432/5.

[2] ـ البوصيري، **الديوان**، 61.

أرواح نعمـــــــــــــان هلا نسمة سحرا ومـــــــــــاء وجـــــرة هلا نهلة بفم([1])

بينما يقف البوصيري في بردته ـ وهي من الوزن نفسه، ويبدو التأثر واضحا في المطلع،حيث يتغنى الشاعر بأسماء البقاع ـ ليقول:

أمـــــــن تــــذكر جيران بـذي سلم مزجــت دمعـــــــا جرى من مقلة بدم

أم هبّــــــت الريـــح من تلقـاء كاظمة وأومض الـــبـرق في الظلماء من إضم([2])

و يتابع البوصيري تأثره بابن الفارض، وابن الفارض يلوم من يلومه في حبّه، وأنّ من يجرّب الحبّ لا يعرف اللوم والعتب، يقول:

يا لائمـــــــــــا لامني في حبّهم سفها كفّ المــــــلام فلو أحـــــــببت لم تلم

ويتابع البوصيري ابن الفارض ويجعل من اللوم قدرا، فإذا أصابك الشوق فلن توجّه اللوم أو العذل لأحد، والسبب واضح ويسير فأنت ممن وقع فيه،يقول:

يا لائمـــــــي في الهوى العذري معذرة منـــــــي إليــــــك ولو أنصفت لم تلم

ويبدو أنّ البوصيري كان متأثرا بالصوفيّة حتى النخاع، يظهر ذلك من خلال ظهور النفحات الصوفيّة، ففي مدحته النبويّة يتوجّه إلى الرسول متوسلا،ومن جهة أخرى يدلل على قدر من التأثر بكبار الصوفيين من أمثال ابن الفارض، مما دعاه إلى النظم على غرار شعره عن طريق إيراد معانيه في شعره.

وقصيدته الميميّة لاقت من الشهرة، والذيوع، والسيرورة بين الناس، ما لم تلاقه أيّ قصيدة أخرى نظمت في هذا المضمار، وهي أصبحت وحيا للشعراء الذين نظموا في هذا الباب ، أضف إلى ذلك عناية الشرّاح ، والمخمّسين ، والمسبّعين، والمعارضين، وما هذا إلا دليل على قدرة الشاعر على النظم، واختيار المفردات، لذلك عني بها الناس، ولو أخذنا بعين الاعتبار مدى تسابق الناس على حفظها، فكان كلّ من أصيب بعلة لجأ

---

[1] ـ حسن البوريني وعبد الغني النابلسي، **شرح ديوان ابن الفارض** ، 2/49-50.

[2] ـ البوصيري ، **الديوان**، 165-173.

إليها مردّدا عله يفوز بالصحة والعافية، وقد وضّح زكي مبارك أثرها في اللغة العربيّة، وعدّد أهمّ من شرحها وخمّسها وبيّن أهميتها.([1])

ومن جميل حديثه عن النبيّ وصحبه، حيث وصفه بأنه سيّد الكونين،ومن تمسّك بحبله فلن يخيب أمله وظنه، وهو من ترجى شفاعته، فقد فاق النبيين مكانة، يقول:

محمد سيّـــــــــــد الكونين والثقليـ ـن والفريقيـــــــن من عرب ومن عجم
نبيّنا الآمـــــر الناهــــــــي فلا أحد أبرّ فــــــي قـــــــول لا منه ولا نعم
هو الـحبيب الـــــــذي ترجى شفاعته لكـــــلّ هـــــول من الأهوال مقتحم
دعا إلـــى الله فالمستمســــــكون به مستمســــــــكون بحبـــــل غير منفصم
فاق النبيين في خلـــــــق وفي خلق ولـــــم يدانـــــوه في علم ولا كرم
وكلهم من رســـــــــول الله ملتمس غرفـــــا من البحر أو رشفا من الدّيم ([2])

ومن جماليّات القصيدة ورود التشبيهات، فقد حذّر الشاعر من هوى النفس، خاصّة تلك الأمّارة بالسّوء،إذ لا يجوز أن تترك النفس لهواها، وإنما يجب أن تكون تحت قياد صاحبها فكلّ نفس بما كسبت رهينة، يقول:

والنفس كالطفـــــــل إن تهمله شبّ على حبّ الـــــرضاع وإن تفطمــــه ينفطم([3])

وحوت القصيدة على عبارات حكميّة ،ضربت فيها الأمثال، وأصبحت جارية على ألسن الناس، نظرا لسهولة تداولها،ولما تحمل في مضامينها من إيجاز، يقول:

كــــــــم حسّنت لـــــــذة للمرء قاتــلة من حيـــث لـــم يدر أنّ السّمّ في الدّسم
واخـــــــش الدّسائس من جوع ومن شبع فربّ مخمصــــــة شـــــرّ من التخم ([4])

ومهما يكن من أمر فإنّ بردة البوصيري جاءت موافقة لروح العصر الذي وجدت فيه، فهي لا تخلو من التكلف ومن طغيان المحسّنات البديعيّة، ولكن يسجّل للبوصيري فيها

[1] - ينظر **المدائح النبويّة في الأدب العربي**، 142-150.
[2] - البوصيري، **الديوان** ، 167.
[3] - نفســــــــه ، 166.
[4] - نفســـــــــه ، 166.

أنّه كان صادق التعبير، أضف إلى ذلك أنّ المحسّنات والزخارف اللفظيّة كانت مقبولة، ولم يمجّها الذوق، وليس أدلّ على ذلك من شيوعها واهتمام الأدباء والعلماء بها، عربا كانوا أو غير عرب.

ويظهر تأثر البوصيري بمن سبقه من الشعراء ، خاصّة الصرصريّ ، الذي قضى أغلب حياته زمن الأيوبيين، فالصرصريّ ابتدأ معارضته لقصيدة كعب بن زهير قائلا: [البسيط]
إلـــى متى أنـــــــــا مشغوف ومشغول وكـــــــم لقلبي تســــــويف وتسويل([1])

وعندما وقف البوصيري معارضا كعبا،وقصيدته تلك أطلق عليها ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد، وقد نظمها بعد أن جاوز الأربعين من عمره،حيث تأثر في مطلع قصيدته بمطلع قصيدة الصرصريّ، وتأثر كذلك بالمعاني التي أوردها الصرصريّ، ولكنه وجّه الخطاب بلومه للإنسان، حيث يدعوه إلى ترك الملذات، والابتعاد عن الشهوات، وفيها دعوة صريحة إلى الزهد، بينما لا نرى الأمر نفسه في اللوم عند الصرصريّ الذي وجّه لومه لنفسه أولا لأنها أولى باللوم من غيرها، يقول البوصيري: (البسيط)
إلى متـــى أنـــــــــــت باللذات مشغول وأنـــــت عـــــــــــن كلّ ما قدّمت مسؤول
في كلّ يــــــوم ترجّي أن تتــــــوب غدا وعقـــــد عزمــــك بالتسويف محلول ([2])

و جعل عمر موسى باشا من هذا المطلع حوارا ذاتيا، أي جرّد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبــه([3]) ،ولكننــا نــرى أنّ الشــاعر قــد ســار علــى نمــط الصرصـريّ ، ولكنــه حــوّر المعنى،واستخدم التجريد.

وعندما وصف الصرصريّ القرآن الذي أنزل على محمد، فهو معجزته الكبرى، وعلى الإنسان أن يرتله ترتيلا،يقول:
هـــــــــــذا الذي رتــــــب القرآن مدحته فراقنــــــــــا منــــه ترتيب وترتيل([4])

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 394.
[2] ـ نفســــــــــه ، 151.
[3] ـ **تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي**،187.
[4] ـ الصرصريّ، **الديوان**، 395.

أخذ البوصيري هذا المعنى ووسعه، وأضاف إليه، فكلّ من يسمعه يهدى به يرشد، يقول:

يهدي إلى كـــــــــــــلّ رشد حين يبعثه   إلى المسامـــع تـــــرتيب وترتيل([1])

وعندما نعقد موازنة بين الصرصريّ والبوصيري نجد توافقا بين الاثنين، فترتيب القصائد النبويّة إلى حدّ ما واحد عند الاثنين،هذا ما دعا مخيمر صالح إلى القول:" يمكن القول باطمئنان، إنّ قصيدة المديح النبوي عبر تاريخها الطويل لم تنضج أو تكتمل مثلما نضجت واكتملت عند الصرصريّ والبوصيري، فلقد استوعبت مدائحهما جميع عناصر قصيدة المديح أتمّ استيعاب، واستوفتها أدقّ استيفاء، واكتملت التقاليد الفنيّة ووضحت أيّما وضوح" ([2])

ومن خلال قصيدة ذخر المعاد نجد أنّ البوصيري قد وقف منصّبا نفسه ليكون خير مدافع عن العقيدة الإسلاميّة الغرّاء ضدّ هجمات الأعداء، ومحاولة تعرضهم لها، والمساس بها، ولا غرابة في ذلك، فالشاعر صوفيّ بالدرجة الأولى، وطبيعة الزمن الذي عاشه ووجد فيه الشاعر قد حفل بهجمات متكرّرة يوجّه فيها اليهود والنصارى سهامهم للأمّة الإسلاميّة، وذلك من خلال سلسلة الطعونات للدين الحنيف، لذا انبرى الشاعر منافحا، بل محرّضا المسلمين على الوقوف صفا واحدا في وجه تلك المحاولات.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نعرّج على همزيّة البوصيري لما لها من أهميّة في هذا المجال، ولعلها تكون رتبة رفيعة يستحقها منشئها، وهي تدلّ على قدرة فنيّة بارعة، قلما تجد لها نظيرا، نظرا لطولها في بابها، إذ يبلغ طولها أربعمائة وسبعة وخمسون بيتا، يقول الشاعر في مطلعها: [الخفيف]

كيف تـــــرقى رقيّـــــــك الأنبياء   يا سمـــــاء مـــــــــــا طاولتها سماء

لـــم يســـــــــــاووك في عــــلاك وقد حا   ل سنـــــــــــا منـــــك دونهم وسناء

إنما مثلــــــــــــوا صفاتـــــك للنا   س سنـــــا مثل النجـــــوم الماء

---

[1] - المصدر السّابق ، 153.

[2] - المدائح النبويّة بين الصرصريّ والبوصيري، 211.

أنت مصبـــــــــاح كلّ فضل فما تصـ   در إلا عـــــــــن ضوئك الأضواء([1])

والشاعر ينهج نهج الصرصريّ في ترتيبها، فهو يبدأ بتعظيم النبي، ويتحدّث عن نسبه وحسبه، وولادته،ثمّ يذكر معجزاته، ويتحدّث عن المصاعب التي لقيها النبيّ في سبيل إرساء دعائم الإسلام ، وتوطيد أركانه، ويهاجم النصارى واليهود لعلهم يتعظون، ويعيّر اليهود لقتلهم الأنبياء، وينتقل للحديث عن رحلته مع الرّكب، وصولا إلى الرسول، ويتغنى بصحابة النبيّ وآل بيته، ويختتم بالتوسل والرّجاء أملا في العفو.

وفي معرض هجومه على اليهود ، يبيّن بعضا من صفاتهم، فهم من زاغ عن الحقّ، وكفر ببعثة النبيّ، وكذلك عبدوا العجل واستبدلوا الشرّ بالخير، هذا فضلا عن خبثهم، وخديعتهم، يقول:

لا تكــــــذّب إنّ اليهـــــود وقد زا   غوا عـــــــــن الحـــقّ معشر لؤماء
جحـــــــدوا المصطفى وآمن بالطا   غوت قـــوم هـــــــم عندهم شرفاء
قتلوا الأنبيــــــــــاء واتخذوا العجـ   ـل إلا إنـــــهم هـــــــم السفهاء
وسفيه من ســـــــاءه المـــنّ والسّلوى   وأرضـــــاه الفـــــــوم والقثاء
ملئت بالـــــخبيث منــــــهم بطون   فهي نـــــار طبـــــــاقها الأمعاء
لــــــو أريـــدوا في حال سبت بخير   كان سبتا لـــــــــديهم الأربعاء ([2])

ومن خلال الأبيات التي هاجم فيها الشاعر اليهود، يعدّد الشاعر ما عرف به اليهود من صفات قبيحة تدلّ على خبثهم وتعاليهم عن البشر، واستفاد الشاعر في ذلك من القرآن الكريم الذي هو أوّل من تصدى لذكر خصالهم ، وأبان ما حمله اليهود من خبث وحقد للمسلمين من جهة، ولعقيدتهم الغرّاء من جهة أخرى.

وتحاشيا للتطويل، قصرنا التمثيل والاستشهاد على مفردة واحدة من مفردات المدائح النبوية، وهي محاججة اليهود والنصارى والردّ عليهم، ولكنني أحببت إيراد ما قاله

[1] - البوصيري، **الديوان**، 9-37.
[2] - **نفســــه**، 22.

ياسين الأيوبي بشأن هذه القصيدة، " إنها عالم من المعاني والمناقب وأحداث التاريخ الإسلامي الأوّل، والعبر والأوصاف والأدعية و التمجيدات التي أسبغتها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وشخصيّته ومواطنه، على الشاعر فجعلته يغرق في بحر شمائله وآياته ويسكب ذلك شعرا رائقا دافقا لا تشوبه شائبة "([1]).

ابن دقيق العيد([2]):

نظم الشاعر مجموعة من القصائد يمدح فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم، إذ جعل من مدح الرسول غاية سلكها لتحقيق أمنيته التي لطالما حلم بها، وهي دخول الجنة فهي غاية ما يتمنى المسلم، ويقف الشاعر ليرسل مع الفتية أجمل التحيّة، إلى سيّد البريّة، من قلب اعترته الحسرة، وعين لا تفارقها الدمعة، يقول في التخميس: (الطويل)

ذروا في السّـــــــرى نحو الجناب الممنّع   لذيذ الكرى واجفـــوا له كلّ مضجع
واهدوا إذا جئتـــــــــــــم إلى خير مربع   تحيّة مضنى هائـــــم القلب موجع
سريع إلى داعـــــــي الصّبــــــابة طيّع
يقوم بأحـــــــــــكام الـــــــهوى ويقيمها   فكم ليلـــــــة قــــــد نازلته همومها
فسامــــــــــــرها حتى تولــــــت نجومها   لـــــه فكرة فيمن يحـــــبّ يديمها
وطــــــــــــــــرف إلى اللقيا كثير التطلع ([3])

فالشاعر عاشق و عليل وحبيبه وطبيبه الرسول،ولا ينفكّ الشاعر يمدح الرسول، ويبيّن ما لحقه من أذى، ولكنه ناضل وتحمّل، وكان مأوى لكلّ من أمّل، أشاد للعزّ والفخار مجدا لم يتحوّل، ومدحته هذه قريبة إلى النفس، سهلة في مبناها ومعناها، ابتعد صاحبها عن الغموض والتعقيد، سلك فيها مسلك السابقين في التغني بالديار الحجازيّة، وأتى تشوّقه موافقا لهم.

---

[1] ـ **آفاق الشعر العربيّ في العصر المملوكي**،119-120.

[2] ـ هو تقي الدين، محمد بن علي بن وهب القشيري المنفلوطي المصري، درس على أبيه العلوم الشرعيّة والعربيّة، درس في مدارس عديدة كالفاضليّة والكامليّة والصّالحيّة، شغل منصب القضاء في عصره مما مكنه من الاتصال بكبار رجالات الدولة،توفي سنة سبعمائة واثنتين هجرية. ينظر ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في المائة الثامنة**،4/91-96.وابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**،3/442-450.والزركلي،**الأعلام**،6/283.

[3] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 4/276-279.

وفي قصيدة أخرى نراه يقف ممجدّا الرّسول، فخصاله عديدة لا تحصى، ومعجزاته خارقة للعادة، نوره جليّ، ودينه واضح، تدارك الله به الخليقة لمّا طغى عباده، يقول: [الخفيف]

شـــــرف المصطفـــى رفيع عماده   ليس يُحصـــى بكثـــــرة تعداده
لاح للمـــهتدين منـــــه سراج   بيــــد الـلـه قدحـــه وزناده
بعثه بعـــث كــــلّ خير وميلا   د الهـــدى والتقـــى معا ميلاده
المعانـــي لذاتــــه وعلوم الغيـ   ـب لـــذّاته ومنهـــا مداده
وله في صفــــاتــــه ومزايا   ه كمـــــال تشجى به حسّاده
بهـــــرت كـــلّ من رآها كمالا   وأقـــرّت بفضـــــلها أضداده
كثرت معجــــزات أحمد حتى   صار خـــرق العادات فيها اعتياده ([1])

ويحث الشاعر الذاهبين إلى أرض الحجاز بالتشمير، و بذل الجهد والمشقة، لينالوا شرف التعطر بالثرى، يقول: [الكامل]

يا سائرا نحـــو الحجــاز مشمرا   اجهـــد فديتك في المسير وفي السّرى
وإذا سهرت الليـــل في طلب العلى   فحـــذار ثمّ حـــذار من خدع الكرى
فالقصد حيث النـــور يشرق ساطعا   والطـــرف حيث ترى الثرى متعطرا ([2])

فالشاعر يبدي قدرا كبيرا من عاطفة الحبّ والشوق، قصد من وراء ذلك تطويع النفس البشرية، حملا لها على الإيمان ، ودعوتها إلى حبّ الأوطان، والتفاني من أجل الرسول ودعوته التي جاء بها،وحرص بها على المسلمين،فالتركيز على الديار الحجازية من قبل الشعراء في هذا العصر لم يأت من فراغ ، فزرع الحبّ والتفاني من أجلها، كانت أهدافا سعى الشعراء إلى غرسها في نفوس الأمّة الإسلاميّة.

---

[1] ـ محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**، 381.
[2] ـ **نفســـه** ، 382.

شهاب الدين محمود الحلبي([1]):

له قصائد كثيرة في مدح الرسول، هذا ما يدلّ على ديوانه المنعوت (أهنا المنائح في أسنى المدائح) وعدد أبياته ثلاثة آلاف وثلاثة أبيات شعريّة ([2])،ويغلب على مدائحه النبويّة افتتاحها بالمقدّمات الحجازيّة ، حيث يتشوّق ويحنّ لأرض الحجاز ، ويبدو أن تأجّج العواطف وتدفقها تجاه الرسول حمله إلى النواح والندب على نفسه، ليحملها إلىالإعراض عن متاع الدنيّا وملاذها، ويظهر هذا في أبهى صور التنسك والزهد .

ففي قصيدته النبويّة، يظهر قدرا من التبكيت، والتهويل لأنه جاوز السبعين، ويدعو نفسه إلى عدم التفريط لأن بوادر النوى (الموت)لاحت في الأفق، وبعدها سيأتي الرحيل، فبعد الشيب لا تسويف ولا تعليل: [الخفيف]

ليس بعـــــــــد السّبعين إلا الـــرّحيل	فإلـــــــــــى م التســـويف والتعليل
دهمتك الـــنـــــــوى ولا زاد قدّمـ	ـت لهـــا والمــــــــدى لديك طويل
لم يفدك الكثيـــر مـــــــن مهلة العمـ	ـر فمـــاذا عســـــــــى يفيد القليل
أنت فرّطت فاعـــــــــول الآن إن كا	ن يـــــــــردّ الماضـي عليك العويل
كم نذير أتـــاك شيــــــــــب وضعف	و سهـاد لا عـــــــــن هوى ونحول
وفراق الأحباب وهـــــــــو على الرّحـ	ـلة والـــبين لـــــــــو عقلت دليل
ليت شعري إذا سئلـــــــــت عن الغفلـ	ـلة مـــن بعـــــــــد هذه ما تقول
ما بقي في الزّمان فسحـــــــــــة آما	ل فعجّـــــــل فقـد مضى التأجيل
قم وبادر وتب وســــــــــارع إلى الطا	عة من قبـــــــل أن يفوت القبول([3])

---

[1] ـ هو الشيخ الإمام شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي، ولد في حلب وإليها نسب، تتلمذ على يد أكابر شيوخها، فقد تعلم الفقه، والعربيّ، وبرع في الخطّ ، اتصل برجالات المماليك، كان بارعا في نظم الشعر ،له مؤلفات عديدة، منها: كتاب في وصف الخيل، حسن التوسل في صناعة الترسل،توفي سنة سبعمائة وخمس وعشرين هجريّة.ينظر ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 120/4. و ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** 324/4-326. والزركلي، **الأعلام** ،172/7. ومحمد الهرفي، **شعر الجهاد في الحروب الصّليبيّة في بلاد الشام**،325-327.

[2] ـ شهاب الدين الحلبي، **أهنأ المنائح في أسنى المدائح**، تحقيق ودراسة حسين الصيّاد، رسالة ماجستير ، جامعة الخليل، 124.

[3] ـ نفســـــــه ، 340.

ويتحدّث الشاعر عن الشفاعة التي خصّ بها سيّدنا محمد عن سواه من الأنبياء،يوم يقف البشر بين يدي الدّيّان، حيث سيحاسبهم على كلّ كبيرة وصغيرة عملوها في دنياهم، فبعد أن يئس الناس، وانشغل كلّ شخص بنفسه، هرولوا إلى الرسول طالبين عونه و شفاعته،فيقف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين يدي ربّه، ليكون نعم الشفيع، يقول الشّهاب محمود : (الكامل)

وحساب أعمـــــــال الورى في يـومهم عمّـا مضــى منهــــــم على ذرّاتها
والناس قد يئســــــــوا شفاعة كـلّ من حـــوت القيامـــــة في ذرى عرصاتها
يأتـــــــــــي فيـــــحمد ربّه بـمحامد لا تـــدرك الأفهـــــام كنه صفاتها
فيقال ســــــــل واشفع فقد أعطيـت من رتب الشفاعـــــــــة منتهى غاياتها
فيقـــــــــول أمّتــــي التي ما أشـركت بك لحظـــــة هب لي ذنوب عصاتها
فهناك نعتــــــــــق من لظى بشفاعة الها دي ونأمــــــن مـــــن سطا لفحاتها
ونرى سنـــــــــــا دار النعيم بظلـه الضّا في ونطمــــــع في جنى جنّاتها ([1])

وفي معرض حديثه عن المعجزات النبويّة التي لا حصر لها ولا عدّ فهي كذرّات الرّمال التي لا يمكن أن تحصى، فإنّ الشاعر لم يترك مدحة إلا ويقوم فيها بذكر المعجزات،ويتتبّعها ، ويفصّل الحديث عنها، ففي حديث عن شاة أمّ معبد التي مسح الرسول على ضرعها ، فاستطاع هو وصحبه أن يشربوا من لبنها، بعدما كانت هزيلة، لا تقوى على إعطاء الحليب، فيصور الشاعر ذلك المشهد الرّائع قائلا : [الخفيف]

وكذا شـــــــاة أمّ معبد مسّـــــــت كفّـــه ضرعــــــــها النحيف البالي
فامتلــــــــى ضرعــها ودرّت على الفو ر برســـل جـــــــار على استرسال
روّت القــــــــوم واستمـــرّت وما كا ن يرى فـــي ضروعــــــها من بلال([2])

[1] ـ المصدر السابق ، 226-227.
[2] ـــ نفســــــــه ، 381. بـلال: جمـع بلـل،وهو النـداوة والعافيـة.الفيروز آبـادي، **القـاموس المحـيط**،2/ 1281(بلل).

وبذلك نشاهد أنّ شهاب الدين محمود، في مدائحه النبويّة قد تتبع الخط النبوي، واستقصى الأحداث التي رافقت محمدا صلّى الله عليه وسلّم في دعوته، متتبعا سيرته العطرة، وأجاد في ذكره للحقيقة المحمديّة.

أمّا مثاليّة الرسول الخلقيّة، فقد ألحّ شهاب الدين محمود كغيره من الشعراء السابقين، أمثال الصرصريّ والبوصيري، فقد عملوا على تقديم الرسول بصورة البطل المحارب، مع احتماله لصنوف العذاب والأذى الذي لحقه منهم، فقد قابل ذلك بالصّفح والحلم،إلا أنهم أصرّوا على عنادهم،لذا حاربهم لردعهم، ([1])، يقول: (البسيط)

فقام يدعـــــــــو بأمــــر الله منفردا   وللضّلال جيـــــــــوش كلها تجب
تضـافروا وغـــدا الشـيطان يجمـــعهم   فغالبـــــــــوا دينــه لكــنهم غلبــوا
وقاطعــــــــــوه وآذوه بجهدهم   في الله وهــــو عليــــهم مشفق حدب
يرودهم ويداريـــــــــهم ويحلم عن   جهـــــــــالتهم ويراضيهم إذا غضبوا
حتى إذا ما عثـــــوا في كفرهم وعتوا   في الغــــيّ وارتكبوا في البغي ما ارتكبوا
وعاندوا الحــقّ كــــــي يطفا بجهلهم   نــــــور الهدى وتعامـــــوا عنه واجتنبوا
وعارضوا صحبه والسّابــــــقين فـكم   آذوا وكـــــــم فتنوا منهم وكم غصبوا
رماهم بجـــــهاد فــــــلّ حدّهم   فكـــــــان حظهم مـن حربه الحرب
وفرّ شيطـــانهم عنــــــهم وأسلمهم   إلـــى الرّدى وثنـــــاه عنهم الهرب([2])

ويضرب الشاعر أروع الأمثلة لتضحيات صحابة الرسول الذين وقفوا مجاهدين، لا يهابون الأعداء ، وكانوا الحصن الحصين للرسول ودعوته، ولم تكن تأخذهم في ذلك لومة لائم، يقول: [مجزوء الكامل]

سل يــــــوم بــــــدر عنهم   وعن العـــــــــدا فهـــو الخبير
إذ أقبـــــلت عليـــا قريش   وذلـــــك الجــــــــمّ الغفير
دلفوا إليـــــــــه يعزّهم   للجهـــــــــل بـــالله الغرور

---

[1] ـ ينظر أيمن فرحان العمايرة، **المدائح النبويّة عند شهاب الدين محمود الحلبي، دراسة موضوعيّة وفنيّة**،98. أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة مؤتة، إشراف شفيق فرحان الرقب،1991.

[2] ـ نفســــــــــه ، 348-349.

ويرونهم نـــــزرا يصـــــو ل عليـــــــــه جمعهم الكثير
فاستقبلوهـــــــم بالسعو ف ولـــم يكـــــن فيهم فتور
رامـــــوا الشّهـــــادة دونه هذا هـــو الفـــــوز الكبير
خطبوا الجنـــــان فأذعنت إذ مـــن نفوســـــهم المهور
وتزخـــــرفت للقائـــهم منهـــــا الأســـرّة والقصور
فأمـــــدهم فـــــي يومهم بالنصـــــر ربّـــهم القدير
وملائـــك تمـــــت بها في الحـــرب بينـــــهم الأمور
بشـــــرى مـــن الله المهيـ ـمــن تطمئـــــنّ بهـــا الصّدور
فغـــــدت قـــريش وجلهم إمّا قتيـــــــل أو أسير ([1])

وكان شهاب الدين محمود من الشعراء الذين تصدّوا لتلك الفئة من الضّلال المتشيّعين في العصر المملوكي الذين كانوا يقومون بسبّ صحابة الرسول، والطعن فيهم، فقد قام رجال الدين والعلم من الشعراء والأدباء يردّون عليهم، ويفنّدون مقولاتهم وطعوناتهم، يقول: [الكامل]

يا مظهـــرا حـــبّ الرّسول وجهله يغريـــه مــــــن سفه ببعض صحابه
رمت الهـــــدى فضللت فيه لأنه ما جئـــــت حبّ محمد من بابه
أتحبه وتعيب قومـــــا آمنوا بسنا هــــداه حـــال كشف حجابه
كذبتك نفسك ليـــس فضـــل كامل فـــــي دينـــه إلا وهم أولى به
أتذمّ أوّل مؤمـــــن ومصدّق مــــــن قومـــــه بإلهه وكتابه
مهلا فمـــا بدر الوجـــود وقد سما فـــــي الأفـــق منتقصـــا بنبح كلابه
أيكـــون أوّل مـــؤمن سمع الهدى فأجـــــابـــه مستوجبا لعقابه
أفما يـــــدرّك عن ضلالـــه والهوى عقـــــل فإنّ الدّيـــن مـــا يعنى به([2])

وجاءت أشعاره النبويّة نابعة من عواطف إيمانيّة نابعة من قلب شاعر وامق للرسول ودعوته، وحريص كلّ الحرص للذود عن حماه، وذلك من خلال التصدّي بسيفه اللساني

[1] ـ المصدر السّابق ،291-292..
[2] ـ الشهاب محمود، **أهنا المنائح وأسنى المدائح**، 330-331.

الذي يقرّع الخصوم ، وينشر الوعي الديني، من خلال حديث عن الرسول ودعوته، وتبيان فضله، وترسيخ الأثر الذي دعا إليه محمد وصحبه، ولم يكن الشاعر يبتغي منزلة أو وزارة ، وإنما أراد شفاعة يجود بها الرسول عليه.

وبذلك نرى أنّ مضامين مدائحه النبويّة جاءت موافقة لما ضمنه من سبقه من شعراء المدائح النبوية، غير ما أدخله شهاب الدين في باب مقارعة الغلاة، والوقوف أمام طعوناتهم لصحابة الرسول، ومحاولتهم التقليل من مكانتهم، وكيل المسبّات لهم.

صفي الدين الحلي([1]):

للشاعر عدّة مدائح نبويّة، ولكن أشهرها وأهمها الكافية البديعيّة،وهي أوّل بديعيّة مكتملة في بابها ([2])، ويظهر الشاعر تعظيما للرسول من خلال مدائحه النبويّة،ففي مدحته النبويّة الرّائيّة، وقف في المدينة، وقد جاشت نفسه حبّا لمحمد،يقول: (الطويل)

إلى خير مبعـــــــــوث إلى خير أمّة   إلى خيـــــــــــر معبـــود دعاها بشيرها
ومن بشّر الله الأنـــــــــــــام بأنه   مبشّرهـــــا عـــــــــــن إذنه ونذيرها
محمد خيــــــــر المرسلـــين بأسرها   وأوّلها في الفـضـــــــــــل وهو أخيرها
عليك ســــــلام الله يا خيـــــر مرسل   إلى أمّـــــة لـــــــــــولاه دام غرورها
عليك ســــــلام الله يا خيـــــر شافع   إذا النار ضمّ الكافـــــــــرين حصيرها
تشرّفت الأقـــــــــــدام لمّــا تتابعت   إليك خطاهـــا واستـــــــمرّ مريرها([3])
وفاخرت الأفــــــــواه نـــور عيوننا   بتربـــــــــــك لمّـــــا قبّلته ثغورها
لأنــــــك سرّ الله والآيـــــــة التي   تجلت فجلـــــى ظلمة الشّك نورها ([4])

---

[1] ـ هو عبد العزيز بن سرايا، ولد في مدينة الحلة في العراق على الفرات، كان كثير التنقل والترحال بين المدن العربيّة، تثقف ثقافة أدبيّة، اتصل بحكام بني أيّوب، له مؤلفات عديدة منها: العاطل الحالي والمرخص الغالي في الزجل والكان كان والموالي، الدرّ النفيس في أجناس التجنيس، توفي سنة سبعمائة وخمسين هجريّة. ينظر ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 335/2. والزركلي، **الأعلام**، 4/17-18.

[2] ـ علي أبو زيد، **البديعيّات في الأدب العربي**، 71- 74.

[3] ـ مريرها: الحبل الشديد الفتل . الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،659/1. (مرر)

[4] ـ صفي الدين الحلي، **الديوان** ، 80- 81.

فالشاعر تحدّث عن مكانة النبي وشرفه ، ثمّ انتقل بالحديث عن فضل النبيّ على أمّته،وذكر الحقيقة المحمديّة، وجاءت الألفاظ سهلة، خرجت بسلاسة ولم يكتنفها الغموض، فضلا أنها لم تصل إلى حدّ العاميّة المبتذلة.

ويتوجّه إلى الرّسول بالشكوى لما آلت إليه أحواله، فهو يتحمّل من العذابات ما تنوء عن حمله الجبال والليالي، وذلك بعد أن قلب له الدهر ظهر المجنّ، حيث تحوّل الصّديق إلى عدو، ويذكر بأنّه مهما طال الزمن فالصّبر كفيل بنصره على عدوّه، يقول:

ليالي يعــديني زمـــــاني على العدى   وإن ملئـــــــــت حــقدا عليّ صدورها
ويسعـــــــــدني شــــرخ الشبيبة والغنى   إذا شانــــها إقتــــــــارها وقتيرها
ومــــــذ قلب الدّهر المجـــنّ أصابني   صبـــــــــورا على حال قليل صبورها
فلو تحمـــــــل الأيّام ما أنـــــا حامل   لما كـــــــــاد يمحو صبغة الليل نورها
سأصبـــــــــر إمّا أن تـــدور صروفها   عليّ وإمّا تســــــــتقيم أمـــورها ([1])

ويزجي الحلي تحيّاته إلى المصطفى وآله وصحبه الغرّ الميامين، حيث يترك جانبا لمدحهم، والثناء عليهم بغرر القصائد النبويّة،فأصحابه ـ عليه السّلام ـ نجب صيد،ولا يحلّ لامرئ أن يضمر لهم العداوة والبغض، و إلا كان شقيا غير سعيد في دنياه و آخره،يقول في ذلك في القافيّة التي بدأها بذكر جماليّات الطبيعة الغناء، وتدرّج فيها إلى مدح النبي، وختمها بالإطراء على صاحب الرسالة، مستهديا بمن سبقه، ومتخذا التوسل طريقا لتحقيق غايته: [البسيط]

صلى عليـــــك إلـــه العرش ما طلعت   شمس النهار ولاحـــــــت أنجم الغسق
وآلك الغـــــــــرر اللاتي بها عرفت   سبل الرّشاد فكانـــــــــت مهتدى الفرق
وصحبك النجـــب الصّيد الـــذين جروا   إلــــــــــى المـــــنقب من تال ومستبق
قوم متى أضمـــــرت نفـس امرئ طرفا   مـــــــــن بغضهم كان من بعد النعيم شقي
ماذا نقـــول إذا رمنـــــا المديح وقد   شـــــــــرّفتنا بمديـــــح منك مستبق

[1] ـ المصدر السّابق، 78.

إذ قلت فـــي الشعر حكـــم والبيان به   سحـــــــــــر فرغبـــت فيه كلّ ذي قلق
فلا أخلّ بعـــذر من مديحـــــــــكم   ما دام فكـــري لـــــــــم يرتج ولم يعق
فسوف أصفيـك محض المـدح مجتهدا   فالخلـــق تفنى وهـــــذا إن فنيت بقي ([1])

و لقد صدق الحلي فيما قال فهو قد مات ، أمّا شعره فخالد وباق، وزاد شعره تشريفا أنّه جاء في مدح النبيّ، الذي ما فتئ يحض على الشعر الذي يوافق الشريعة، ويحمل في طيّاته الحكمة والبيان، ويبتعد به صاحبه عن الرذيلة والهوان.

وفي موطن آخر يطالعنا الحليّ في قصيدته النونيّة، وعلى غير عادة الشعراء،حيث يفتتحها بالمعجزات التي رافقت طلعة الرسول البهيّة على هذه البشريّة، فنيران المجوس خبت، وانشقّ إيوان كسرى أنوشروان، وبشّر بقدومه سطيح الرّاهب، وأنبياء بني إسرائيل لفضل الرسول دانوا، كما شهدت بفضائله التوراة والإنجيل، وبرزت شمسه على الأكوان تنشر ساطعة تحمل كلّ هداية وبيان، يقول: [الكامل]

خمدت لفضــــــل ولادك النيـــــران   وانشـــــــــقّ مـــن فرح بك الإيوان
وتزلـــــزل النـــادي وأوجس خيفة   مــــــــــن هـــول رؤيـاه أنو شروان
فتــــــأوّل الرؤيـــــا سطيح وبشّرت   بظهـــــــــــــــورك الرّهبان والكهّان
وعليــــك أرميّــــــــا وشعيا أثنيا   وهمــــــــــا وحزقيـــل لفضلك دانوا
بفضائل شهدت بهـــــنّ الصّحف والتورا   ة والإنجيـــــــــــــل والفـــرقان
فوضعـــــت لـــله الــمهيمن ساجـدا   واستبشـــــــــرت بظهورك الأكوان ([2])

أبرز الحليّ نور الرسول إذ جعل أنبياء بني إسرائيل من أمثال أرميّا وشيعا وحزقيل يدينون له، على الرغم أنهم سبقوه، وعلى صعيد المعاني المستخدمة فقد جاءت موافقة لقدر من مدح، فهي ساميّة وتدل على عمق الوازع الديني الذي حمله الشاعر وأراد تحقيقه، وسعى من خلال قصيدته هذا، وغيرها من القصائد إلى نيل الجائزة، والمؤكد

---

[1] ـ المصدر السّابق، 88.
[2] ـ نفســــــه ، 82- 83.

أنّ الجائزة ليست ماديّة،وإنما كانت طلب الغفران، لينال بها الجنان، ويعبّر عن ذلك قائلا:

فلقد تعـــــــــرّض للإجازة طامـــــعا   في أن يقـــــال جـــــــــزاؤه الغفران

أمّا ما يخصّ بديعيّته التي مدح بها النبيّ، وهي معارضة لبردة البوصيري،فقد اتفقت معها في الوزن والقافية، وموضوع القصيدة، واتجاهها في المديح ، لذا حظيت بالشهرة والعناية من قبل الشرّاح ، فتلقفتها الأسماع بالقبول والإطراء، وهي تقع في مائة وخمسين بيتا من الشعر، ظاهرها مدح للرسول، ويتضمن كلّ بيت من أبياتها فنا أو أكثر من فنون البديع.

وتتوافق قصيدة صفي الدين الحلي مع بردة البوصيري في الدّافع الأصيل لنظم القصيدة، وهو المرض ورؤية الرّسول ـ عليه الصلاة والسّلام ـ والفارق بين الاثنتين أنّ الحلي جمع أشتات البديع، ويستعيض بها عن كتاب فيه([1]). كيف لا ؟وقد نظم فيها مائة وخمسة وأربعين بيتا ،اشتملت على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع، وذكر فيها من أصناف التجنيس مائة وواحدا وخمسين نوعا ، في حين ألزم الشاعر نفسه عدم التكلف، وترك التعسّف، حيث السّهولة طريقا، والرّقة مسلكا، وقوّة المعنى مبتغى([2]) ، يقول الحلي في مطلعها : [البسيط]

إن جئـــــت سلعا فسل عن جيرة العلم   واقـــــــر السّلام على عرب بذي سلم
حسبي بذكـــرك لي ذمّـــــا ومنقصة   فيما نطقـــــــــت فلا تنقص و لا تذم
قالوا: ألـــم تـــــــدر أنّ الحبّ غايته   سلب الخـــــواطر والألباب؟ قلت لم
لم أدر قبـــــــل هـــواهم والهوى حرم   أنّ الظبـــــــاء تحلّ الصيد في الحرم
فإن سعـــــــدت فمدحـــي فيك موجبه   وإن شقيـــت فذنبي موجب النقم ([3])

---

[1] ـ محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، 181/8.
[2] ـ ينظر صفيّ الدّين الحلي، **شرح الكافية البديعيّة في علوم البلاغة ومحاسن البديع**، 54-55.
[3] ـ نفســـــه ، 57.

فالبيت الأوّل يحتوي على فنين هما براعة المطلع أو حسن الاستهلال،ويحتوي على الجناس، أضف إلى ذلك رقّة التّشبيب، وتجنّب الحشو، والبيت الثاني فيه فنّ النزاهة([1])، والبيت الرّابع فيه تشابه الأطراف ([2])، وذلك بين (لم ولم)، وقد حمل الأخير براعة الختام.

وبشكل عام يمكن القول إنّ الحلي آثر نمط السهولة واليسر، مما دفع عمر فاروق الطبّاع إلى القول: " وكان صفيّ الدين بعيدا عن الغريب والحوشيّ في نمطه الشعريّ وطبعه الفني وأساليبه فجاء إيقاعه عذبا ولفظه سهلا، وتواترت فيه إلى جانب الرّقة والسّهولة، جزالة ومتانة، فكانت البلاغة عنده إفصاح وبيان في قوالب محكمة من النسيج الشعري، فصان بذلك شعره" ([3]) .

ويلاحظ على بديعيّة الحلّي أنها توافق نهج قصيدة المديح النبويّ بمخطّطها العام، فالمقدّمة الغزليّة، ثم مديح الرّسول، والحديث عن صفاته وأخلاقه ومعجزاته، وأغرق في الحديث عن الحقيقة المحمّديّة، فأنبياء الله توسّلوا بمحمد، لأنه الشفيع الأوحد، ويردّ فيها الشاعر على النصارى وما يدّعون ، ثمّ يختم بالصّلاة على النبيّ المأمون .

ومدائحه النبوية بشكل عام جاءت موافقة لما نظم سابقا في الثناء على الرسول، وإجلاله وإكباره، وهذا ينبع من عاطفة دينيّة مشحونة بالحبّ والوفاء، وقد ابتعد الحلي في مدائحه عن الألفاظ الوعرة، إلا أننا نجد التكلف باديا في بديعيّته التي سعى من ورائها للجمع بين فنين مختلفين وهما مدح الرسول، وتعداد أنواع البديع، من هنا ظهر التكلف، ولكن يجدر بنا الإشادة بجهود الحلي البلاغيّة التي هدف من ورائها خدمة اللغة العربيّة .

---

[1] ـ النزاهة : الإتيان بألفاظ فيها معنى الهجو الذي إن سمعته العذراء في خدرها لا تنفر منه.ابن حجّة الحموي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**،172/1. وعلق ابن حجّة الحمويّ قائلا : " النزاهة ما نظمها أحد في بديعيّته إلا صفيّ الدّين الحليّ " وهو نوع غريب ، يحمل في ثناياه الحشمة، وهو في الأصل هجو.

[2] ـ تشابه الأطراف: هو أن يقوم الناظم بإعادة لفظة القافية للبيت في أوّل البيت الذي يليه. ابن حجّة الحموي، **خزانة الأدب وغاية الأرب**،225/1-226. وقد استشهد ابن حجّة بهذا الشاهد في خزانته.

[3] ـ صفي الدّين الحليّ، **الديوان** المقدّمة، 18-19.

ابن نباتة المصري ([1]):

مدح ابن نباتة الرسول في خمس قصائد شعرية، و يغلب على شعره تفننه في أمور البديع، وصبغه لمدائحه بصبغة البديع، وهذا الأمر ليس بالجديد، فيغلب عليه من هذه الناحية مشابهة أسلوبه أسلوب صفي الدين الحلي الذي أفاض بعلم البديع وجعله مقصده في قصائده،ويغلب على مقدّماته افتتاحها بالغزل الذي يشوبه مسحة من الشجون، وترافقه دمعات العيون، فالمعاني جميلة، والعبارات الواردة لطيفة، يقول في همزيّته: [الوافر]

شجـــــون نحوها العشّـــاق فاؤوا   وصبّ مـــــــــا لـــه في الصّبر راء
وعين دمعـــــها في الـــحبّ طهر   كأنّ دمـــــــــــوع عيني بيرحاء
كأنّ بكـــــاي لــــــي عبد مجيب   فمــــا فرجــــــي إذا إلا البكاء ([2])

ثمّ يتجه إلى مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، ويظهر علوّ مكانته بين الخلق حيث وصلت إلى الشمس، والرسول نور لكلّ من اهتدى، ولكنه نار لظى على أعدائه، ويهاجم ابن نباتة الملحدين، وينذرهم بالجحيم، يقول من القصيدة نفسها:

وأيـــــــن الشمس منـــه سنا ولولا   سناه لمـا ألـــــــــــــمّ بها سناء
لمبعثه علـــــــــى العـــــادين نار   وللهـــــادين نـــــــــور يستضاء
سهام دعـــــــا لــــه وسهام رأي   لها فـــــــــي كـــــلّ معركة مضاء
درى ذو الجيـــــــش ما صنعت ظباه   ومـــا يدريــــــــه ما صنع الدّعاء
ولولاه لمـــــــا حجّـــت وعجّت   وفود الـــبيت ضـــــــاق بها الفضاء
فإن يتلا لـــــــــه في الحجّ حمد   فقدمـــــــا قــد تلتـــه الأنبياء
فقـــــــل للملـــــحدين تنقلوها   جحـــيمـا إننـــــــا منـــكم براء
"وإنّ أبــــــــي ووالــــده وعرضي   لعــــــــرض محمــد منـــكم وقاء"

---

[1] ـ هو محمد بن محمد ، جمال الدين الفارقي، ولد لأسرة عريقة في العلم والأدب في القاهرة،قضى أغلب حياته متنقلا بين مصر والشام، أقبلت الدنيا عليه زمن الأيّوبيين، تسلم وظائف عديدة، كتب في التاريخ، وبرع في الشعر، من مؤلفاته: سرح العيون في رسالة ابن زيدون، وله ديوان شعر مطبوع، توفي سنة سبعمائة وثمان وستين هجرية. ينظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 311/1. وابن حجر، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**،216/4. والزركلي،**الأعلام**، 38/7.

[2] ـ ابن نباتة ، **الديوان**، 1.

عليـــــــك من الملائك كــــلّ وقت صــــــلاة في الجنـــان لها أداء([1])

ويظهر تأثر الشاعر كبيرا بحسّان بن ثابت كبيرا، إلى الحدّ الذي ضمّن في قصيدته بيت حسّان كاملا (فإنّ أبي ووالده)،وكأني بالشاعر أتى بهذه القصيدة معارضا قصيدة حسّان بن ثابت الهمزيّة، فهي جاءت على الوزن نفسه وكذلك القافية،فقد افتتح حسّان قصيدته بقوله: (الوافر)

عفت ذات الأصــابع فالجـــــواء إلى عـــــــذراء منزلها خلاء ([2])

و في قصيدة الميميّة لا يصنع ما دأب عليه في غيرها من القصائد الأربعة بالبدء بالغزل، وإنما تحدّث مباشرة عن شرف مقام الرسول الذي لا يستطيع نظم أو نثر عن الإحاطة به يقول : [الكامل]

أوجـــز مديحـــك فالمقام عظيم مـــــــن دونـــه المنثور والمنظوم
من كـــان في سور الكتاب مديحه مـــــــاذا تســــاور فكرة وتروم
بـــــدر تألـــق فالطريق محجّة لـــــــذوي الهدايـــة والصراط قويم
وتشــــــرّفـت أرض بموطئ نعله وسمـــــت حصاها فالرجوم نجوم ([3])

ثمّ ينتقل إلى مدح الرسول والثناء عليه ، والمعاني المطروقة في هذا المجال مطروقة من قبل الشعراء السابقين، بمعنى أنّ المعاني مكرّرة، حيث يبيّن فيها مكانة الرسول، ويتخذ من عناصر الطبيعة ملاذا ومساندا لتشبيهاته.

أمّا في رائيّته فهو يستهلها بالنسيب، ويستغرق منه سبعة وثلاثين بيتا، يبدو أنّ الشاعر فيها قد كابد الأحزان، ويظهر أنه عانى قسوة الزمان، وغشاه الحرمان، وغلقت عليه الأشجان، ينتقل إلى مدح جناب الرسول، ويظهر فيها النور المحمدي ، يقول ابن نباتة: [الطويل]

[1] ـ المصدر السّابق ، 2-4.
[2] ـ حسّان بن ثابت، **الديوان**، 17.
[3] ـ ابن نباتة ، **الديوان** ، 428.

صحا القلـــــــــب لــــولا نسمة تتخطر ولمعة بـــــــــــــــــرق بالغضا تتعسّر
بنيّ أتـــــــــــمّ الله صـــــــورة فخره وآدم فــــــــــــــي فخـــــــاره يتصوّر
تحـــــــــــزّم جبريـــــــل لخدمة وحيه وأقبـــــــــــل عيســـى بالبشارة يجهر
فمـــــــــــن ذا يضـــاهيه وجبريل خادم لمقدمـــــــــــه العـــــالي وعيسى مبشر
هو البحر فيّـــــــــاض المـــوارد للورى ولكنّـــــــــــه العـــــذب الذي لا يكدّر
تهاوى لمأتـــــــــاه النــــــجوم كأنها تشافـــــــــــه بالـــــخدّ الثرى وتعفّر
تنقـــــــــل نـــــــورا بين أصلاب سادة فللـــــــــه منــــه في سمـــــا الفضل نيّر
به أيّـــــــــــد الطـــــهر الخليلي فانحنت يــــــــــداه على الأصنـام تغزو وتكسر
ومـــــــن أجلــــه جيء الذبيحان بالفدى وصيـــــــــــــن دم بيــــن الدّماء مطهّر
وردّت جيـــــــوش الفيل عن دار قومه فللـــــــــه نصـــــل قبـــــــل ما سلّ ينصر
عليك صــــــــلاة الله في كــــــلّ منزل تعبّر عــــــن ســــــــــرّ الجنان وتعبر ([1])

و قد علق عليها صاحب معجم شعراء المديح بقوله: " وهي خير ما قاله في ديوانه،فهي تمتاز بوضوح المعاني، وقوّة السّبك، مما دفع بمعاصريه إلى تلقفها والإعجاب بها"([2]) .

ويأبى ابن نباتة إلا أن يعارض كعب بن زهير في لاميّته، ويظهر الشاعر فيها أنها نظمت بعد أن بلغ الشاعر الأربعين من عمره، يمتدح الرسول من خلال معجزاته، ونوره الذي عمّ الأرض والبشرية، يقول: [البسيط]

ما الطرف بعـــــــــدكم بالنـــوم مكحول هـــــــــذا وكـــم بيننا من ربعكم ميل
والسّنّ قد قرّعتـــــــــــها الأربعـــون وفي ضمائـــــــــر النفس تسويف و تسويل
محمـــــــــــد المـــــجتبـى معنـى جبلته وما لآدم طــــــــيـــــــن بعد مجبول
والمجتلى تـــــــــــاج علياه الرّفيـع وما للبـــــــــدر تـــــاج ولا للنجم إكليل
ذو المعجـــــــــزات التي ما اسطـاع أبرهة يغـــــــــزو منازلـــــها كلا ولا الفيل
ما زال في الخلـــــــــق ذا جاه وذا خدم لكنّ خادمــــه المشــــــــهور جبريل
فاض الـــــــــــزلال المهنّى من أصابعه نعـــــــــم الأصابــع من كفيه والنيل

[1] ـ المصدر السّابق ، 180-183.
[2] ـ محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**،389.

وبورك الـــــــــــــــــــزّاد إذ مسّته راحته فحبّـــــــــــذا مشـــــرب منها ومأكول
وحاز سهم الــــــــــــــــمعالي حين كان له من قـــــــاب قوسيـــن تنويه وتنويل([1])

وعليه يبقى ابن نباتة يحمل في قصائده من الخصائص التي يتميّز بها من غيره ، وتطبعه بطابع خاص، فكثرة الحزن والأسى الذي يظهر في مقدّمات مدائحه النبويّة ما جاءت من فراغ، وإنما مردّها إلى ما حملته نفسيته المتعبة أصلا من ظروف الحياة المريرة التي كابدها، فقد كان كثير العيال، فقير الحال، ومع ذلك عبّر عمّا في داخله من خلال هجرته إلى الرّسول، وبثّ شوقه إليه، ويمدحه بقصائده التي خلت من التعقيد، ونحت جانب الوضوح والسلاسة، مع قوّة الأسر والسبك، ومثل هذه الخصائص من النادر أن تجتمع لدى شاعر غالبته الأحزان، وأوقعته الحياة في شركها ، و تمنحه الفرصة المناسبة ليتواءم معها.

ابن جابر الأندلسي ([2]):

نظم الشاعر مجموعة من القصائد النبويّة، أهمها تلك التي عارض فيها قصيدة كعب بانت سعاد، ويبدو الشاعر فيها متأثر كلّ التأثر بكعب وبردته، حيث يضمن قصيدته بعض مفردات البردة، وينظر الشاعر إلى الرسول على أنه القمين بالثناء والمدح، فقد شرّفه الله بالمجد.

وجريا على عادة الشعراء السّابقين، فإنه يقوم بنثر ما طاب له من وجهات النظر في الحياة، وهو في ذلك ينطلق وفق منطلقات الشريعة الإسلاميّة، فتراه يحارب تلك الآفات الاجتماعيّة التي تبرز في المجتمع من حين لآخر من مثل الغيبة والنميمة، وتراه في المقابل يحرّض على الفضائل الساميّة، فالوقار والصمت وطيبة النفس وغيرها من الفضائل المحبّبة.

[1] ـ ابن نباتة ، **الديوان**، 372-373.

[2] ـ هو أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى، من مواليد المرية في الأندلس، تتلمذ على أبيه، تنقل بين المشرق والمغرب إلى أن استقر في به المطاف في حلب الشهباء، من أشهر مؤلفاته: الحلة السيرا في مدح خير الورى، توفي سنة سبعمائة وثمانين هجريّة. ينظر المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**،38/1. وابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**،339/3-340.و الصفدي، **الوافي بالوفيات**،157/2-158.

وعلى النهج الذي اختطه كعب، ترى أنّ ابن جابر يفتتح معارضته بالنسيب، ويبدو عليه التقليد سمة بارزة،وهي قصيدة طويلة، أبدى فيها الشاعر قدرا كبيرا من الحبّ لسيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، فقلبه مجبول على حبّه، وصوّر رهبة الموقف يوم القيامة، حيث يأتي الخلق زرافى يقفون أمام الرسول يلتمسون شفاعته،بعدما طلبوها من عيسى الذي أومأ على الرسول، وعندها أخبرهم الحبيب بأنه لها كفيل، يقول فيها:

[البسيط]

بانت سعـــــــاد فعقـد الصّبر محلول   والدّمـــــــع في صفحات الخدّ مبذول
لي الأمـــــــان وحاشا أن أخيـب ولي   قلب علـــــــى حبّ خير الخلق مجبول
هـــــــادي البريّة من بعد الضّلال ومن   لـــــــه على الرّسل تخصيص وتفضيل
لـــــــه الشفاعة حيــث الرّسل جاثية   وكـــــــلّ شخص لهـول الحشر مخبول
وجـــــــاءت الخلق أفواجـا ليلتمسوا   لهـــــــم شفيعا ومـا في الأمر تمهيل
وحيـــــــث جاءوا رسولا قال لست لها   فليس لـــــــي عن مقـام الخوف تحويل
حتـــــــى إذا ما أتوا عيسى يقـول لهم   أمر الشفـــــــاعة للمـــــختار موكول
هنـــــاك يدعى به سل تعط وادع تجب   واشفع تشفّــع فوعـــــــد الله مفعول ([1])

وفي قصيدة أخرى يعتمد اللام المكسورة الرّوي ،ويجرّد فيها سيرا على نمط الشعراء، ويطلب من نفسه العدول إلى المدينة المنوّرة ، فهناك الرّسول يرقد في جدثه بطيبة، ويطلب أيضا من نفسه أن يدع ربع سعدى فالنزول فيه لا يجدي،يقول: [الطويل]

هم عدلوا نحـــــــو المدينة فاعدل   ولا تــك عـــــــن ذاك الضريح بمعزل
ودع عنـــــــك سعدى والنـزول بربعها   وإن شئت إسعـــــــادا بطيبـــة فانزل
وسلـــــــم على ذاك الضـــريح فإنه   ضريح بــــه قد حـــــــلّ أكرم مرسل
ويمّم جنـــــــاب الهاشمي ولذ به   و لا تبــك من ذكـــــــرى حبيب ومنزل
هناك الجناب الرّحـــب والمنعم الذي   شفاعته للخلـــــــق أكرم موئل ([2])

[1] ـ محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام المدح النبوي**، 329.
[2] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 267/3.

وهو يتأثر تأثرا واضحا بدعوة ملك النحاة ـ الحسن بن صافي ـ عندما يطلب من نفسه ترك سعدى وديارها، ويحثّ على الذهاب إلى الدّيار الحجازيّة،و عندما يصل إلى خاتمة القصيدة، يرثي الشاعر فيها نفسه،وقد اقترب أجله ، وعليه أن يخفف من وطأة الذنوب التي تثقل كاهله، لذلك يفرّ مهرولا إلى الرسول لينال شفاعته، ويظهر الشاعر قدرا كبيرا من الاستعطاف لينجو، وفي هذا صدق عاطفة، يقول:

فيا خير خلــق الله جاهـــــك ملجئـــي   وحبّك ذخـــــري في الحســاب وموئلي
وكيف لقصــدي أن يخـــــيب وإننـــي   بمدحــــــك لـلــه العظـيم تــوسلي
مدحتك حاشا أن تخــــــيب مدائحــي   فأنت الـــــــذي إن يسأل الخير يبذل
عسى لحظة من حسن جاهـــــك ينقضي   بها أملــــي يـــــــا من عليـه معوّلي
عسى أن يخفّ العفــــــو ظهري للسّرى   فكيف نهوضـــي حيـــــث ذنبي مثقلي
سأنجـــــــو بما أرجو من الكـــرم الذي   شملت بـــــه في الناس كلّ موئلي([1])

ومن الجدير ذكره أنّ القصيدة وإن كانت في المديح النبوي إلا أنها جاءت معارضة لمعلقة امرئ القيس (قفا نبك)،من حيث اتخاذ قافية اللام والبحر العروضي الطويل، وهذا يعدّ تأثرا بالموروث الشعري العربي القديم واحتفاء به .

وبديعيّته الميميّة جارى فيها صفيّ الدين الحلي، فقد مدح فيها النبيّ محمدا، ونظم من خلالها أنواع البديع، وهي من البحر البسيط، وبيّن الشاعر السبب وراء نظمه للبديعيّه([2])، يقول : (البسيط)

بطيبة انـــــــــــزل ويمّم سيّد الأمم   وانشـــــر له المـــدح وانثر أطيب الكلم
وابذل دموعـــــــك واعذل كلّ مصطبر   والحــــقّ بمن سار والحظ ما على العلم
سنا نبـــيّ أبـــــــــــيّ أن يضـــيّعــنا   سليل مـجـــــــد سليم العــرض محترم
جميل خلق على حـــــــقّ جزيل ندى   هـــــــدى وفـــــاض ندى كفيه كالدّيم
كفّ العداة وكـــــــــدّ الحادثات كفى   فكم جرى من جـــــدا كفيه من نعم ([3])

[1] ـ المصدر السّابق ، 3/ 272.
[2] ـ ينظر ابن جابر الأندلسي، **الحلة السّيرا في مدح خير الورى**، 25.
[3] ـ نفســـــــه ، 28-30.

والأبيات السّابقة أتت شاهدة على أنواع التجنيس من مثل: جناس الاشتقاق (بطيبة، وأطيب) وفي (يمّم ، الأمم)، والجناس الملحق في الأفعال (ابذل ، واعذل) و (الحقّ ، و الحظّ)، وفي الأسمـــاء (نبيّ ، و أبيّ) و (سليل ، وسليم) و (جميل، وجزيل) والناقص (كفّ ، وكفى) ، كما يحتوي البيت الأوّل على براعة الاستهلال ، فقد افتتح بديعيّته بالتغني بطيبة.

ولابن جابر قصيدة أخرى في المديح النبوي، حيث يوري فيها بسور القرآن الكريم،ويعد هذا تيسيرا على التلاميذ، نظرا لبراعة ابن جابر في التدريس، يقول فيها: [البسيط]

في كلّ فاتـــحة للقـــــــــــول معتبرة   حــــــــقّ الثنــــاء على المبعوث بالبقرهْ
في آل عمران قدمــــــــا شاع مبعثه   رجالهــــــــــــم والنســـاء استوضحوا خبرهْ
قد مدّ للناس من نعمـــــــــاه مائدة   عمّت فليســــــــــت علـــى الأنعام مقتصرهْ
أعراف نعماه ما حـــــــــلّ الرّجاء بها   إلا وأنفـــــــــــــــــال ذاك الجود مبتدرهْ
به توسّـــــــــل إذ نـــــادى بتوبته   في البحـــــــــــر يونـــس والظلماء معتكرهْ
هود ويوســــــــف كم خــوف به أمنا   ولن يروّع صـــــــــــوت الرّعد من ذكرهْ([1])

ويبدو أنّ ابن جابر كان الرّائد في مثل هذه التوريات، فكلمات (الفاتحة،و البقرة، وآل عمران، والنساء، و المائدة، و الأنعام ، و الأعراف، و الأنفال، و يونس ، و هود ، ويوسف ، والرّعد) هي جميعا جيء بها تورية عن سور القرآن الكريم ، ويمضي الشاعر على هذه الشاكلة حتى نهاية القصيدة.

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 169-171.

عبد الرّحيم البرعي (1) :

بلغت مدائحه عشرين مدحة، و أغلب المعاني الواردة في قصائد المديح النبوي مطروقة من قبل السّابقين، ففي مقدّماته يظهر الشوق والتغزل بالدّيار الحجازيّة، وبيّن خصال النبيّ، وشرفه، وفضله ومكانته، وتحدّث عن معجزاته، كما تحدّث عن الحقيقة المحمديّة، وينتهي بمدحته إلى طلب الشفاعة من الرسول لعلّ الشاعر يصل إلى مبتغاه وهو الفوز بدخول الجنة .

ويسرع الشاعر إلى الرسول متوسلا وطالبا العفو، ومظهرا قدرا من الأمل بأن يقبل الرسول توسله، ويطلق الشاعر مجموعة من الأوصاف التي تميّز بها الرسول، يقول: [البسيط]

محبّـــــة لرســـــــول الله أدخرها   ليوم أســـــــــــأل عــــن ذنبي فأجزاه
حسّنت ظني وآمـــــــــالي بذي كرم   تلقــــاك من قبـــــــــــل أن تلقاه بشراه
محمد سيّـــــد السّادات مـــن وطئت   حجب العـــــــــــــلا ليلة المعراج نعلاه
مهـــذب الخلـــــق والأخلاق بهجته   تريك عــن حسنه عنــــــــــــوان حسناه
ومثلـــــــه ما رأت عيـــن و لا سمعت   أذن و نطقــــت في الكـــــــــون أفواه
كـــلّ الملائك والرّســـل الكرام على   فصّ الجلالـــة شكـــــــــــــل وهو معناه
راحي وراحــــة روحي أنت أنت فما   ألـــــــــــــذّ ذكــــرك في قلبي وأحلاه
يــا سيّدي يا رســـول الله خذ بيدي   فـــــــــــــي كــلّ هول من الأهوال ألقاه
يــا عدّتي يا نجاتي في الخطوب إذا   ضـــــــــاق الخنــاق لخطب جلّ بلواه (2)

وفي قصيدة أخرى يثني على الرسول وصاحبيه، ويرتجي منهم الخير بالفوز، وشيمة هؤلاء الفضل وبالتالي شرّفوا مدائحه فنالت الشرف لفضل ما حوت، ويتمنى أن ينال ما

---

1 ـ هو العارف بالله عبد الرّحيم البرعي اليمني، ولد باليمن وتنقل في البلدان العربية، المشرقيّة منها والمغربيّة، كان فقيها وعالما ومحدثا، أضف إلى ما سبق من أنه كان شاعرا رقيق الإحساس، له ديوان شعر يحتوي على عشرين مدحة نبويّة، توفي سنة ثمانمائة وثلاث هجريّة. ينظر عمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي**، 821/3-822. و الزركلي ، **الأعلام**،343/3. وكحالة، **معجم المؤلفين**،302/5.

2 ـ عبد الرحيم البرعي ، **شرح ديوان البرعي**، 41-42.

ناله حسّان بن ثابت الذي بشّر بالحسنى، ويلحظ في قصائده إلحاحه بطلب العفو ليرجح الميزان ، وتصبح النفس خالية من الأحزان، يقول: [البسيط]

محمدا سيّــــد الكــونين والــثقليــن والفريقين مـــــن عجم وعربان

ورجّ فضــــل ضجيعيه فإنهما السّيّـــدان المجيـــدان الرّفيعان

وثق بحبــــل شهيد الدّار تلوهما شيخ الكــــرامة عثمان بن عفان

ثـــمّ ابلغ الغاية القصوى أبـو حسن وابنـــاه أيضـــا وعمّاه الكريمان

أئمّــــة زيّــن الله الـــوجود بهم غــــرّ مهــــذبة أبناء غرّان

لا غرو إن جعلوني مـــن تفضّلهم سلمان بيتــهم مـــن بعد سلمان

أو شرّفـــوا قدر مدحي وهو شيمتهم أو بشّرونــــي بالـحسنى كحسّان

الحمد لله هــم ركني وهـم عضدي وهم نجاتـــي وهم روحي وريحاني

يـــا سيّدي يـــا رسول الله يا أملي يا موئلــــي يا مـــلاذي يوم تلقاني

هب لي بجاهـــك ما قدّمت من زلل جـــودا ورجّح بفضـل منك ميزاني(1)

لا يخفـي الشـاعر تـأثره بالشـعراء الأقـدمين ممـن نظمـوا في المـدائح النبويّـة، خاصّـة البوصيري، حتى أنه ردّد المفردات والكلمات التي أتى بها البوصيري في بيته المشهور من ميميّته، ويقول فيه:

محـمـد سيّـــــد الكـونيـن و الـثقليـن والـفريقيـــن مـن عرب ومن عجم

و كذلك بعبد الرحمن بن الجوزي حيث يقول:

هـــــو سيّد الكونين سيّد هاشم مـــــا في سيادته عليه خفاء(2)

ويظهر أيضا أنّ الشاعر كان متأثرا بعليّ السخاوي والصرصريّ ، اللذين كان يصرّحان بذكر اسميهما في المدائح النبويّة، فالبرعي لا يكاد يترك مدحة نبويّة إلا يذكر فيها اسمه،

[1] ـ المصدر السّابق ، 58-59.
[2] ـ صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**،97.

ويأتي هذا في باب طلب الصفح من الرّسول،لنفسه ولغيره من الأصحاب والإخوان، يقول:

فاعطف حنانـــــا على عبد الرّحيم ومن يليـــــه في الناس من صحب وإخوان

ويطلب من الرسول أن يقيله من عثرته، وذلك عن طريق منحه كتاب براءة من النار برفقة والديه، وأن يجيزه كرامة الدّارين مكافأة لمدائحه، يقول:

فأقل عثـــــــار عبيدك الدّاعي الذي يرجـــوك إذ راجيـــــك غير مخيّب
واكتـــــــب لـــــه ولوالديه براءة من حرّ نـــــار جهـــــنّم المتلهّب
واقمع بحـــــــولك باغضيه وكلّ من يؤذيه مـــــــــن متمرّد متعصّب
وأجز بهـــــــا عبـد الرّحيم كرامة الدّ ارين إذ هي خيــــــــر نظم معرب
واشفع لـــــــــه ولمن يليـــه وقم بهم في كـــلّ حـــــال يا شفيع المذنب
وعليك صلـــــــــى ذو الجـــلال أتمّ ما صلى وســــلم يـــا رفيع المنصب
وعلى صحابتــــــك الكـرام وآلك الـ أعلام أهـــــــل الفضل كلّ مهذّب
ما غرّدت ورق الحمـــــــام وما انثنت عذب البشام ضـــحى بروح الأرنب([1])

ويقوم البرعي بتعداد معجزات النبي في مواضع كثيرة من مدائحه النبويّة، فيذكر انشقاق القمر، وتظليل الغيم، وحنين الجذع إليه، و تسبيح الحصى بين يديه، وشاة أمّ معبد ، ويحشد تلك المعجزات في أغلب الأحيان في بضعة أبيات، يقول:

البدر شـــــــــقّ له والغيــــم ظلله والجـــذع حـــنّ وسبّحن الحصيّات
وشاة جابر يـــــــــوم الجيش معـــجزة نعم النبـــيّ ونعـــم الجيش والشاة([2])

ويظهر البرعي الحقيقة المحمدّية جريا على عادة الصّوفيّة، فمحمد نور امتدّ من عهد آدم انتقل من رحم إلى رحم حتى وصل إلى آمنة التي وضعته، ونشأ في بني هاشم، وترعرع فتى ثمّ طفلا، وتوفي وهو كهل، ولكن آثاره ظلت علامة على الكون، فالحنفيّة السّمحة شاهدة عليه،وبها نسخت الملل والأديان جميعا، يقول في لاميّته: [البسيط]

---

[1] ـ عبد الرّحيم البرعي، **شرح ديوان البرعي**، 65.
[2] ـ نفســـــــــه ، 162.

ما زال بالنـــــــــور من صــلب إلى رحم   من عهـــــــــد آدم في السّادات ينتقل
حتى انتهى في الذرى مـــــن هاشم وسما   فتى وطفـــــــــلا توفي وهو مكتهل
فكان في الكـــــــون لا شكـــل يقاس به   ولا على مثـــــــــله الأقطار تشتمل
بـــــــــه الحنيفة مرساة قواعـــــــدها   فـــوق النجوم ونهـــج الحقّ معتدل
ومنـــــــــه ظـلّ لــوء الــحمد يشملنا   إذا العصـــــاة عليهم من لظى ظلل
وإنه الحـــكم العـــــــدل الذي نسخت   بدين ملتـــــــــه الأديان والملل([1])

وبما أنّ البرعي أحد المتصوفة فليس من الغريب أن تصبغ مدائحه النبويّة بصبغة الصّوفيّة، لذا نراه يميل إلى الرمزيّة الصّوفيّة، ويأتي بالاستعارة و التورية والكناية، وبذلك نراه يؤصّل مبدأ الصّوفيّة في شعره ، ومع ذلك يظهر قدرة فائقة في التعبير عن معانيه بكلّ سهولة ويسر، ولا يغرق الشاعر في الألفاظ الوعرة ، وتصل إلى حدّ الإسفاف، وفي المجمل جاءت مدائحه كالماء تنساب انسيابا، واتبع البرعي فيها أسلوب الواعظين الدّعاة .

شمس الدين النواجي([2]) :

يعجّ ديوان النواجي بتلك القصائد التي امتدح فيها النبيّ محمدا، حيث كان النواجي كثيرا ما يرد الحضرة الشريفة، وفي كلّ زيارة يجدها مناسبة شريفة ويقوم بإلقاء مدحة نبويّة بين يديّ قبر الرّسول، يعبّر فيها عن شوقه للنبيّ وصحبه ، وقد بلغ من حبّه للنبيّ مرتبة سامقة، إذ قد كوي بنار الحبّ وجزع قلبه، وخارت قواه ، حتى كأننا نقف بين يدي شاعر ولهان يعاني تباريج الهوى ولوعة الحبّ من حبيب أعرض وجفا، وهذه مزيّة متكررة في قصائد النواجي النبويّة.

---

[1] ـ البرعي، شرح ديوان البرعي،168-169.

[2] ـ هو محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي الشافعي، منسوب إلى نواج من غربيّة مصر، درس الفقه والعربيّة، وحفظ القرآن الكريم مما أهله أن يكون مدرّسا، اتصل بحكام المماليك ومدحهم، له مؤلفات عديدة ومتنوّعة في العروض واللغة والبلاغة والنقد والنحو، اعتنى أستاذي الفاضل حسن عبد الهادي بتحقيق ديوانه كما حقق له المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة، وصحائف الحسنات في وصف الخال، وكتاب الشفاء في بديع الاكتفاء، توفي النواجي سنة ثمانمائة وتسع وخمسين هجريّة. ينظر السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، 231/7-232. حاجي خليفة، **كشف الظنون**، 2/ 1052. و البغدادي، **إيضاح المكنون**،497/2. والبغدادي، **هدية العارفين**، 200/2-201.

وبما أنّ النـواجي مولع بالبلاغـة العربيّة وبفنونها، فـلا ضير أن تظهـر تلـك الفنـون في قصائده النبويّة،خاصة أنه كان يعنى بالمحسّنات البديعيّة، مثل التوجيه والتورية، ومراعـاة النظير، وطباق ومقابلة ، إلى غير ذلك من فنون([1]) .

ويطلب النواجي ممن يذهب في رحلة إلى الحجاز أن يحمل شوقه وحنينه لذاك الحبيب، فللرسول منه تحيّة، ويظهر الشاعر تفننه في التغزل بالديار الحجازيّة، وجعله في هذه القصيدة عوضا عن التغزل بالمحبوبة، يقول: (الخفيف)

عللـــــــــوه بـــــــــــــطيبة وبرامة   وعـــــــــريب الـنقا وحـــــيّ تهامه
واحمـــلوا منـــــــــــه للحبيب سلاما   فعلى الـحـــــــبّ ما ألــــذّ سلامه
يا رعــــى الله جيـــــــــــرة خيّموا بالـ   منحنى مـــــــــن ضلوعـــه المستهامة
وبوادي غضا الجـــــــــــوانح شبّوا   جمر نـــار القــــــرى وأذكوا ضرامه
ليــــت شعـــــــري ـ وهم بقلبي نزول ـ   كيـــــــف خانـــــوا عهوده وزمامه
هم حـمـــــــــوا بالـحمى عقيلة خدر   فتنت باللــــــــــــحاظ غزلان رامه([2])

وعن فضل الرّسول، حيث يبيّن مكانته السّامية التي يزهو بها على بقيّة البشر، فهو من أتى بالدين الواضح، وأزال ظلم الجهل اللافح، وبدّد جهل الأمّة الجانح ، وبذلك هو نعم النبيّ الناصح، طهر القلوب من دنس، وأبعد عنها كلّ رجس، يقول في قصيدته التي ألقاها سنة أربع وثلاثين وثمانمائة: [البسيط]

محمد أحمـــــد المختـار أشرف من   دعـــــــــا إلى طــاعة الرحمن داعيه
ومن هدانــــا إلى الإســــلام متبعا   رضى الإلـــــــــــــه بتنزيل وتنزيه
ومن أتانا بدــــين واضــــــح فجلا   غياهب الشرك وانجـــــــابت دياجيه
خير النبيين لا شـــــــيء يشابـــهه   مـــن الأنـــام ولا ضــــــــدّ يضاهيه
رسول صدق بــــراه الله غيث ندى   فمرســــل الرّيـــــــح جودا لا يباريه
وكان أجود مخلـــــــوق وأجود ما   يكـــون في رمضـــــــان بات يحييه
كم شدّ مئزره فيـــه وقـــــام على الـ   أقــــــــدام في خدمـــة المولى يناجيه

[1] ـ ينظر شمس الدين النواجي، **المطالع الشمسيّة في المدائح نبويّة**، 62-63.
[2] ـ حسن عبد الهادي، **دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه**، 15/2-16.

يبيت عند إله العـــــــــــرش يطعمه ممـــــــــــا لديـــــه بلا كيف ويسقيه

بحر رأينا الوفا مـــــــــن راحتيه فما أصـــــابع النـــيل إن جـــادت أياديه([1])

وفي معرض حديثه عن معجزات النبيّ الباهرات، يبيّن أنها جاءت ردّا على قريش وغيرها ممن كفر وأجحف بالنبيّ كفرا وتكذيبا، ثمّ يذكر بعض المعجزات الظاهرات مثل: انشقاق البدر، والإسراء والمعراج، ووجود النبيّ واختياره كان المعجزة الكبرى، يقول: [الكامل]

سألت قريـــــــش أن يريـــهم آية كبرى فأظهرهـــــــــــا لهم في الحين

وأشار للبدر المنـــير فشـــــــقّ في كبد السّماء وعـــــــــــاد كالعرجون

أسرى بـــــــــه الرّوح الأمين لربّه بمقـــــــــام صــــدق لا ينال مكين

وحباه رؤيتـــه تعالــــــــى جلّ عن كيف وعـــــن جهـــــــــــة وعن تعيين

وعليه قد فــرض الإلــــــه صلاته خمســــــــــا تحــوز فضيلة الخمسين

من مثلــــه والله أقســــم باسمه طـــــــــــه وأنـــــزل مدحه في نون

ولكم له مـــــــن آيـــــة تتلى على صفحـــــــــــات أيام ومـــرّ سنين([2])

والنواجي من الشعراء الذين عبّروا عن واقع معيشتهم، فقد تعرّض في مدائحه النبويّة لما أصاب أبناء بلده من طاعون وعدم وفاء النيل ، إذ سجّل شكره لله ، وصوّر فرحة الناس ، وأظهر مقدار بهجتهم عندما أفاض النيل ومنح الناس الخصب والنماء [3]،فهو يلجأ إلى جناب الرسول أملا في الشفاعة وطلب الرحمة، يقول في قصيدته التي ألقاها في الحضرة النبويّة الشريفة، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة هجرية: [البسيط]

هـــــــذا العقيـــق وهذا البان والعذب وهـــــــذه الحـــلة الفيحاء والكثب

فخلّ طرفــــــــــك يقضي في منازلها دين اللقـــــــــا ويؤدّي بعض ما يجب

يا للهنا نلنــــــــــــــا المنى ونأى عنـــــــــا العنـــاء وزال الهمّ والتعب

هي المنازل إن شطـــــــت وان بعدت فلي بطيـــــــــب شذا نعمانها طرب

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 41/2.

[2] ـ نفســــــــه ، 2/ 95.

[3] ـ حسن عبد الهادي ، **دارسة شعر شمس الدين النواجي، مع تحقيق ديوانه**، 1/ 173.

وما نأت عـــــــــن محبّيهـا ولا خفيت لكنّهـــــــــا بسنا الإجـــــلال تحتجب([1])

وعندما غلت الأسعار، وحدث القحط بمصر، فإنه يتوجّه إلى ربّ العلا يشكو متضرعا، ويسأله الرّخاء بعدما حدثت الشدّة، والحنان تلو الحنان يا غيّاث الورى، فالخلق جميعا أصبح مبتلى، يقول في لاميّته: [الطويل]

لربّ العلا نشكـــــــو أذى الـقحط والغلا   ومـــــــــــا مسّنا فيه من الضرّ و البلا
ونسأله في البـــــــأس والـــيأس والرّجا   رخـــــاء فقـــــــد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخـــــــــص الأرواح لمـا تسعّرت   بمـــــــور ضرام في صميم الحشا غلا
ودارت رحــــــاء الجـــدب في كلّ بلدة   وما تركـــــــت للخصب في مصر منزلا
فلا بَرّ يـــــــــرجى منـــــــه بِرّ ببرّه   و لا بحـــر ريّ طـــــــاب عذبا وسلسلا
ولا عيـــــــن أرض قـــد بكت فتفجّرت   علينـا ولا دمــــع من الغيث أهملا([2])

ويأتي هذا ضمن حسّ الشاعر الوطني بما آلت إليه أوضاع الأمّة، ومن هنا يأتي دور الشاعر الأساس، وهو عمق الشعور الوطني، والحرص عليه ،وقد جاء هذا الشعور ممزوجا بالشعور الديني ، وعاطفة دينيّة فيّاضة .

و في بيان فضل الصحابة والأعوان والمناصرين يذكر النواجي أنهم السبب في نصر الدين وجهاد الأعداء، وقد انتدبهم الله لقطع دابر القوم الظالمين، فقد استخدم النواجي التوجيه بأسماء سور القرآن الكريم ويلاحظ مقدار التوفيق الذي صاحبه في هذا الفنّ البلاغي، يقول: (البسيط)

وأيّـــــد الله في الدنيـــــــا شريعته   بســــــــادة مـــن حماة الدين أبطال
باعوا النفوس ودنيـــــــــاهم فإن قتلوا   لا يأســـــــــــــفون علـــى روح ولا مال
هم جاهدوا في سبيـــــــل الله وانتدبوا   لقطـــــــــــــــــع دابر قوم فيه ضلال
بالنصر والفتـــــــــح ربّ الملك أيّده   وفي القتـــــــــــــال حباه خير أنفال

---

[1] ـ المصدر السّابق، 2/ 68.وينظرشمس الدين النواجي، **المطالع الشمسية في المدائح النبوية**، 134.

[2] ـ حسن عبد الهادي، **دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه**، 117/2. وينظر شمس الدين النواجي، **المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة**، 182.

فبالحديد سبـــــــــــــــى أحزابهم زمرا وزلـــــــــزل الأرض منهم أيّ زلزال([1])

أمّا بالنسبة لمدى تأثره بمن سبقه من الشعراء، فهو يظهر إعجابه بكعب وبلاميّته، ويظهر قدرا من التواضع أمام لاميّته،يقول: [البسيط]

ولم أعـــــــارض بقـــولي من تقدّمني منـــــــــــهم وإن عذبــت مني الأقاويل
كعب له في مديـــــــح المصطفى قدم سبّاقـــــــــــة وبخيـــر الخلق تفضيل
وروضة ابن زهير طـــــــــاب مغرسها فزهـــــــــرها بنــدى كفيه مطلول
وإن نسجت على منـــــــــوال بردته طـراز مـــــــــــــدح له بالدرّ تكليل
فإنه كان مفتاحــــــا لبـــــــاب هدى لنا بـــه في ديـــــــــار الخلد تأهيل
إن لم أفز بقبــــــــــــــول في متابعتي (بانـــــت سعاد فقلبي اليوم متبول) ([2])

وفي قصائد كثيرة يبدو تـأثر الشاعر بـابن الفـارض واضحا وكبيرا،ففـي بـاب المعارضـة، نرى أنّ ابن الفارض يقول: [البسيط]

مـــــــــا بين معترك الأحــداق والمهج أنـــــــــا القتيل بــلا إثم ولا حرج([3])

يقف النواجي معارضا ابن الفارض فهو يقول :[البسيط]

حيّ المنـــــــــــازل ذات الشّيح والأرج وانشـــــــد فؤاد مشوق للديار شجي([4])

ويبقى النواجي من الشعراء الذين نظموا غرر المدائح النبويّة، بقطع النظر عن مقدار تأثره بمن سبقه أو لا ، وإنما اختار لمدائحه منهج السهولة والبعد عن التعقيد ، مما جعل من تلك المدائح قريبة إلى الذهن،موافقة لفنّ المديح النبوي بشكله العام الذي اختطّ من السهولة والوضوح سبيلا للوصول إلى الغاية والمأرب المقصود .

---

[1] ـ حسن عبد الهادي، **دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه**،134/2. وينظر شمس الدين النواجي، **المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة**، 199.
[2] ـ حسن عبد الهادي، **دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه**، 25/2.وينظر شمس الدين النواجي، **المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة**، 89.
[3] ـ حسن البوريني وعبد الغني النابلسي، **شرح ديوان ابن الفارض**، 58/2.
[4] ـ شمس الدين النواجي، **المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة**، 122.

عائشة الباعونيّة[1] :

بشوق المدنف ووصف الطبيب، تتألق الباعونيّة في مديحها لسيّد البريّة، وبحرقة في الهوى لا ريّ لها إلا بالوصل مع الحبيب، فبعد أن تمادى الهوى واستفحل الدّاء جاء الدّواء، وكان بالمدينة اللقاء، تقول : [الرّمل]

قال لــــي الآسي وقـــد شفّ الضنى   وتمـــــــــــــادى الدّاء من فرط الهوى
لا شفا إلا بتريـــــــــــــاق اللقا   أو برشف الشهـــــــــــــد من ذاك اللمى
آه وا حــــــــــرّ غليـــلي في الهوى   وبغير الوصـــــــــــــل ما لي قطّ ري
يا تـــــــــرى هــــل تسعفوني بالمنى   قبل موتــــــــــــي وأرى ذاك المحي
مـــــــــا قلوني لا ولكــــــن قد شووا   بالجفا والصّــــــــــــدّ قلبي أيّ شي[2]

و بكلمات محمومة، تدلّ على شوق يخالطه التوجع والحزن،تظهر الشاعرة تفجّعا فكأننا أمام عاشق متيّم ينتظر بشغف لقاء الحبيب، وهذا لا يصدر إلا ممن شفه الوجد .

وبلغ من عائشة الشوق إلى الديار الحجازية مبلغا عظيما لا يدانى ولا يجارى، ولأنها مشغوفة بتلك الدّيار أصبحت علامة مسجلة، ومشهورة كالعلم، وبقلب مخلوط بنار الحرقة ولوعة الشوق، إذ نار اللوعة متأججة ولا يشفيها إلا الوصول للحجاز ، ونيل الوطر ، بمشاهدة الساكنين، وإلقاء التحيّة عليهم، تقول في بديعيّتها: [البسيط]

في حسن مطـــــــــلع أقماري بذي سلم   أصبحـــــــــت في زمرة العشّاق كالعلم
أقـــــــــول والدّمع جـــار جارح مقلي   والجـــــــــار جـــارَ بعذل فيه متهم
يا سعـــــــــد إن أبصرت عيناك كاظمة   وجئـــــــــت سلعا فسل عن أهلها القدم
أحبّـــــــــة لم يزالـــــوا منتهى أملي   وإن هـــــــــم بالتنائي أوجبوا ندمي

---

[1] ـ هي عائشة بنت يوسف الباعونيّة، نسبة إلى باعون إحدى قرى عجلون الأردنيّة، ولدت في دمشق ، حفظت القرآن الكريم وهي في سنّ مبكرة، تلقت العلوم الصّوفيّة على شيوخ عصرها ، انتقلت إلى القاهرة، حيث أجيزت بالإفتاء والتدريس، لها مؤلفات عديدة منها : الفتح الحقي من منح التلقي، الملامح الشريفة والآثار المنيفة، القول البديع في الصّلاة على الحبيب الشفيع، توفيت سنة تسعمائة واثنتين وعشرين هجريّة. ينظر حاجي خليفة ، **كشف الظنون**، 1234/2. والزركلي، **الأعلام**، 241/3. و **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 438/15. وعمر فرّوخ، **تاريخ الأدب العربي**، 926/3-930.و عمر رضا كحالة، **أعلام النساء**،196/3-197.

[2] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة** ، 262/4-263.

كيف السّلوّ ونـــــــــــار الحبّ موقدة   وســط الحشا وعيون الدّمـع كالدّيم([1])

وهي مدحة سامية بمدح الحبيب، ومجلية لوجوه البديع، تلمست فيها منشئتها غايتين وقضت بها وطرين، وبرعت فيها ، وهما مدح الحبيب محمد لتنال ما تصبو إليه بطلب الشفاعة والضّراعة، وذكر أفانين البديع المختلفة التي أوردتها في القصيدة، خدمة للغة القرآن الكريم.

وتظهر الشاعرة قدرة فائقة في وصف محاسن الرّسول، فالألسنة تقف عاجزة، والشاعرة مجنونة بذاك الحسن،فقد وصفت وجنته، وقوامه، وجبينه، وثغره، وأنفاسه، كلّ ذلك ائتلف على شكل لوحة فنيّة غزليّة متسقة الجوانب، أبدعت فيه فنانة وضاهت به أعظم شعراء المديح النبوي، تقول من القصيدة نفسها: [الرّمل]

وحبيبي قــمـــــــــر متــســق   في سنـــــــاه الشمس أضحت كالهُبَي([2])
ذو قوام قام عــــــــذري في الهوى   مـــــــــذ تبـــدّى من ثنيّات اللوي
وجبين هلّ سعـــــــــدي مذ بدا   متســــــــــــام عــــــن هلال بسمي
ولمــــــاء الحسن فــــي وجنته   رونــــــــــــق يربـــو على ورد الرّبي
كــــــــلّ درّ وعــــقيـــق دون مـا   حـــــــــــاز ذاك الثغـر من وصف وزي
واللمى أفديــــــــــه عن معسوله   قصّــــــــــــر الشــــهد ولم يأت بشي
وعبيــــــــر المسك مــــن أنفاسه   لم يـــــــــزل يـــروى ولم يحك الثري
ولعمري كــــــــلّ حسن في الورى   قاصر عــــن حســـــــــن جدّ الحَسَني
أحمد الهـــــــادي إلى دين الهدى   ببيــــــــان محـــــكم من عند حي ([3])

وتلجأ الشاعرة إلى جناب الرّسول لتأمن الخوف، وتنجو من الذنب، فالرسول غيث، ومسحته كافية لمحو المحن والهموم، ففي قصيدتها التي أتت على منوال ميميّة ابن

[1] ـ ابن حجّة الحموي، **حاشية خزانة الأدب وغاية الأرب**، نسخة دار القاموس الحديث، 311ـ 317. وينظر يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**،262/4.
[2] ـ الهبا : ما يرى في شعاع الشمس. الفيروزآبادي ، **القاموس المحيط**، 236/1.(هبب)
[3] ـ يوسف النبهانيّ، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 264/4.

الفارض، نجد أنّ الشاعرة تتفق معه في كونها اتخذت الصّوفيّة نهجا وطريقا، تقول في ميميّتها: (البسيط)

كـــــم أعقبت راحـــة باللمس راحته   وكم محـــا محنـــــة ريق له بفم
وذكره كـــــــاد لولا سنّة سبقت   إذا تكـــــــرّر يحيي بالي الرّمم
قالوا هو الغيث قلـــــت الغيث آونة   يهمـــي وغيــث نداه لا يزال همي
جرّدت حجّي له مـــن كـــلّ مفسدة   ولم تـــزل بالصّـــفا تسعى له قدمي
طه الذي إن أخــــف ذنبي ولذت به   أمنت خـــــوفي ونجّاني من النقم([1])

انظر إلى جمال التورية في قولها(ولم تزل بالصّفا تسعى له قدمي)، في كلمة الصّفا هي منسك مناسك الحجّ، وتعني سلامة النيّة والنقاء، فحجّها خالص لله ، ولا تفسده مفاسد الدّنيا مهما كان نوعها ، وهذا دليل على النيّة الخالصة لله دون سواه.

على ما أوردناه من أبيات نبويّة في قصائد مديح النبي محمد فيبدو أنّ الشاعرة كانت متأثرة بشكل لافت بابن الفارض، لهذا ذهب عمر فرّوخ إلى القول: " كانت عائشة الباعونيّة عالمة وأديبة بارعة وشاعرة مجيدة، وكان أكثر شعرها بديعيّات تتكئ فيها على ابن الفارض من حيث المعنى والبوصيري من حيث اللفظ والمعنى" ([2]).

عبـــد الغني النابلسي([3]):

تظهر النزعة الصوفيّة جليّة في مدح عبد الغني النابلسي، ولكنه لم يأت بجديد على صعيد مفردات المدحة النبويّة، وإنّما نجد أنه ظلّ يترسم خطى الشعراء السّابقين في

[1] ـ المصدر السّابق ، 4/ 265.
[2] عمر فرّوخ ، **تاريخ الأدب العربي**، 927/3.
[3] ـ هو عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، من مواليد دمشق، أكبّ على طلب العلم وقرأ القرآن، درس على أيدي شيوخ عصره، تصدّر مجالس الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي، برع في التصوّف والأدب والرحلات، له مؤلفات عديدة منها : تعطير الأنام في تعبير المنام، كشف السرّ الغامض شرح ديوان ابن الفارض، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبيّ المختار ، توفي سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين هجرية. ينظر البغدادي، **إيضاح المكنون**، 553/2. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، 271/5. الزركلي، **الأعلام**، 32/4-33. و شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات ـ الشام**، 288-290.

إيراد مفردات المديح النبويّ الشائعة، ففي مطالع قصائده تتجلى المقدّمة الشوقيّة للديار الحجازيّة، وينتقل الشاعر إلى الثناء على الرّسول، ويقوم بتمجيده وتعظيمه، ويثني على فضله، والشاعر ممن نظم قصيدة نبويّة يعارض فيها قصيدة كعب بن زهير ، وقد جاءت على الوزن والقافية، يقول: [البسيط]

وفيك مرتبة مـــن بعـــد مرتبة تسمـــو ويسعد جيـــل بعـــده جيل
يــا طيب مولد من طاب طاب الوجود به وكــــان ذلـــك في عام به الفيل
جاءت به ابنـــة وهـــب والكمال غدا وشـــاحه وعليـــه العزّ إكليل
حتى أضاءت نـــواحي المشرقين به كأنمـــا شعـــلت فيـــه قنديل
وقـــام يدعـــو لديـــن الله أمّته حتـــى لــهم بان تحـــريم وتحليل
وقد تنكست الأصنـــام وانخذلت عبّادهـــا وانمحـــت تلك التماثيل
ويـــوم بدر رمـــى الأعداء فانهزموا بمثل مـــا رمـــت الطير الأبابيل
بالمؤمنين هـــو البـــرّ الرّحيم له عراقـــة في معـــاليه وتأصيل
صـــلاة ربّ عليـــه دائمـــا أبـــدا مـــع السّلام الـــذي لي فيـــه تطويل([1])

وجريا على عادة شعراء المديح النبوي في ذكر المعجزات التي برزت بظهور محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وكانت مؤيدة له في صدق دعواه، وهي كذلك دليل على تميّزه، فقد أدلى عبد الغني النابلسي بدلوه وأخذ يعدّد بعضا من تلك المعجزات، يقول في ميميّته: (الطويل)

وأعطـــاه مـــا لم يعطه أحد ومن مناجـــاته كـــأس له ونديم
بشاة وصـــاع من شعير كفى لدى المجا عـــة ألـفـا والعـــجين مـــقيم
وقد ردّ عينـــا بعدمـــا قلعت على قتـــادة حتى راح وهـــو سليم
وأصغت إليـــه الجـــنّ تحفظ ما تلا وفـــي قومـــها ديـــن الإله تقيم
وكان علـــى الصّخـر الأصمّ إذا مشى تغـــوص بـــه أقدامـــه وتقوم
وقد عرفتـــه المؤمنـــون وقد بدا علـــى قـــدرهم والله فيـــه عليم([2])

---
[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**،125/3.
[2] ـ نفســـه ، 4/ 121.

وتراوح ذكر المعجزات عند الشاعر في بيتين، أو ثلاثة، وجاءت في ثنايا ذكر الشاعر وحديثه عن فضائل النبيّ، وفي معرض حديثه عن الصفات الحسيّة، فإنه يطلق مجموعة كبيرة منها، فالرسول أكحل، وجميل المحيّا ، وأزهر اللون، وأسنانه ناصعة بيضاء، وضخم الكفين، وفي عينيه سواد، وخدّاه تقطران حسنا وجمالا، يقول: [الخفيف]

البشير النذيـــــــر خيـــــــــر البرايا   موســــــــع العالميــــــن أمنا ويمنا
دائـــــــم البشر أدعـــــج شثن الكـ   ـفيـن سهــــل الخــــــدّين يقطر حسنا
أكحـــــــــل أبلــــــج جميـل المحيّـا   أزهـــــــــــر اللـون أشـنب الثغر أقنى([1])

ومع تغنيه بتلك الصّفات إلا أنه كان مؤدبا ومحتشما مع جناب النبيّ ، وإطلاق تلك الصّفات غاب عند شعراء المديح النبوي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وها هو يعود من جديد عند الشاعر عبد الغني النابلسي ، مع أنه جرى على أنه عادة عند الشعراء الذين عاصروا الرسول، وظهرت بجلاء ووضوح وتغنى بها شعراء العصرين الزنكي والأيّوبي .

ويجعل النابلسي من الرسول سببا في تفريج الكرب التي تلم بالمسلمين، وهو سبب في إزالة الهمّ والتعب، لهذا نراه يلجأ إليه عله يكشف عن الكربة التي ألمّت به،وبنزعة ملؤها المسكنة يلوذ الشاعر إلى جناب الرّسول متضرّعا قائلا: [البسيط]

يا سيّد الأنبيـــــــا والرّســـل أجمعهم   يا مـــــــن به زال عنــا الهمّ والتعب
يدعوك مســـــــكينك العبد الذي بطشت   أيدي العبـــــــــاد به والقلب مكتئب
فاكشف له كــــــــربة أودت بمهجته   يا خير مـــــــــن كشفت عنّا به الكرب
وما دعوناك في تفـــــــــريج شدّتنا   إلا لأنّـــــــــــك في تفريجها سبب
وأنت باب العطا والجـــــــود يـا أملي   بك الإلــه علــــــى طول المدى يهب
صلى عليك الذي أهـــــــــداك تكرمة   للخلــق تقضي بــك الأيّام ما يجب([2])

---

[1]- المصدر السّابق ، 4/ 193-194. وأقنى : في قصبة أنفه احديداب قليل.
[2]- نفســــــــــه ، 1/392-393.

وفي بديعيّته التي بلغت مائة وخمسين بيتا واشتملت على مائة وخمسة وخمسين نوعا من الأنواع البديعيّة، وأطلق عليها (نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبيّ المختار) وجاءت على طريقة الأقدمين ، بعدما حرّكته الأفكار،وجاذبته الخواطر اقتحم المضمار وأنشأ بفضل قريحته نسمات الأسحار، وأتبعها بشرح مستوف لوجوه الغرابة الواردة فيها([1]).

وتلك البديعيّة من البحر البسيط، وهي معارضة لقصيدة ابن الفارض الميميّة، فتجلى في مطلعها الشوق للديار، وبذلك وافقت الذوق في براعة الاستهلال أو المطلع عند البلاغيين،يقول الشاعر:

يا منـــــــزل الرّكـــب بين البان فالعلم   مـــــــن سفـــح كاظـــمة حييت بالديم
هــــــــذا مديحي فإن نلـــــت القبول به   سعـــدت أولا فحسبي مـــوقف التهم([2])

وله بديعيّة أخرى، أسماها (مليح البديع في مدح الشفيع)، ولم يزد عن سابقتها من فنون البديع شيئا، يقول فيها:

يا حســــــن مطلع من أهوى بذي سلم   براعـــــــــة الشوق في استهلالها ألمي([3])

وللنابلسي مخمّسات نبويّة يظهر فيها مدى حبّه وتعلقه بحبيبه، فهو صبّ لفرط وجده يظهر صبابته، ويشارك أهل اللوعة والصّبابة في ذلك ، ولكنه يتعلق بالنبيّ ، فهو من سلب لبّه، وهو طبيبه ، يقول:

حبيبي إننـــــــــــي مسلـــــوب لبّ   ودائـــــــــي منـــــك موعـــود بطبّ
وقـــــــد أصبحت من وجـــد وحبّ   أشـــــــــارك في الصّبابـــة كلّ صبّ
إذا مـــــــا الليل جَـــــــــــنّ عليه جُنّا

[1] ـ ينظر عبد الغني النابلسي، **نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبيّ المختار**،3-4.
[2] ـ نفســـــــــــه ، 4.
[3] ـ علي أبو زيد ، **البديعيّات في الأدب العربي**، 128.

ويبقى القول إنّ النابلسي من الشعراء المتيّمين بالنبيّ ومدحه ، وإن لم يضف جديدا، فالمعاني التي أوردها في مدائحه طرقت من قبل ، والمفردات التي حوتها مدائحه حوتها قصائد السابقين، ولا يخفى علينا نفس النابلسي في معارضاته خاصّة في بديعيّتيه .

البـــارودي([1]):

عدّ البارودي من الشعراء الذين بثوا دماء جديدة في الأدب العربي الحديث، نظرا للنفس الشعري الذي تميّز به،ومنهم من نظر إلى البارودي على أنه حلقة الرّبط بين الماضي وما حمل في ثناياه على نطاق العربيّة وفنونها ، وبين الحاضر الذي تعرّضت فيه الأمّة العربيّة والإسلاميّة إلى صنوف من الغزو، العسكريّ منه والفكري الذي رمى من ورائه بنو الأصفر إلى طعن الأمّة في لغتها وحضارتها، وتوجيه سهاهم إلى اللغة العربيّة التي هي أمّ البيان، فانبرى العلماء والمدافعون لصدّ مثل تلك الهجمات، وقام الشعراء بدورهم على الوجه الأفضل، فكان البارودي، وشوقي، والجواهري، وغيرهم من أبناء الأمّة الغيورين عليها، والحريصين على ديمومتها واستمراريّتها، إذ ساروا بخطى واثقة نحو التهام الماضي، وبثّ روح التجديد في العصر الحديث على نطاق الشعر، في مضامينه، وجوانبه الشكليّة.

وعلى هذا النحو مضى البارودي، فقد كان نعم الممهد لتطوّر الشعر العربيّ الحديث، فبعد أن اطلع على تراثنا القديم الذي استهواه كثيرا، دأب عاكفا على نظم الشعر الذي يدلّ على براعة ومقدرة تحسب لصاحبها، وتصل به إلى مصاف شعراء العصر الحديث.

[1] ـ هو محمود سامي بن حسن حسني عبد الله البارودي المصري، جركسي الأصل،أحد القادة الشجعان، نسب إلى إيتاي البارود بمصر، رحل إلى الأستانة فأتقن الفارسيّة والتركيّة، شهد حروبا عديدة، شغل مناصب عديدة انتهت إلى رئاسة النظار، نفي إلى جزيرة سيلان بعد مساندته لثورة أحمد عرابي، عاد إلى مصر بعد أن كفّ بصره، له ديوان شعر كبير، توفي سنة ألف وتسعمائة وأربع ميلاديّة. ينظر الزركلي، **الأعلام**،171/7. وشوقي ضيف، **البارودي رائد الشعر الحديث**،46 - 52 .

والبارودي ممن نظم في المديح النبوي، نظرا لتديّنه لا سيّما في سنواته الأخيرة من عمره، فقد استفاد من الشعراء القدامى في أبهى عصور الشعر العربي، فعمل على معارضتهم . وديوانه يعجّ بالمعارضات لأشهر الشعراء في الحقب المختلفة ابتداء من العصر الجاهلي، مرورا بالإسلامي والأمويّ وصولا إلى العصرين العبّاسي الأوّل فالثاني، وانتهاء بالبوصيري . على نطاق القصائد النبويّة التي عدّت في ميدان السبق على هذا الصّعيد، فقد عارض قصيدة البوصيري، الذي بدوره عارض ابن الفارض في ميميّته الشهيرة.

ويفتتح البارودي مدحته النبويّة بذكر المواضع والتغني بها جريا على عادة الشعراء الذين سبق وتغنوا بها في العصور السّالفة، فالشاعر يقرئها السّلام والتحيّة، ويزجيه مع البرق والرّيح، ثمّ ينصرف للحديث عن النسيب، وذلك تقليد متبع، مع أنّ الشاعر يعترف بأنّ النسيب جاء تقليدا فقد، ولا يقصد لذاته، فهو يفتتح قصيدته قائلا: (البسيط)

يا رائـــــــــــد البرق يمّم دارة العلم   واحـــــدُ الغمام إلى حيّ بـــذي سلم

وقد تتبّع الشاعر حياة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم منذ مولده، وذكر بشائر ميلاده، وفي ذلك جاء مجاريا للنمط الذي اتخذه الصرصريّ في مدائحه النبويّة،فهو يتحدّث عن بشائر الميلاد والنبوّة، ويذكر قصّة شرح الصّدر عندما كان الرسول يرعىالأغنام عند أخواله من بني سعد، فجاءه جبريل وطرحه أرضا، ثمّ أخرج من صدره العلقة السّوداء، وفي ذلك تطهير لقلب الرّسول من الأحقاد والأهواء، يقول:

فبينما هـــــــــو يرعى البهم طاف به   شخصان مـــــــن ملكوت الله ذي العظم
فأضجعاه وشقا صـــــــــــدره بيد   رفيقة لـــــــــم يبـــــت منها على ألم
وبعدمـــــــــا قضيا مـــن قلبه وطرا   توليا غسلـــــه بالســـــــلسل الشبم
مـــــــا عالجا قلبه إلا ليخلـص من   شـــــوب الهـوى ويعي قدسيّة الحكم([1])

[1] ـ محمود سامي البارودي، **كشف الغمّة في مدح سيّد الأمّة**، 47-48

أمّا على صعيد حديثه عن المعجزات التي هي من المفردات المهمّة في المدائح النبويّة في جميع العصور، فالبارودي تناولها كما تناولها السابقون، فقد ذكر بحيرا الرّاهب ونبوءته حول الرّسول ورسالته، وتحدّث عن الغمامة التي لازمته في أسفاره، وذكر أيضا أغصان الأشجار التي ما فتئت يوما تحنو عليه بظلالها الوارفة، يقول:

وقـــــــال عنـــه بحيرا حين أبصره   بأرض بصـــــــــرى غيــــر متهم
إذ ظللته الغمـــــــــام الغرّ وانهصرت   عطفا عليـــــــه فروع الضّال والسّلم[1]

ويتعرّض بالحديث عن المعجزة الكبرى، ثمّ ينتقل بالحديث عن الهجرة المحمديّة من مكة إلى المدينة، ويعرج إلى الغار والحمام، وكيف حماه الله ولم يهتد إليه كفار قريش، ثمّ ينتقل للحديث عن بناء دولة العزّ والرّيادة التي غدت العاصمة الأولى في تاريخ المسلمين، ومنها انطلقت الفتوح إلى أرجاء المعمورة، ولا يفوت البارودي الحديث عن غزوات النبيّ ، ولا يغفل الشاعر ترتيب الأحداث ترتيبا تاريخيّا، كما أجاد في وصف الـنبيّ بصفات القائد المحنك في ميدان الـوغى ، ويبرز في ذلك شجاعته،ويبيّن صبره واحتسابه، وكما يبرز الشاعر الرسول على أنه بطل المقاومة، يقول:

فلم يزل صابرا في الحـــــــرب يفثؤها   بالبيــض حتى اكتست ثوبا من العنم[2]
فهذه الغــــــــزوات الغـــــرّ شاملة   جمـــــع البعـــوث كدرّ لاح في نظم
نظمتها راجيــــــــا نيـــل الشفاعة من   خير البرايــــــا ومـــولى العرب والعجم
إنــــــــي مستشفع بالمصطفى وكفى   بـــــــــه شفيعا الأهوال والقحم
فاقبل رجائــــــــي فمالي من ألوذ به   ســــــواك في كلّ ما أخشاه من فقم[3]

ونراه يمتدح نفسه وشعره في البيتين الأخيرين، حيث قصد من ذلك المديح نيل الشفاعة لأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم سيّد الفريقين من عرب ومن عجم،ويلح

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 49.

[2] ـ العنم : شجرة حجازيّة لها ثمرة حمراء، يشبه البنان المخضوب، أو أطراف الخرّوب الشّامي. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 1503/2(عنم).

[3] ــ محمود سامي البارودي، **كشف الغمّة في مدح سيّد الأمّة**، 55 . فقم : لم يسر الأمر على استواء الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1508/2.(فقم).

البارودي على طلب الشفاعة ويمكن أن نعزو ذلك إلى الأوضاع غير المستقرّة للشاعر فهو منفيّ في سرنديب ، ففي النفي معاناة ومكابدة للمشاقّ ، ويظهر الشاعر وحدته، من هنا ينطلق ناشدا الأمن ولا يخفي الشوق إلى المدينة حيث قبر الرّسول، يقول:

في بلدة مثل جـــــوف العير لست أرى   فيهـــــــا سوى أمم تحنو على صنم
لا أستقـــــرّ بهـــــــا إلا على قلق   و لا ألـــــــــــذّ بها إلا على ألم
إلا تلفــــــــــت حولي لم أجد أثرا   إلا خيـــــالي ولم أسمع سوى كلمي
فمن يـــــــــــردّ على نفسي لبانتها   أو من يجيـــــــر فؤادي من يد السّقم
ليت القطـــــا حين سارت غدوة حملت   عنـــــــــي رسائل أشواقي إلى إضم
كأنهـــــــــــا أحرف برقيّة نبضت   بالسّــــلك فانتشرت في السّهل والعلم
لا شيء يسبقهـــــــــا إلا إذا اعتقلت   بنانتـــي في مديح المصطفى قلمي ([1])

فالشاعر يحزن لما آلت إليه أوضاعه التي يتقلب فيها بحزن وشقاء، فهو لا يعرف أحدا في تلك البقعة التي نفي إليها، والقصيدة عبارة عن برقيّة - إذا جاز لنا إطلاق هذه التعبير- يحمّلها خالص شوقه ومودّته ولبانته، ولا يخفي ما يكنه لمصر من شوق مقرون بشوق للرسول محمد وحبّه له .

ونرى البارودي يعتذر عن ذلك النسيب الذي ابتدأ فيه مدحته، ويبيّن أنّ السبب وراء بدئه بالنسيب التزام التقليد المتبع والمتوارث عند الشعراء، حتى لا يحمل على إساءة الأدب مع الرّسول،يقول:

صدّرتها بنسيـــــــب شـــفّ باطنه   عن عفـــــــــة لم يشنها قـــول متهم
لم أتخـــــــذه جزافا بـــل سلكت به   في القـــــول مسلك أقــوام ذوي قدم ([2])

[1] - محمود سامي البارودي، **كشف الغمّة في مدح سيّد الأمّة** ، 45.
[2] - نفســـــــــــه ، 80.

ويقول محمود مكي حول هذا التبرير الذي أتى به البارودي: " وهذا تحرّج قضى به تزمّت مجتمعنا الحديث؛ فكعب بن زهير وحسّان بن ثابت قدّما لمديحهما بغزل لم يحتاجا معه إلى مثل هذا الاعتذار "([1]).

ويمكن القول بأنّ البارودي قد ساير الشعراء السّابقين في مدائحهم النبويّة، حيث التزم الأدب في نسيبه، وإن حاول أن يبرر بدايته به، وفي قصيدته حاول أن يضمّ في ثناياها أحداثا كثيرة هدف من ورائها إلى الاستقصاء، جريا على عادة بعض الشعراء الذين ساروا في هذا المنحى، وإضافة إلى ما سبق فإنّ الألفاظ التي انتقاها البارودي كانت منسجمة مع طبيعة الموقف الذي اختاره، وابتعد بذلك عن التكلف، ولم يعمد إلى التنميق والزخرفة اللفظيّة، وحمل البارودي في قصيدته عاطفة جامحة تنمّ عن وعي دينيّ وعاطفة قويّة.

أحمـــد شـوقي([2]):.

نظم أحمد شوقي عدّة قصائد يمتدح فيها النبيّ محمدا، وقد هدف شوقي من وراء مديحه للرسول، تذكير المسلمين بقائده الأوّل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه دعوة إلى التمسك بالدين الذي جاء به خير البريّة، وكذلك يذكرهم بضرورة الوحدة، ونبذ الفرقة، و بواجبهم المقدّس، وهو الجهاد ومغالبة النفس ونبذ التواكل.

إذا كان الهدف واضحا، فالنهوض من السّبات، والوقوف بشكل قويّ أمام تلك الأطماع الغربيّة، وهذا يبيّن مدى الحرص الذي قصده شوقي وأراد أن يؤصله في مدائحه النبويّة، أضف إلى ما سبق أن العصر الذي وجد فيه شوقي، يشبه إلى حدّ ما العصر الذي

---

[1] ـ **أدبيّات المدائح النبويّة**، 143.

[2]ـ هو أحمد شوقي بن أحمد شوقي، أمير الشعراء، ولد في كرمة بني هاني في القاهرة،شاعر البلاط في عهد الخديوي، درس في باريس، تدرّج في تلقد المناصب حتى أصبح رئيسا للقلم في عهد عبّاس الثاني، وبعد سقوط حكومة الخديوي، نفي إلى برشلونة في إسبانيا، عاد إلى مصر بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، له مؤلفات عديدة منها: مصرع كليوبترا ، ومجنون ليلى، قمبيز، علي بك الكبير، وغيرها، توفي سنة ألف وتسعمائة واثنتين وثلاثين ميلاديّة. ينظر الزركلي، **الأعلام**، 1/136-137. و ميشال خليل جحا،**الشعر العربي الحديث**،41- 59. و أحمد شوقي، **صفوة المؤلفات الكاملة ـ الشوقيّات ـ المقدّمة**،35-74.

تعرّضت فيه المنطقة إلى الهجمات الصليبيّة المتكرّرة ، على يد بني الأصفر، ومحاولاتهم العديدة لتطويع البلاد والعباد.

وقد أشار الباحث ماهر حسن فهمي في معرض تعليقه على معارضة شوقي للبوصيري قائلا : " وعصر الحروب الصّليبيّة هذا شبيه بعصر شوقي من حيث الصّراع الدائر بين الغرب والشرق ولذلك نجد في شعر شوقي ما نجده عند شعراء هذا العصر من فرح لانتصار المسلمين، والاستعانة بالرّسول ليأخذ بيد أمته"([1]).

وأشهر قصائد شوقي النبويّة شهرة، تلك القصيدة المسمّاة بنهج البردة، وهي معارضة للبوصيري، وتبلغ مائة وتسعين بيتا شعريا، ويبدؤها شوقي بمقدّمة غزليّة، بدا فيها شوقي مقلدا للشعراء السّابقين، إذ بلغت المقدّمة أربعة وعشرين بيتا، يقول: (البسيط)

ريم على القـــــاع بيـن البـان والعلم   أحــــــلّ سفك دمـــي في الأشهر الحرم
رمى القضـــــــاء بعيني جـــؤذر أسدا   يا ساكـــــن القاع أدرك ساكـــن الأجم ([2])
يا لائمي في هـــــواه والهــــوى قدر   لو شفـــــك الوجـــد لـم تعذل ولم تلم
يا ناعس الطّـــــرف لا ذقـت الهوى أبدا   أسهـــــــرت مضناك في حفظ الهوى فنم
الحاملات لـــواء الحســـــــن مختلفا   أشكـــــــاله وهـــــو فرد غير منقسم([3])

ويظهر في البيت الثالث بأنّ الشاعر قد تأثر ببيت ابن الفارض، والبوصيري في البيت الذي سقناه سابقا في معرض تأثر البوصيري بابن الفارض ، فالشاعر استلهم الماضي وأجاد فيه شوقي أيّما إجادة تدل على قدر كبير من الذوق الرّفيع، وقد جعل شوقي من الهوى شيئا قدّره الله، فلا يجدر بمن يلوم أن يلوم، فكلما أسرعت إلى اللوم نالك الوهن والسّقم .

[1] ـ **شوقي شعره الإسلامي**، 30.
[2] ـ جؤذر : ولد البقرة الوحشية.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 517/1 (جذر)، الأجم: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1417/2.(أجم)
[3] ـ أحمد شوقي، **صفوة المؤلفات الكاملة۔ الشوقيّات** ـ 212/1-213.

وقد جعل شوقي بينه وبين محبوبته حجابا عذريا،في ختام نظمه للمقدّمة الغزليّة، فالحجب تحول وتمنعه منها، فهذا ضرب من العفة الذي تميّزت به قبيلة عذرة،والشاعر لم يصل إلى منزل المحبوبة إلا في النوم، نظرا لبعد المنزل،يقول:

بيني وبينك مـــن ســـمر القنا حجب   ومثلها عفّـــة عـــــذريّة العصم

لم أغش مغنـــاك إلا في غضون كرى   مغنـــاك أبعـــد للمشتاق من إرم ([1])

وبحس الشاعر المرهف ينتقل الشاعر موجها الحديث إلى نفسه، ويخاطبها متخذ ا الوعظ طريقا، وسبيلا لينهاها عن التفريط ، وأن تتخذ التقوى سبيلا ، ولا تغترّ بالدنيا مهما أبدت من حسن فهي متقلبة، والموت نهاية محتومة للناس،كما الزهر فنهايته كالفحم، يقول:

يا نفس دنيـــاك تخفي كـــلّ مبكية   وإن بدا لـــك منهـــا حسن مبتسم

كم نائم لا يراهـــا وهي ساهرة   لولا الأمـــاني والأحـــلام لم ينم

تارة تمدّك فـــي نعمى وعـــافية   وتارة في قـــرار البؤس والوصم

يا ويلتاه لنفسي راعهـــا وَدَها   مُســودّةُ الصُّحف في مُبَيَضَّةِ اللّمم([2])

والنفس من خيرها في خيـــر عافية   والنفـس مـــن شرّها في مرتع وخم ([3])

وعندما توجّه بالمديح والثناء على الرّسول، نراه يعقد موازنة بينه وبين زهير وممدوحه هرم ابن سنان،فزهير عندما مدح هرم بن سنان كان طامعا في تحقيق المكاسب والصّلات الماديّة،أمّا شوقي فكانت البغية من وراء مديحه للرسول رضاء له، واعتزازا به يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم الموقف العظيم، يقول:

علقت من مدحـــه حبـــلا أعزّ به   في يـــوم لا عزّ بالأنساب واللحم

يزرى قريضي زهيـــرا حين أمدحه   ولا يقـــاس إلى جودي ندى هرم

محمد صفوة البـــاري ورحمته   وبغية الله مـــن خلـــق ومن نسم ([4])

---

[1] ـ المصدر السّابق، 214/1.

[2] ـ دها : أي دهاها. اللمم: جمع لمّة، وهي الشعر الذي جاوز شحمة الأذن. مسودّة الصحف كناية عن العمل السيئ. ومبيضّة اللمم:الشيب.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1525/2.(لمم)

[3] ـ **صفوة الأعمال الكاملة ـ الشوقيّات** ـ 214/1-215.

[4] ـ نفســـه ، 1/ 216-217.

ويخلص الشاعر إلى الثناء على صفات النبيّ، فهو أفصح من نطق بالضاد، والرسول أضفى على النثر والشعر معا حلاوة وزخرفة، وهو من أحيا القلوب الميتة، وبشرى ولادته سرت في الشرق والغرب، ومولده تخطف سطوة الطاغين والظالمين، والرسول هادم الأصنام،يقول ردّا على الطاعنين من الكفار:

لقبتموه أميـــن القـــــوم فـي صغر ومــــا الأميـــن عـــلى قـــول بمتّهم
فاق البــــدور وفــــاق الأنبياء فكم بالخــلق والخلق من حســـن ومن عظم
يا أفصـــــح الناطقيـــن الضّاد قاطبة حديثـــــك الشـهد عند الذائق الفهم
حليت مــــــن عطل جيـــد البيـان به في كـــــلّ منتثر في حـــــسن منتظم
بكلّ قول كـــــــريم أنـــت قائله تحيي القلـــــوب وتحيي ميّت الهمم
سرت بشائر بالهـــــــــادي ومولده في الشرق والغـرب مسرى النور في الظلم
تخطفت مهج الطاغيــن مـــــن عرب وطيّرت أنفـــــس الباغين من عجم
أتيت والناس فوضـــــــى لا تمــرّ بهم إلا على صنـــــم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جـــــــورا مسخّرة لكلّ طاغيـــــة في الخلق محتكم ([1])

وتناول شوقي الحقيقة المحمديّة التي آمن بها أهل الصّوفيّة، كيف لا وحقيقته سمت على جميع الأكوان، وعمّ نور محمد البرايا جمعاء، وشمل نوره الأرض والسّماء، و لم يستطع شوقي أن يخفي النفحات الصّوفيّة التي كانت متبّعة عند أكابر شعراء الصّوفيّة ، يقول:

محمد صفـــــــوة الباري ورحمته وبغية الله من خلـــــــق ومن نسم
وصـــــاحب الحوض يوم الرّسل سائلة متى الورود وجبريـــــتل الأمين ظمي
سناؤه وسنـــــــــاه الشمس طالعة فالجرم في فـــــلك والضّوء في علم ([2])

وذكر شوقي أهمّ المعجزات التي أيّدت النبيّ، وخصّ الشهيرة منها، مثل حادثة الإسراء والمعراج، وما رافقها من قدوم الرّسل إلى المسجد الأقصى وصلاة النبيّ بهم،يقول:

[1] ـ المصدر السّابق ، 1/ 218-219.
[2] ـ نفســـــــه ، 216/1.

أسرى بك الله ليـــــــــلا إذ ملائكه والرّســـل فـــي المسجد الأقصى على قدم
لمّا خطرت به التفــــــوا بسيّدهـم كالشـــــــهب بالبـــدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كـــــلّ ذي خطر ومـــــن يفـــــز بحبيب الله يأتمم ([1])

ويشيد شوقي بتسامح الشريعة الإسلاميّة، فهي تقوم على العدالة والتسامح والعلم، ويأخذ شوقي في الموازنة بين حضارة المسلمين من جهة وحضارات الأمم الأخرى القديمة من فرس ويونان ومصريين وغيرها من الرومان، ويبرز جوانب التفوّق في الحضارة الإسلاميّة، يقول:

شريعة لك فجّـــــــــرت العقول بها عن زاخـــــــــر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حـــــــول سنا التوحيد جوهرها كالحلي للســـــــيف أو كالوشي للعلم
غرّاء حامـــــــــت عليها أنفس ونهى ومـــــــن يجد سلسلا من حكمة يحم
لما اعتلت دولـــــــة الإسلام واتسعت مشـــــــــت ممالكه في نورها التمم
كم شيّد المصلحـــــــون العاملون بها في الشـــــــرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعـــــــدل والتمدين ما عزموا من الأمـــــــــور وما شدّوا من الحزم
دع عنـــــــــك روما وأثينا وما حولها كـــــــــلّ اليواقيت في بغداد والتوم
وخلّ كسرى وإيوانـــــــــا يدلّ به هـــــــــوى على أثر النيران و الأيم
واترك وعمسيس إنّ المـــــــلك مظهره في نهضـــــــة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع رومـــــــــا كلما ذكرت دار السّـــــــــلام لها ألقت يد السّلم
ما ضارعتها بيانا عنـــــــــد ملتأم ولا حكتها قضـــــــــاء عند مختصم
ولا احتوت في طـــــــراز من قياصرها علـــــــى رشـيد ومأمون ومعتصم ([2])

وأرى أنّ شوقي كان موفقا في موازنته، لأنه عمد إلى ذكر الرّكائز الأساسيّة التي وقف عليها الإسلام، وحاول أن يقارنها بالحضارات الأخرى التي وقفت عاجزة أمام عظم قوّة المدّ الإسلامي الذي اعتمد العدل والإيمان أساسا للحياة ، وضرب الأمثلة على حكام الحضارتين وكان التميّز لصالح المسلمين، والزمان خير شاهد .

---

[1] ـ المصدر السّابق ، 219/1.
[2] ـ نفســـــــه ، 225/1-226.

ويختم قصيدته ضارعا إلى الذات الإلهيّة أن تمنّ عليه العطف واللطف، ويكثر الشاعر من الصّلاة على الرسول وآله وصحابته، ويطلب المغفرة والعفو للأمّة الإسلاميّة ، وأن يبعد عنها الخسف والنقم، يقول :

يـــــا ربّ صلّ وسلم ما أردت على   نزيل عرشـــــك خير الرّسل كلهم
محيي الليالي صـــــلاة لا يقطعها   إلا بدمع مـــــن الإشفاق منسجم
يا ربّ أحسنت بـــــدء المسلمين به   فتمّم الفضل وامنـــــح حسن مختتم ([1])

ويظهر شوقي في ذلك قدرا من الخشوع والتذلل لله، ويقف موقف الضّارع المبتهل ، وهذا يدلّ على عمق إيماني، ويحمل شعور المسلم بقضاء الله وقدره.

والقارئ للهمزيّة يجد أنّ شوقي يسلك المسلك الذي اختطه في منهج البردة، فهو يمدح النبيّ ويشيد بصفاته، وأخلاقه الكريمة، وينهج نهج المذكر للعرب والمسلمين، بمواقف الصّحابة الذين جاهدوا ووقفوا مع الرسول في وحدة قلّ نظيرها، يقول: [الكامل]

الحـــــقّ عرض الله كلّ أبيّة   بين النفـــــوس حمى له ووقاء
هل كـــــان حول محمد من   قـــــومه إلا صبيّ واحد ونساء
فدعـــــا فلبّى فـــــي القبائل عصبة   مستضـــــعفون قلائل أنضاء
ردّوا ببـــــأس العزم عنه من الأذى   مـــــا لا تـــــردّ الصّخرة الصّمّاء
نســـــفوا بناء الشرك فهو خرائب   واستأصـــــلوا الأصنام فهي هباء ([2])

وفي قصيدة أخرى يقف شوقي ليتغنى بالديار الحجازيّة، فيذكر عرفات و الكعبة وزمزم، وينتقل إلى طلب العفو في خشوع وخشية تدلّ على عمق دينيّ ، يقول: [الطويل]

إلى عرفـــــات الله يا خير زائر   عليك ســـــلام الله في عرفات
ويـــــوم تولي وجهة البيت ناضرا   وسيم مجـــــالي البشر والقسمات

---

[1] ـ أحمد شوقي، **صفوة المؤلفات الكاملة ـ الشّوقيّات** ، 1/227-228.
[2] ـ نفســـه ، 1/197.

على كـــــــــلّ أفق بالحجاز ملائك | تـــــــــزفّ تحايا الله والبركات
وفـــــــــي الكعبة الغرّاء ركن مرحّب | بكعبـــــــــة قصّاد وركن عفاة
وزمزم تجـــــــــري بين عينيك أعينا | مـــــــن الكوثر المعسول منفجرات
ويرمـــــــون إبليس الرّجيم فيصطلي | وشانيـــــــك نيرانا من الجمرات
وقدّمـــــــت أعذاري وذلي وخشيتي | وجئـــــت بضعفي شافعا وشكاتي[1]

ونراه في هذه القصيدة يحثّ المسلمين على النهوض من جديد، وينبههم على غفلتهم، ويدعو الله أن يوفق المسلمين للعظائم، وأن يزيل عنها الكبوة والسبات اللذين أصبحا ملازمين لها، كما ويدعوهم إلى ترك الماضي بعزّه ومجده وعليهم أن يعملوا لما هو آت يقول:

شعوبـــــــك في شرق البلاد وغربها | كأصحـــــــاب كهف في عميق سبات
بأيمـــــــانهم نوران ذكر وسنة | فما بالـــــــهم في حالك الظلمات
وذلك ماضي مجدهـــــــم وفخارهم | فما ضـــــــرّهم لو يعملون لآتي
فقل ربّ وفّق للعظائـــــــم أمّتي | وزيّـــــــن لها الأفعال والعزمات[2]

وعليه فإنّ شوقي ضمّن قصائده النبويّة شواغل أمّته العربيّة والإسلاميّة، فالغرب لا يتركون منفذا إلا ويحاولون الولوج فيه للانقضاض أو يتحينون الفرصة الملائمة لذلك، فهو قد جعل من مديح الرّسول فرصة لتبيان الواجب الملقى على عاتق الأمّة لردّ الغرب، واتخذ أسلوب الإقناع والتمثيل من الماضي العريق، الزمن الذي صانت فيه الأمّة نفسها وحفظت كرامتها وهابتها الأمم، فشوقي يظهر الحرص ويبدي النصح وهذه خصال الشعراء الأفذاذ الذين يتنبّهون لواقع أمتهم ويرصدون خللها، ويحرصون على إصلاحه.

و لشهرة قصيدة (نهج البردة) فإنها تحمل من المزايا والخصائص التي تؤهّلها كي تحتلّ مكانة مميّزة وذلك يعود إلى أنها تناولت المفردات التي جاءت بها مدائح الشعراء للرسول في فترات متفاوتة، لذا أرى أنّ الشاعر قد وفق في عرضه، وأظهر نزعة

[1] ـ أحمد شوقي، **صفوة الأعمال الكاملة ـ الشّوقيّات ـ** ، 1/ 203-204.
[2] ـ نفســـــــه، 209/1.

إيمانيّة قويّة، وابتعد عن التعصّب أثناء موازنته بين الدين الإسلامي والأديان الأخرى وإنما كان حريصا على إثبات الطرح بالحجج المقنعة لينتصر في النهاية إلى الدين الحنيف.

ويبقى القول أنّ شوقي لم يقصد الزخرفة اللفظية لذاتها وإنما ظهرت براعته في انتقاء الألفاظ والمعاني التي صوّرت ما أراد بوضوح ودونما تكلف، وقد اختطّ لنفسه مسلكا في مدائحه وهو التتبع التاريخي والزمني.

يوسف بن إسماعيل النبهاني ([1]):

عبّر النبهاني في مدائحه عن شدّة حبّه للمبعوث رحمة للعالمين، لذا ضمّن مدائحه أوصاف النبيّ محمد، وتحدّث عن دينه، وأخباره، وآثاره، ومولده، ومعجزاته، وسيرته، وغزواته، وشفاعته، وسائر فضائله في الدنيا والآخرة ، ومدح آل النبيّ وأصحابه وأمّته، كما ذمّ أعداء الإسلام وتصدّى للكفرة الطاعنين، وتغنى بالديار الحجازيّة، يقول:

ما الشام مقصـــــــــدنا كلا ولا حلب   لكن لمكة منـــــــــــا ترحل النجب
أمّ القرى لســـــــــت أنسى إذ تقرّبني   والدّمـــــع من فرحي في حجرها صبب
منّـــــــــت عليّ بوصل كالخيال مضى   يهزّني كلمـــــــــا استحضرته الطرب
ما العمــــــــــر إلا أوقيّات ذهبن بها   صفر ســـــــواها وهنّ الخالص الذهب
لو لم يكن غيـــــر بعث المصطفى سبب   لمجدها لكفاهـــــــــا ذلك السّبب
فاقت جميـــــــــع بلاد الله تكرمة   بـــــــه وفاقت به سكانها العرب([2])

[1] - من بني نبهان، شاعر وأديب، ولد في فلسطين في (إجزم) التابعة لحيفا شمالي فلسطين، تعلم في الأزهر ، تنقل في أرجاء الشام حيث عمل في القضاء، شغل رئاسة محكمة الحقوق في بيروت فترة طويلة، له مؤلفات عديدة من أشهرها، المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة ، توفي في قريته بعد عودته إليها سنة ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية. ينظر الزركلي، **الأعلام**، 218/8. و محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**، 444 - 447. وكحالة، **معجم المؤلفين**، 275/13- 276.

[2] - يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 396/1.

وينتقل بالحديث عن صفات الرسول في موطن آخر، حيث يظهر مدى فضله على الخلق، وهو نعم الشفيع يوم القيامة، يلجأ إليه الناس طلبا للرحمة، ويبّن أنّ نوره دائم لا ينقطع ،وهو سيّد ولد آدم، وجوده وفضله عميم، يقول:[الطويل]

هـــــــو الشمس إلا أنّ في الكون نوره   يدوم ونـــــــــــور الشمس ليس يدوم
هـــــــو البحر عمّ الكائنات بفضله   بساحلـــــــه كـــــــلّ الكرام تعوم
هـــــــو الدّهر عمّ الخلق شامل حكمه   ومـــــــا عهده في النائبـــات ذميم
هـــــــو العبد عبد الله سيّد خلقه   له الكـــــــون عبد والزمان خدوم
نبـــــــيّ الهدى يا أعظم الناس نائلا   ومـــــــن جوده في العالمين عميم
ومـــــــن هو في الدّارين خير وسيلة   شفيع لـــــــدى الرّبّ الكريم كريم ([1])

ويجد النبهاني المتنفس في شعره، فهو يجد فيه متنفّسا عن كربته، ويفرّج به عمّا يجول بخاطره، فالشاعر بمثابة حمامة تشدو ولكنه يصدح ويتعلق بتلك الدّيار التي عشقها، وشغف بها قلبه، فجاءت أغلب قصائده تنشر بعبق الرّائحة الزكيّة من سلع ونجد، والنقا، وها هو الشاعر يعارض الموشّحات السبعة التي نظمها علماء دمشق عندما وقفوا للتغني بدمشق ومتنزّهاتها، يقول: [الرّمل]

وإذا ليـــــــــل غرامي أظلما   ولنفسي لم أجـــــــــد من مؤنس
أجـــــــد الرّاحة في شعري فما   نفّـــــــس الكـــــــربة إلا نفسي
أنا ذا أشـــــــدو بسلع والنقا   وروابـــــــي حاجـــــــر والمنحى
لا أرى الورقـــــــاء مني أخلقا   إننـــــــي أعظم منها حزنا
خير أرض الله غربـــــــا مشرقا   أنـــــــا أهوى وهي تهوى الدّمنا
فارحمـــــــي طيبة صبّا مغرما   بـــــــك ان يرج اللقا أو ييأس
هـــــــو لا ينفكّ عبدا قيّما   شـــــــدّدي في هجره أو نفسي([2])

---

[1] ـ المصدر السّابق، 127/4.
[2] ـ نفســــــــه ، 346/4-347.

وإذا كان الرّسول سيّد الكونين من عرب ومن عجم، فلا بأس أن تكون الدّيار الحجازيّة خير البقاع في مشارق الأرض ومغاربها، والشاعر يظهر حزنا شديدا وكأنه عاشق ولهان، أصابته اللوعة والأحزان لبعد من أحبّ، ولكنّه يواسي نفسه المحبطة بشعره.

وحول معجزات الرّسول الباهرات يقف النبهاني ليعدّدها، مع مراعاة الترتيب التاريخي لها، ويسهب الشاعر في تعدادها، فذكر حادثة الإسراء والمعراج وقد أمّ بالأنبياء في بيت المقدس، ثمّ يذكر معجزته الكبرى وهي نزول القرآن الكريم، ثمّ يذكر شهادة الجماد له بالحقّ، وإشارة الشّجر إليه، وتسبيح الحصى بين يديه، وتظليل الغمام له، ونراه يركّز على معجزات الرسول الباهرات مع الحيوانات مثل الضّبّ ، والغزالة، والفحل والسّرحان، وشاة أمّ معبد،وغيرها الكثير، يقول في لاميّته: [الوافر]

وكـــــم مـــــن معجزات باهرات	كثيرات بهـــــــا الهادي استقلا
توالـــــت آيهـــــا فالبعض يتلو	ســـــــواه كثرة والبعض يتلى
كـــــلام الله أبهـــــرها وأبهى	وأعـــــــــلاها وأغلاها وأحلى
إذا مـــــرّ المكرّر مـــــن سواه	فبالتكرار قـــــــــد يحلو ويحلى
جديدا لم يـــــزل في الناس مهما	مضى يبلـــــــى الزّمان وليس يبلى
دعـــــا المولى فشقّ البدر وحيا	وردّ الشمـــــــس للمولى فصلى
وكـــــم شهد الجماد له بحقّ	كـــــأنّ الله قـــــد أعطاه عقلا
سعـــــــت شجر إليه شاهدات	وعـــــــادت فاستوت سرحا ونخلا
وسلمت الحجـــــارة مفصحات	وجـــــذع النخل حنّ حنين ثكلى
وظلـــله الغمـــــــام ومال فيء	وأعـــــجب منه عـــرجون تدلى
وليـــــس لشخصه في الأرض ظلّ	وهـــــل أحـــــد رأى للنور ظلا
دعتـــــه غزالـــــة فيها وثاق	فحـــــــــــلاها بنعمته وحلا
وأفصـــــــح بالشهادة فيه ضبّ	وذلّ الفحـــــــل والسّرحان دلا
ونســــــج العنكبوت بباب غار	غـــــــــدا لعزائم الكفار فصلا
ومـــــن الضرع من شاة عناق	وأخـــــــرى حائل فحلبن سجلا
ومـــــا باسم دعا الرّحمن إلا	أجـــــــاب دعاءه بالحال فعلا

ومـــــــــــا قطّ استهلّ لحبس غيث بـــــــــــــــــأيسر دعوة إلا استهلا([1])

ويمضي الشاعر على هذه الشاكلة في تعداد المعجزات ليدلل على فضل الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وليبيّن للناس أهميّة الإيمان بصدق بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ووجوب الالتزام بتعاليم الحقّ الذي جاء به، فالعزّ بهما، وبهما يستطيع المسلمون الانتصار، ويظهر الشاعر قدرا كبيرا من النزعة الإيمانيّة، والعاطفة الدينيّة التي تحمل الغيرة على الإسلام وأهله.

والنبهاني من الشعراء الذين عارضوا مدحة كعب بن زهير، وقد سار فيها على النسق الذي تخيّره كعب، فابتدأ لاميّته بالغزل، ثمّ انتقل إلى الثناء على الرّسول من خلال حديثه عن صفاته الحسيّة والمعنويّة، وتحدّث عن معجزاته، وغزواته، وأكرم صحابة الرسول بالثناء عليهم وانتهى إلى طلب الشفاعة ، وفيها يجري على نمط شعراء المديح السابقين له في طريقة العرض والتقديم، وسيرا على النمط الصّفي في حديثهم عن الحقيقة المحمديّة يقول: [البسيط]

فكـــــــــــلّ ذرات الخلق شاهدة أن لا إله ســــــــــــوى الرّحمن مقبول

وأنّ أحـــمد خيـــــــر الرّسل رحمته لعالميــــــــــــــــــن ففيها الكلّ مشمول

من نوره خلـــــــق الله الورى فسرى لآدم وبعبـــــــــــــــــــــد الله موصول

نعم الظهور البطـــــــون الحاملات له يـــــــــا حبّذا حامل منهم ومحمول([2])

وعن صحابته وعترته الذين زيّنوا الوجود، فقد أشاد الشاعر بهم،فرتبهم حسب المنزلة ، فالخلفاء الأربعة في أعلى الرتب والمنازل ،ثمّ بقيّة الصّحابة، فهم جميعا قدّموا البطولات والتضحيات واستحقوا الشهادات وبذلك نالوا أروع المكانات، يقول فيهم:

هــــــــــم الهداة فإن ضلت بهم فئة فقـــــــــــــد يغصّ بعذب الماء مغلول

كـــــــــــلّ عدول وكلّ عادلون وما فيهم فتـــــــــــــى عن طريق الحقّ معدول

[1] ـ المصدر السّابق ، 3/314-315.
[2] ـ يوسف النبهاني ، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة** ،3/ 129.

لكنّهم درجـــــــــات بعضها عليت والبعض أعلـــــــــــى وما فيهنّ تسفيل
أعلاهم الخـــــــلفاء الرّاشدون على ترتيبهم وســـــــــــــواهم فيه تفصيل
أكرم بأصحـــــــــابه أكرم بعترته نــــــــــوران منه فموصول ومفضول
جميعهم زيّـــــــــن الله الوجود بهم يـــــا حبّذا فاضـــــل منهم ومفضول
منهم شمـــــــوس ضيا منهم بدور علا منــــــهم نجـــوم هدى منهم قناديل ([1])

ويختم الشاعر قصائده بما سار عليه السّابقون من الشعراء ، حيث يقوم بطلب الشفاعة مـن الرّسـول محمـد صـلّى الله عليـه وسـلّم ، بعـدما أثقلتـه الـذنوب، وجـارت عليـه الخطوب،ويفرغ ذلك في قالب لغوي مملوء بالعاطفة التي تحمل في ثناياها التذلل في طلب الرّضى والشفاعة، يقول: (الخفيف)

سيّدي يـــــا أبـــا البتول دهتني أيّ حـــــــــرب من الخطوب زبون ([2])
وذنوبي قـــــــــد أثقلتني وديني بحقـــــــــــــوق لم أقضهنّ رهين
هـــــذه حالتي ومالـــــي لدى الله تعـــــالى سواك ركـــــــنُ متين
فارض عنّـــــــــي وكن شفيعي إليه كـــــــــــلّ صعب إذا رضيتَ يهون([3])

ويمكـن القـول بـأنّ النبهـاني قـد قلـد الآخـرين في مـدائحهم للرسـول، علـى صعيد مضمون المدائح، ولكن أهمّ ما يميّز مدائحه هـو إطالـة الحـديث عـن فضائل الرّسـول، وهذا ليس بالغريب على الشاعر فهو من أصدر مؤلفات عديدة في تبيان فضائل الرّسـول، وعلى صعيد المفردات لم يكتنفها الغمـوض لـذا نـراه يلتـزم السـهولة مسارا في مدائحـه النبويّة.

---
[1] ـ المصدر السّابق ، 132/3.
[2] ـ الحرب الزبون: التي تدفع بعضها بعضها لكثرتها أو التي تدفع الشجعان لشدّتها.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1580/2(زبن).
[3] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 201/4.

عبد الله البردّوني([1]):

لقد سار البردّوني وفق الخطوط العريضة التي اختطها الشعراء القدماء في مديحهم للرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولم يحد عنها ، لقد عبّر عن حبّه للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وركز على فضائله وشمائله التي كان يزدان بها، وذكر كذلك فضائل الدين المحمدي، فهو منهاج حياة وفيه نجاح وفلاح وفوز في الآخرة، تلك هي السمة الغالبة على مدائح البردّوني للنبيّ، ففي قصيدته التي أطلق عليها يقظة الصّحراء، يطلب البردوني من الشعر أن يلتفت إلى الماضي ليستذكر عظمة النبيّ ويذوب فيه احتراما، فبعد أن كانت الصّحراء تهجع وتغط في جهل وكفر والحاد، أرسل محمد وملأها عدلا، بعدما كانت ممتلئة ظلما، يقول:[الرمل]

حيّ ميـــــــــــلاد الهدى عاما فعاما   وامـــــــــــــلأ الدّنيا نشيدا مستهاما
وامــــــــض يا شعر إلى الماضي إلى   ملتقـــــــــــى الوحي وذب فيه احتراما
واحمل الذكــــــرى من الماضي كما   يحمـــــــــــــل القلب أمانيه الجساما
ذكريــــــــــات تبعث المجد كما   يبعـــــــــث الحسن إلى القلب الغراما
وتنقـــــــــل حول مهد المصطفى   وانشـــــــــــد المجد أغانيك الرّخاما
زفت البشـــــــــــــرى معانيه كما   زفـــــــــــت الأنسام أنفاس الخزاما
واستفاضت يقظة الصحـــــــــرا على   هجعــــــــــــــة الأكوان بعثا وقياما
جلّ يوم بعث الله بــــــــــه أحمدا   يمحــــــــــو عن الأرض الظلاما ([2])

ونلحظ أنّ الشاعر يركز كثيرا على شخصيّة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ويبتدئ بالحديث عن الصّعوبات التي كابدها و المشاق التي واجهها، وهذا الحديث استغرق من الشاعر عدّة أبيات ولم يأت الشاعر بها جزافا، وإنما أراد أن يبثّ فيها ما تتعرّض له البلاد

[1] ـ هو شاعر عربيّ من اليمن ، ولد في قرية البردّون من أعمال زراحة بمنطقة الحدا، أصيب بمرض الجدري الذي أطفأ بصره، ولكنه استعاد عن ذلك ببصيرته، درس في مساجد ذمار أصول الدين وعلوم العربيّة، ثمّ التحق بدار العلوم في صنعاء، هاجم الاستعمار البريطاني وتمرّد عليه، لذا سجن، عاش متوحدا مع وطنه اليمن ، دعا إلى الثورة والتغيير والدفاع عن فلسطين، له ديوان شعر يقع في مجلدين، توفي سنة 1999م. ينظر ميشال جحا، **الشعر العربي الحديث**،392-397. وعبد العزيز المقالح، **مقدّمة الديوان**، 1/ 5- 46.

[2] ـ عبد الله البردّوني، **الديوان**، 1/ 62-64.

العربيّة من جور على يد المعتدين، وهي غاية شريفة إذ يبثّ هموما عامّة ، يعيشها شعبه خاصّة والأمّة العربيّة عامّة، يقول:

وتحدّى بالهـــــــــدى جهد العدا وانتضى للصـــــــــارم الباغي حساما
نــــــزل الأرض فأضحــــــت جنة وسمـــــــــاء تحمل البدر التماما
وأتـــــــــــى الدّنيا فقيرا فأتت نحـــــــوه الدّنيا وأعطته الزماما
ويتيــــــــــــما فتبنّته السّما وتبنـــــــــــى عطفه كلّ اليتامى
ورعـــــــــــى الأغنام بالعدل إلى أن رعـــــــــى في مرتع الحقّ الأناما
بدويّ مــــــــــــدّن الصحرا كما علّـــــــــم الناس إلى الحشر النظاما
وقضـــــــــــــى عدلا وأعلى ملة ترشـــــــد الأعمى وتعمي من تعامى
نشرت عـــــــدل التساوي في الورى فعلا الإنســـــــــــان فيها وتسامى
يا رسول الحــــــــقّ خلدت الهدى وتركـــــــــــت الظلم والبغي حطاما
قم تجد في الكـــــــون ظلما محدثا قتل العــــــــدل وباسم العدل قاما
أمطر الغرب علـــــــــى الشرق الشقا وبدعــــــــوى السلم أسقاه الحماما
فمعانـــــــــــي السّلم في ألفاظه حيـــــــــــل تبتكر الموت الزؤاما
يا رسول الوحـــــــدة الكبرى ويا ثـــــــــورة وسّدت الظلم الرّغاما
خذ من الأعمـــــاق ذكرى شاعر وتقبّلـــــــــــها صلاة وسلاما ([1])

و القصيدة جاءت لوحة فنيّة شعريّة نابضة تعبّر عن السّخط الذي حمله الشاعر على الغرب الذي حاول طمس معالم المسلمين، واستخدم شعارات الزيف والتضليل بداعي إقامة العدل، ولكنه يجلب الموت، والمشقة للشرق، ويعمّم الظلم والبغي اللذين لطالما حاربهما الرّسول، وناضل من أجل إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، وجاءت الأبيات على شكل مقابلات ليقدّم مفارقة بين القيم التي دعا إليها الرّسول، وتلك القيم التي حاول الغرب زرعها، وتوطيد دعائمها، ونلحظ أنّ الشاعر قدساير العصر الذي يعيشه من خلال إدخال المفردات العصريّة من مثل(التمدّن).

[1] ـ المصدر السّابق ،1/ 65-67.

ويركز الشاعر على الكون ومظاهره، حيث أفاق الكون حينما استشرف خطوات النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وهلل ، وكأني بالشاعر يحوّل المفردات إلى حركات، فالبشرى انطلقت من مركز الوثنيّة، وأفاقت مع بعثة النبيّ الذي جاء وهدم عناصر الغدر والبغي، يقول:

يا فجـــــــــــــــر ميلاد النبوّة هذه	**ذكـــــــــــــــراك فجرا دائم الميلاد**
وتهلل الكـــــــــــــون البهيج كأنه	**حفـــــــــــــل من الأعراس والأعياد**
وأفاقـــــــــــــت الوثنيّة الحيرى على	**فجر الهـــــــدى وعلى الرّسول الهادي**
فمواكـــــــــــب البشرى هناك وها هنا	**تنبـــــــــــــــي الوجود بأكرم الأولاد**
والمجـــــــــــــــد ينتظر الوليد كأنه	**والمجـــــــــــــــد والعليا على ميعاد**
وترعرع الطفل الرّســـــــول فهبّ في	**دنيا الفســــــــــاد يبيد كلّ فساد (1)**

ويخلص البردّوني لتصوير قيادة الرسول لجيش المسلمين، حيث تسابق المسلمون لتسجيل أسمائهم في سجل الخالدين، ويبيّن حالتهم وهم في أتمّ الاستعداد، وبفضلهم فتحت البلاد وتوحّد العباد، ولكنهم ملائكة يفون بعهودهم إذا عقدت، يقول:

خاض الرّســـــــول إلى العلا هول الدّجا	**ولـــــظى الهـــــــجير اللافح الوقاد**
واقتــــــــــاد قافلة الفتوح إلى الفدى	**والمكرمـــــــــــات دليلها والحادي**
وهفا إلى شـــــــــــرف الجهاد وحوله	**قـــــــــــــــوم تفور صبابة استشهاد**
قوم إذا صرخ العـــــــــــــراك توثبوا	**نحـــــــــــو الوغى في أهبة استعداد**
وتماسكوا جنبــــــــــا لجنب وارتموا	**كالمـــــــــــوج في الإرغاء والإزباد**
وتدافعوا مثل السيـــــــــــــول تصبّها	**قمم الجبـــــــال إلى بطون الوادي**
وإذا تساجلت السيـــــــــــوف رأيتهم	**خرسا وألســــــــــنة السيوف تنادي**
هم في السلام ملائك ولــــــدى الوغى	**جـــــــــــنّ تطير على ظهور جياد (2)**

1- المصدر السّابق ، 1/ 209-210.

2 - نفســــــــــه ، 1/212-213.

في الأبيات السّابقة يظهر الشاعر ملامح البطولة والجهاد عند سيّدنا محمد،وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ الشعراء ألحّوا على فكرة الجهاد من خلال شخصيّة سيّدنا محمد،ليتخلص أبناء الأمّة من الاستعمار الذي يجثم على صدورهم ويقضّ مضاجعهم، لذلك دأب الشعراء في المناسبات الدينيّة المختلفة على استدعاء شخصيّة الرسول باعتباره المخلص من جهة، والتعبير عن قضاياهم باعتبار محمد البطل القومي من جهة أخرى.([1])

ويرى الباحث أنّ المدائح النبويّة عند البردّوني جاءت تمشيا مع متطلبات العصر الذي هجم فيه الغرب على أوطان المسلمين مستغلا ضعفهم، وتراجعهم في ميادين شتى، فقد بثّ فيها الشاعر وجهة نظره، وحثّ فيها قومه على ضرورة الاقتداء بمحمد الذي جاء بالهدى والنور، وصدع بالحقّ، ودعا إلى وحدة الأمّة، والوقوف صفا واحدا في وجه الأعداء، وقد ركز على الجوانب الشخصيّة من حياة الرسول، فكأنّ قصائده جاءت نفيرا عامّا للذود عن الأوطان، ورسم واقعه وهمومه الذاتيّة التي يجسّد فيها واقع أمّته بشكل عام، حتى كاد أن ينطقه .

وصاغ البردّوني تلك القصائد بقالب لغوي جميل ابتعد فيه عن الغموض، وبذلك استعمل الشّاعر قاموس المفردات السهلة والواضحة، وجاء بصور جميلة مستوحاة من الواقع المعاش، واستخدم ألفاظه استخداما رائعا.

ومهما يكن من شيء فإنّ الحقب التي ولت عصر الزنكيين والأيّوبيين على صعيد المدائح النبويّة قد حملت معها الكثير،نذكر منها :

ـ فهي اعتمدت اعتمادا كبيرا على تينك العصرين، حيث جعلا أساسا لها، فظهور البديعيّات من ناحية، وإطلالة المعارضات من ناحية ثانية، وحملت الاثنتان معهما ما تضمنته قصيدة المديح النبوي في العصرين من جهة المضمون، إذ برزت المقدّمة

[1] ـ حلمي القاعود ، **محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث**، 205.

الحجازية التي بذارها الأوّل في عصري الزنكيين والأيّوبيين، وجاءت عوضا عن المقدّمات الطلليّة والغزليّة، وظلت نمطا يتّبع عند الشعراء إلى عصرنا الحاضر، وتظهر بوضوح وجلاء عند شعراء البديعيّات الذين سلكوا مسلك ابن الفارض، وهكذا في المعارضات التي سار فيها أصحابها على نمط كعب بن زهير مستفيدين من الزمخشري والسخاوي والصّرصريّ .

ـ ويظهر استدعاء الرسول جليا في قصائد العصور اللاحقة،ومظاهر هذا الاستدعاء تكمن في ذكر البقاع مثل : الغار ، وزمزم ، والعقيق ،ورامة والحجرة وغيرها ،ويأتي هذا بعدما كانت موجودة في العصور السّالفة، ولكن وجه التميّز هو الإطالة في العرض .

ـ وعلى صعيد الأوزان فإنّ أغلب الشعراء انتقوا البحر البسيط كبحر مشهور عن غيره، فقد نظم أغلب الشعراء على هذا البحر ، ويأتي الطويل والكامل في المرتبة الثانية، وهذا الاختيار سبق إليه شعراء الزنكيين والأيّوبيين .

ـ دأب كثير من الشعراء في مدائحهم على تذييل تلك المدائح باسمائهم الصريحة ، مثلما فعل البوصيري وصفيّ الدين الحلي،وهذا ليس بالأمر أو بالنمط الجديد، وإنما جاء تأثرا بمن سبق في العصرين عند السخاوي وابن الجوزي.

ـ أمّا ما يخصّ ظهور المدائح وانتشارها، فلا شكّ بأنّ الأوضاع السّياسيّة كانت السبب الأوّل وراء انتشارها وبروزها بشكل لافت، فمنذ بداية الدّعوة المحمديّة كان للرسول مكانته المميّزة؛لهذا كلما تعرض المسلمون لخطر أو ألمّت بهم ملمّة فإنهم يسارعون إلى الرسول يطلبون نجدته، ودعاءه، هذا في الدنيا، وكانوا يطلبون من الرّسول رفقته يوم القيامة في الجنّة، ولا شكّ بأنّ ملاقاة الأعداء وصدّ هجماتهم كانت وراء فرار المسلمين وعلى وجه الخصوص الشعراء فإنهم لجؤوا إلى الرّسول كي يكون العون والسّند، وهذه الحال تكرر ففي الحروب الصليبيّة التي جاءت مؤجّجة للمدائح النبويّة ، لجأ الشعراء إلى التوسّل من جهة وإلى حثّ المسلمين على التمسك بالخطّ النبوي في الدّفاع عن

الحرمات وتبرّكا به جلبا للانتصارات من جهة ثانية ، وتكرّر المشهد نفسه إثر الهجمات التتريّة على بغداد وأطراف الدّولة الإسلاميّة.

ولم يكن العصر الحديث بأحسن حالا من العصور الصّليبيّة والتتريّة ، فالاستعمار الحديث ومحاولة الدّول الغربيّة بسط سيطرتها على العرب . بعد سلسلة تراجعاتهم في الميادين كلها . كانت السبب وراء استدعاء الرسول وفضائله والحديث عن حروبه وانتصاراته ،ووقفة صحابته معه جنبا إلى جنب لتوطيد دعائم الدّولة ، فلا شكّ بأنّ تلك العوامل هي نفسها منذ القدم حتى يومنا الحالي وراء ظهور المدائح النبويّة عند الشعراء.

. على صعيد الأحوال النفسيّة للشعراء ، فكلما حلت بالشاعر مصيبة، أو حاقت به ملمّة فإنه يلجأ إلى الرسول متوسلا ، فالمرض من جهة على الصعيد الشخصيّ ، أو ما يتعلق بأحوال المجتمع والواجب الملقى على عاتق الشاعر في حمل هموم قومه من جهة ثانية، فهذه العوامل تكاد تكون متكرّرة على مرّ العصور، ولكن يبقى السبق عند الشعراء الزنكيين والأيّوبيين الذين كان لهم مجال السبق كالعقبان في المتقدّمين ، وحذا حذوهم المتأخرون.

وتبقى المدائح النبويّة عنوانا لا يمكن تجاوزه في العصور المختلفة، ولكن يظلّ السبق في تطويرها عائدا إلى الشعراء الذين رسّخوا دعائمها ، ورفعوا أعمدتها، والشواهد التي أوردناها في الفصل السّابق خير دليل على ما ذهبنا إليه، وما أشار إليه محمود سالم محمد بقوله: " أمّا في العصر الفاطمي والأيّوبي، فقد تكاملت المدحة النبويّة، ووصلت إلى العصر المملوكي على جانب كبير من النضج الفني"([1]).

هذا كله يأتي بصرف النظر عن الطعونات جميعها التي ألحّت بوسم العصور التي أشرنا إليها بالانحطاط ، فإنّ الشواهد المعطاة لا توحي بصدق تلك الطعونات مهما حاول أصحابها جاهدين ،ونحن في هذا القول لسنا بمنحازين.

[1] ـ المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، 124.

الفصل الرّابع:

التشكيل الفنّي في قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيّوبيّ من حيث:

1- الأسلوب واللغة .

2- الموسيقى .

3- الصّور والخيال .

4- التواصل بالتراث - التناص أو التضمين النّصيّ.

1. الأسلــوب واللغة :

لقد عقد النقاد العرب صلة بين الأسلوب وأغراض الشعر العربيّ ، وذكروا بإمكانيّة حدوث تغيير في التعبير عن طريق اختلاف الأسلوب، فهم يجعلون شرطا في الترتيب، ومن الواجب على الشاعر أن يحسن تقسيم الألفاظ على رتب المعاني، وبالتالي لا يكون الغزل كالافتخار، أو المديح كالوعيد، وإن المدح بالشجاعة والبأس يجب أن يتميّز عن المدح باللباقة والظرف، وإذا ما وصف الحرب والسّلاح لا يكون وصفه كوصف المدام أو المجلس، وكذلك الغزل والفخر ، فلكلّ واحد منها نهج خاصّ على الشاعر أن يتنبّه له حتى لا يحدث الخلط ، وأن توضع الأمور في موازينها.([1])

وقد ذهب ابن رشيق المذهب نفسه، ولكنه وضع شرطا جديدا عند المدح، إذ يجب على المادح أن يسلك جانب الإيضاح والإشادة بالممدوح، وأن تكون معانيه جزلة، وألفاظه نقيّة، أي بعيدة كلّ البعد عن السّوقيّة والابتذال([2]).

وفي تعريفه للأسلوب الأدبي يقول ابن خلدون: " هو المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"([3]) بينما يجمل حازم القرطاجني تعريفه قائلا : " هيئة تحصل عن التأليفات المعنويّة والنظم، وهيئة تحصل عن التأليفات اللفظيّة، ولما كان الأسلوب في المعاني والتلطف بإزاء النظم في الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه من حسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد"([4]).

وعندما ننظر إلى النقاد المحدثين نجد أنّهم يتفقون مع القدماء في التعريف، ولكنهم يركزون على عناصر الأسلوب الشعري الذي يظهر بجلاء في اللغة الشعريّة،

[1] ـ ينظر عبد العزيز الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، 23.
[2] ـ **العمدة في نقد الشعر**، 2/ 148.
[3] ـ **مقدّمة ابن خلدون**،570.
[4] ـ **منهاج البلغاء**، 364.

والمعجم الشعري ، مع الأخذ بعين الاعتبار طريقة الاستخدام وموضوع ورودها، أي لا يجب أن تصل الألفاظ إلى حدّ الابتذال([1]) ، أي يصاحب اللغة الوضوح والدّقة، و تسير على السجيّة غير المتكلفة، ودون إسفاف في الأسلوب ودون سموّ لا مبرر له([2]).

ويقول عزّ الدين إسماعيل عن الأسلوب " هو طريقة الكاتب الخاصّة في التفكير والشعور،وفي نقل هذا التفكير وهذا الشعور في صورة لغويّة خاصّة، وأن يكون الأسلوب جيّدا بحسب درجة نجاحه في نقل ذلك للآخرين "([3]).

ويرى الباحث أن النقاد القدماء والمحدثين يتفقون على وجوب ملاءمة الشاعر بين المعاني المقصودة ، والألفاظ المختارة، شريطة المواءمة بينهما مع وجوب تجنّب الإسفاف أو الابتذال، مع مراعاة الوضوح والبعد عن الغموض.

ولذلك نجد أنّ مقاييس الأسلوب إذا توافرت بشكل جيّد في القصيدة يحكم عليها بالجودة،وقد ذكر أحمد الشّايب تلك المقاييس وهي: الوضوح ، والقوّة، والجمال([4])

وقد بنى شعراء المديح النبوي في العصر الزنكي والأيّوبي قصائدهم على طريقة الشعراء السّابقين في المديح من حيث الشكل فقد وقفوا على الأطلال ، ثمّ استبدلوا الحجازيّات بتلك الأطلال وقد قام الباحث بالتمثيل عليها في الفصل الثاني من هذا البحث،وقد اتخذ هؤلاء الشعراء الجزالة والمتانة طريقا لتحقيق مآربهم، والوصول إلى غاياتهم، وتتجلى المعاني الجزلة والألفاظ النقيّة في قصائد شعراء المديح النبوي عند مديحهم للرسول، والحديث عن فضائله وشمائله، يقول عبد الرّحيم بن الأخوّة :

أوحى إليه وبحـــر الجـــاهليّة من ريح الضّـــلال بمـــــوج منه ملتطم
أدّى الأمــانة واستـــــوفى الرّسالة إذ تراجــــعت عـــــن هداها سائر الأمم

---

[1] - ينظر محمد مندور، **الأدب وفنونه**، 37.
[2] - ينظر محمد غنيمي هلال، **الأدب المقارن**، 95-96.
[3] - **الأدب وفنونه**، 22.
[4] - ينظر **أصول النقد الأدبيّ**، 259.

وجدّ فـــــي الله حتى عـــــاد عن كثب   وجه الهـــــدى مبديـــــا عن ثغر مبتسم
وذلّ فـــــي عـــــــزّة والله ناصره   لمّـا دعــــاهم ملـــــــوك العرب والعجم
جبريل يقدمــــه والسّــــعد يخدمه   والله يعصمه عــــــــن زلــــــــة القدم
فالحمــــد لله ربّ العالمـــــين على   توفيقنا إذ هـــــــــــــدانا منه للنعم([1])

فالملاحظ على الأبيات السّابقة أنها تتسم بالوضوح والسّهولة والجزالة، وألفاظها المنتقاة جاءت لتناسب الممدوح، فقد أشاد الشاعر بفضائل الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ،وتلك الفضائل تتفق مع ما ذكره النقاد عند الإشادة بالممدوح.

وعندما يقف شرف الدين الأنصاري ليشيد بقوّة النبيّ ، وبشجاعته في ميدان المعركة، وبصولاته في ميادين الوغى، حيث لا يتجرّأ أحد من الأعداء أن يقف أمام ضربات كفه في المعركة، لذا يفرّ الأعداء وجلين من أمامه، يقول: [البسيط]
سلت حقود الأعــــادي إذ تــــــخرّمها   مهند مــــــــن سيــــــــوف الله مسلول
شامته كفّ الهــــدى في كـــــلّ معركة   كانـــــــــت ضرائبــــــه فيها الأضاليل
صالت على الحمس في بـــــدر مصاعبه   وفي لفيــــــــــفهم العوذ المطافيل([2])

وهذا الوصف لبطولة النبيّ يتفق مع ما قاله قدامة بن جعفر عندما رأى أنّ أفضل ما مدح به القائد الجود والشجاعة ،وما تفرّع منهما نحو التخرّق في الهيئات والإفراط في النجدة وسرعة البطش وما شاكل ذلك من صفات للقائد ([3]) .

وفي معرض مديح عبد المحسن التنوخي لصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنه يذكر تضحياتهم، وبطولاتهم في ميادين القتال، حيث كانوا اليد الضاربة لدولة الإسلام وللرسول، يقول:
هم أيّدوه عــــلى تأيـــــــــد ملته   لمّا استطالـــــــــت على الحقّ الأباطيل

---

[1] ـ العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء العراق)**، 3/1/ 211-212.
[2] ـ شرف الدّين الأنصاري، **الديوان**، 391-392.
[3] ـ ينظر **نقد الشعر**، 93.

ومهّدوا الدّين للإســــلام وانحسمت بحدّ بيضــــهم عنـــــــــــه الأضاليل
ودوّخوا كـــلّ مـــلك لا يديـــن لهم فملكه زائـــل والعـــــــرش مثلول
أمضـــى سلاح معاديهم إذا اعتقلوا الرّما ح للطـــــعن تسليــــم وتخويل([1])

ونلحظ من خلال الأبيات مدى ما أبداه الصّحابة من شدّة بأس، وسرعة ردّ، وكذلك بطشهم بأعدائهم، فعندما وقف الباطل في وجه الحقّ أسرعوا مناصرين، وقد استخدم الشاعر ألفاظا تحمل الشدّة مثل استطالت التي تعني غلبه وقهره، وانحسمت وفيها السّرعة والحسم، واستخدم البيض والرّماح وهي أسلحة المعركة، أمّا أبياته في الغزل، فإنّ الشاعر يبدي تلطفه، وتنساب الكلمات الغزليّة عذوبة ورقّة، يقول في مقدّمته الغزليّة التي افتتح بها مدحته النبويّة:

تثنـــــــي القـــوام ولا تنفكّ مائلة كما تمـــــــــــايل غصن وهو مطلول
فرعـــاء ما مسّها غســـل و لا ادّهنت كحـــــــــــلاء ما جال في أجفانها ميل
وشاحها جائل في خصـــــــرها قلق لكن تغصّ بســــــــــــاقيها الخلاخيل
فإنما طرفها وســـــــــنان أو ثمل أو مدنـــــــــف أو بميل السّحر مكحول
ما جرّدت سيف جفن من لــــواحظها إلا انثنيت وسيـــــــــــف الصّبر مفلول
تجيل مسواكها من فـــوق ذي شنب يزينـــــــه وضح فيـــــــــــه وترتيل
كأنـــــــه أقحوان الحزن عاوده في الليــــــل طلّ فأضحـــى وهو مصقول
كأنما ريقها غــــــبّ الكرى ضرب لمجتبيه بمــــــــــاء الـــــورد محلول
إذا سألــــــــت تدانيها تعللني يفنـــــتتى السؤال ومـــا تفنى التعاليل ([2])

لله درّ الشاعر على تلك الأبيات الغزليّة !! وكأنني به قد أفرغ طاقة من نوع خاصّ، فهو متيّم من الطراز الأوّل، وأوفى حديثه الغزلي حقه كأمهر الحذّاق في هذا المجال، فاحتوت الأبيات من معاني الغزل وألفاظه الكثير مثل: القوام والتثني، والعيون والأجفان والوسن ، والثغر، والأسنان، والرّيق ، والصدّ والهجران، وحشد هذه الألفاظ بهذه الصورة دليل على معاناة الشوق، وشدّة الوجد، وقد اتسم الأسلوب بالسهولة، والمعاني جاءت

[1] - يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 3/ 38.
[2] - نفســــــه ، 32/3.

واضحة ورقيقة تلائم الغرض الذي طرقه الشاعر ، كلّ ذلك ساقه الشاعر في قالب جميل، وهكذا يظهر بجلاء الفارق بين أسلوبي الشاعر في مدحه للمصطفى، وغزله بالمحبوبة.

وابن جبير عندما يقف ليصف ساعة الندم حذرا من قرع سنه، فإنه يلجأ إلى الرّسول بكلمات تدلّ على أنه كان توّاقا لها، واستعمل الألفاظ الموحية والمعاني المخصّصة، وأتى مفرغا ذلك في قالب يحمل في ثناياه الزهد،وجريا على عادة بعض الشعراء في استخدام التجريد وسيلة لطرح الفكر وعرضه، يقول:

وتب قبـــــــــل عضّ بنات الأسى ومن قبـــــــــل قرعك سنّ الندم
وقل ربّ هـــــــــب رحمة في غد لعبـــــــــد بسيما العصاة اتسم
جرى في ميادينـــــــــن عصيانه مســـــــــيئا ودان بكفر النعم
فيا ربّ صفحـــــــــك عمّا جنى ويـــــــا ربّ عفوك عمـــــا اجترم (1)

ومنه في تبيان فضل النبيّ محمد :

نبـــــــــيّ شفاعته عصمة فيـــــــــوم التنادي به يعتصم
عســـــــــى أن تجاب لنا دعوة لدينا فتكفي بهـــــــــا ما أهمّ
ويرعـــــــــى لزوّاره في غد ذمـــــامـــا فما زال يرعـــى الذمم
عليـــــــــه السّلام وطوبى لمن ألـــــــــمّ بتربته فاستلم (2)

فالشاعر عندما لجأ إلى الشفاعة والضّراعة لازم الألفاظ والمعاني السهلة الواضحة ، وجانب الوعورة، وبذلك يمكن القول بأنّ معاني الشفاعة التي أتى بها وافقت المذهب الذي انتقاه في العرض والبسط.

وعندما نظم الشّاعر علي بن عمر المعروف بابن قزل مدحته الشريفة التي يتشفع فيها بالنبيّ، فإنه يقوم بوصف النار ـ التي ظهرت في الحجاز ـ وهول المشهد وما صاحبه من ظواهر جويّة، يقف قائلا:

---

[1] ـ فوزي الخطبا، **شعر ابن جبير**، 85.
[2] ـ نفســـــــه ، 85.

لهـــــــــا شرر كالبرق لكن شهيقها كالرّعـــــــــــد عند السّامع المتأمّل
وأصبح وجـــــه الشمس كالليل كاسفا وبدر الدّجـــــــى في ظلمة ليس تنجلي
وغابت نجـــــــوم الليل قبل غروبها وكدّرها دور الدّخــــــــان المسلسل
وهبّت سمـــــــوم كالحميم فأذبلت مـــــــــــن الباسقات الشّمّ كلّ مذلل
وأبـــــــدت من الآيات كلّ عجيبة وزلـــــــــزلت الأرضون أيّ تزلزل ([1])

ومنها في معرض حديثه عند دخول المدينة محرما وملبّيا، يقول:
دخـــــــــــــلت محرما وملبّيا وأضربت عن سقـــــط الدّخول فحومل
مواقـــــــــف أمّا تربتها فهي عنبر وأمّا كلاهــــــــــا فهو نبت القرنفل
يضوع شذاها ثــــمّ يعقــــب نشرها لما نسجتها من جنــــــوب وشمأل ([2])

فالحديث عن النار ـ من خلال الأبيات السّابقة ـ يختلف عن الحديث عن ديار الرّسول، وهذا تنوع في الأسلوب، فالنار أبرزها ووصفها من خلال ألفاظ خاصّة يظهر فيها الشاعر الحركة المصحوبة بعظمة الموقف، مثل: الشرر ، والسّموم،ومظاهر الطبيعة المتغيّرة كزلزلة الأرض، وقصف الرّعد، أمّا المدينة فيظهر فيها التربة العنبريّة، ونبت القرنفل، والرائحة ذات النشر الطيّب، فنلحظ أنّ الشاعر قد راوح في استخدام الألفاظ والمعاني حسب ما يقتضيه الموقف، من هنا يمكن القول بموافقة الشّاعر مع ما ذهب إليه النقاد.

وقد راوح شعراء المديح النبوي في العصر ين الزنكي والأيّوبي في استخدامهم لأساليب التعبير، فقد أكثر هؤلاء الشّعراء من استخدام الطابع الإنشائي مثل: النداء ، والأمر والنهي والاستفهام وغيرها من الأساليب.

وجاء النداء عند أكثر الشعراء، وقد ورد بشكل لافت في مدائحهم النبويّة، حتى لا تكاد تخلو مدحة نبويّة من أدوات النداء،وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على حبّ

[1] ـ ابن قزل ، **الديوان** ، 337-338.
[2] ـ نفســــــــه، 339.

جامح يكنه الشعراء لشخص الممدوح ،ففي معرض التوقير وبيان المنزلة، واللجوء إليه طلبا للشفاعة، لذلك أكثر الشعراء من استخدام النداء، فهذا عبد الرّحيم بن الأخوّة يتوجّه إلى الرّسول قائلا :

ألا يا رســـــــــول الله يا خير من مشى   على الأرض ما مقدار مدحي ولا حمدي ([1])

ويقول في قصيدة أخرى:

يا خـــــــاتم الرّسل يا أعلى الورى خلقا   وأكرم الخـــــــلق من ماض ومن آت ([2])

ومن الشعراء الذين أكثروا في ذكر أدوات النداء في مدائحهم النبويّة الصّرصريّ ، فهو يقف موقف التعظيم للرسول، ويلحّ في طلب الشفاعة ولا يتوانى عن ذكر خصاله، يقول:

يا سيّدي يا رســـــــــول الله يا وزري   لرفـــــــــــع وزري وما ألقى من الكلف
يا منتهى أملي في منتهـــــــــى أجلي   يا عدّتي في مقـــــــــام الرّوع والأسف
يا من علا نوره في وقـــــــــت مولده   نـــــــــــار المجوس فولى وقدها وطفي
يا من لمبعثه الهـــــــادي تنكست الأ   صنـــــــــــــام تنكيس مقهور ومختطف
يا فاتح الخير والأبــــــــــواب مغلقة   والناس مــــــــــــن سفه على شفا جرف
يا من أتى بالهدى والعـــــــدل مبعثه   والناس مـــــــن تبع الأهواء في سرف ([3])

وقد علق عبد القادر أبو شريفة على ظاهرة التكرار بقوله : " وقد يكون التكرار بإعادة الكلمة أو العبارة، وعلى الناقد دراسة ظاهرة التكرار في القصيدة ليتحقق من أنه أدّى غرضا أو أنه ضعف أو استرسال وراء صنعة بديعيّة " ([4]) .

ونرى كثرة تكرار الشاعر لأداة النداء الياء، ولم يأت الشاعر بها إلا من أجل الالتفات والانتباه للمدوح من جهة، والمعنى المكرّر الذي جاء به الشاعر من جهة

---

[1] - العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**،(قسم شعراء العراق) 208/3/1.
[2] - نفســـــــــــه ، 212/3/1.
[3] - الصرصريّ ، **الدّيوان**، 335.
[4] - **مدخل إلى تحليل النصّ الأدبيّ**، 50.

أخرى،فالرّسول هو السّيّد، وهو منتهى الأمل في الملمّات، وهو فاتح الخيرات، وهو الهادي ومخرج الناس من الضّلالات، فهي دعوات صريحة من الشاعر للانتباه إلى هذا النبيّ الذي جمع كلّ الصّفات، وتكرار الأداة هنا لا يدلّ على ضعف أو استرسال أو جاء من أجل صنعة بديعيّة، يقول عبد الرحمن بن الجوزي:

يا نفس نلت المنـــــى فاستبشري وسلي   هـــــــذا الحبيب وهذا خاتم الرّسل
يا درّة الأنبيا يــــــــا روضة العلما   يــــــا ملجأ الغربا يا سيّد الرّسل ([1])

واستخدم الزمخشريّ النداء مع الاستفهام والنفي، في ندائه للرسول، يقول في لاميّته:

يا خاتم الرّســــل إنّ الطول منك على   راجي الشفاعـــــــة يوم الحشر مأمول
فهـــــــل يخيب فتى لا حبل ذمّته   واه ولا عقـــــــده في الصّدق محلول
ولا اشتكت دخــــــلا منه مناصحه   ولا مناصـــــــــح إلا وهو مدخول
ما مسّت الكـــــأس يمناه و لا صدمت   فــــــــاه وكلهم بالرّاح معلول([2])

ومن باب استخدام الشعراء للأمر، فهذا الصرصريّ يحثّ الإنسان و يخاطب العبد ويدعوه للعودة إلى الله ،لأنّ الدنيا مدبرة، يقول:

قم فبادر قبيــــــــل رفع النعوش   حلبة الســــــــبق ذا إزار كميش
وتدبّر خــــــــلق السّماء ففيها   عبــــــــــرة جمّة لذي التفتيش
وتفكر في خلـــــــقه الأرض تنظر   عجبـــــــا في مهدها المفروش ([3])

ومن الأساليب التي اتبعها شعراء المديح النبوي في العصرين، الحرص على ذكر الضمائر بأنواعها، الغائبة، و المخاطبة والمتكلمة، وملك النحاة من الشعراء المجيدين في هذا المجال، نظرا لعلاقته المباشرة بالنحو،وطول باعه فيه، فقد نوّع في أساليبه عند

[1] - صلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**، 100-101.
[2] - علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره**، 265/2.
[3] - الصرصريّ، **الديوان**، 251-252.

مدحه للرسول، وظف الضمائر توظيفا حسنا ، واستخدم أدوات النداء، وأفعال الأمر وغيرها ، يقول:

يـــــــــا خـــــاتم الأنبياء قاطبة   أتـــــــــــــــاك لفظ الثناء يستبق
كنت نبيّا وطيـــــــــن آدم مجبول   وتلك الأنـــــــــــــــوار تأتلق
وعدت فينا تدعـــــــو إلى سبل الحقّ   فقد أوضحـــــــــــــت بك الطرق
واشفـــــــــع لمن عاد في ولائك مشـ   فـــــوع القوافـــــــــــي تتلا فتتسق
تضـــــــــــــوّع من مجدك الأثيل إذا   استقبض ذكـــــــر أطيب فينتشق ([1])

وعلى النمط نفسه سار فتيان الشاغوري في مدحته، فقد استخدم الالتفات في الضّمائر، ففي باب طلب الشفاعة في مدحته، يقول:

أؤمّل مـــــــــــن خير الأنام شفاعة   بها النعيم بالجنـــــــــــــان أخلد
فأنـــــــــــت رسول الله وهي شهادة   أقـــــــــرّ بـــــها حتى المعاد وأشهد
وددت بأنـــــــــــي زرت قبرك راجلا   وقبّلـــــــــت تربـــا أنت فيها موسّد
ومرّغت خدّي عنـــــــــد قبرك ضارعا   بـــــــــأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد ([2])

ومن الأساليب التي شاعت في ذينك العصرين ظاهرة الغموض خاصّة عند الصّوفيين الكبار أمثال : ابن الفارض وابن عربيّ، اللذين خلّفا أروع الأمثلة في الحبّ الإلهيّ على مرّ العصور، فهما أبرزا الوجد المضطرم، والتلهف الظامئ إلى رؤية الذات العليّة، مع اتخاذهما لغة الحبّ العذري وسيلة للإحاطة بدقائق الأمور، وقد أجج هذا لهيبا وجذوة لا تنطفئ نيرانها في نفس كلّ واحد منهما ([3]) ، يقول ابن الفارض في مديح الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وقد أوقف محبّته عليه:

وإن اكتفـــــــى غيري بطيف خياله   فأنـــــــــــــا الذي بوصاله لا أكتفي
وقفا عليه محبّتـــــــــــي ولمحنتي   بأقلّ مـــــــــــــن تلفي به لا أشتفي

---

[1] ـ كمال الدين بن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، 2393/5.
[2] ـ فتيان الشاغوري ، **الدّيوان**، 109.
[3] ـ شوقي ضيف، **الشعر وطوابعه الشعبيّة على مرّ العصور**،176.

وهــــــــــــواه وهو أليّـتي وكفى به   قسما أكـــــــــــــــــاد أجله كالمصحف
لو قال تيها قـــــــف على جمر الغضا   لوقفت ممتثلا ولـــــــــــــــــم أتوقف
أو كان من يرضــــــى بخدّي موطئا   لوضعته أرضـــــــــــا ولم استنكف ([1])

ولا شكّ بأنّ هذا الأسلوب قد شاع في العصرين والعصور اللاحقة، إذ تأثر الشعراء بذينك الشاعرين الكبيرين، فالشعر الصّوفي يسمو بالوجدان، وتتكشف أحاسيس النفس، كما ويحمل نظرة ذاتيّة تظهر بادية بوضوح فيه أكثر من غيره ([2]).

ومن الأساليب التي شاعت عند بعض شعراء المديح ميل البعض منهم في هذين العصرين إلى ظاهرة السّرد التاريخي في المدائح النبويّة، حيث يقوم الشاعر بسرد سيرة الرّسول محمد منذ حملت به آمنة حتى وفاته، يقول الصّرصريّ في قصيدته النونيّة:

لمّا اصطفى الله الخليـــــــــل وزاده   شرفا ونجّاه مـــــــــــــــــن النيران
اختار إسماعيــــــــــــل من أولاده   وبني كنانـــــــــــــة من بني عدنان
ثمّ اصطفـــــــــى منهم قريشا واصطفى   أبنـــــــــــــاء هاشم الفتى المطعان
ثمّ اصطفى خيـــــــــــر الأنام محمدا   من هاشـــــــــم فسمت على قحطان
وبـــــــــــدت لآمنة الحصان لحملها   بأخفّ حمـــــــــــــل راجح الميزان
حتى بـــــــــــدت أنواره في وضعها   فـــــرأت قصـــــــــور الشام رؤية داني
ولدته عــــــــام الفيل يوم اثنين فاحـ   ـــتاز الفخـــــــــــار بفضله الاثنان
بربيـــــــــــــع الأدنى بثاني عشرة   ويــــــــــــــوافق العشرين من نيسان
وتحدّثت بـــــــــــولاده الأحبار والرّهـ   ـــبان والواعــــــــــــــي من الكهّان
خمدت له نار المجـــــــــوس وزلزلت   مـــــــــــع الانشقاق جوانب الإيوان
فمضى الرّسول إلـــــــــى سطيح سائلا   فأتـــــــــى الجواب إلى أنو شروان ([3])

[1] ـ الحسن البوريني وعبد الغني النابلسي، **شرح ديوان ابن الفارض**، 202-203.
[2] ـ ينظر محمد زغلول سلام، **تاريخ النقد العربيّ من القرن الخامس إلى العاشر الهجريّ**، 32/2.
[3] ـ الصرصريّ، **الديوان** ، 551.

وقد زادت القصيدة على ثمانمائة بيت من الشعر، يسرد الشاعر فيها سيرة المصطفى محمد صلّى الله عليه وسلّم ، بأسلوب سهل بعيد عن الغموض والتعقيد، وحرص فيه الشاعر على انتقاء المعاني المناسبة، والألفاظ الموحية، بعيدا عن كل ما يأتي بالطعن من كلف وغيره .

ومن الصّفات الأسلوبيّة التي برزت في المدائح النبويّة عند شعراء العصرين الواقعيّة، فالشعراء عندما نظموا تلك المدائح جاءت من صلب واقعهم المعاش، فتجربة الشعراء المريرة مع الحياة، والنظرة التشاؤميّة من الأحزان والآلام، وواقع الأمّة المرير وتلك الهجمات التي أرادت النيل من الأمّة دفعت هؤلاء الشعراء إلى الشكوى ورفع المظالم إلى جناب الرّسول ليخلصهم من واقعهم المظلم، وكأنها محاولة من الشعراء للربط بين واقعين؛ الزمن المعاش بكلّ ما فيه، وزمن الرّسول بما تعرّض له ، ولكن بفضل الله قيام الفئة المؤمنة تمّ قمع الظالمين والانتصار عليهم في كلّ الميادين.

واستخدم شعراء المديح النبويّ في العصرين أسلوب الحوار في قصائدهم التي مدحوا بها النبيّ محمدا، وقد ورد هذا الأسلوب عند البلاغيين بمسمّيات عديدة منها: السؤال والجواب، والمراجعة، ولكن ابن حجّة الحموي لم يوله كبير أهميّة، ولو فوّض أمر البديع إليه ما عدّه من البديع ولما أدرجه ضمن صنوفه([1])، وقد كثر هذا الأسلوب عند الصّرصريّ الذي يقول:

قــــــــال أشياخنا هي البلد الجامع   فيه تكـــــــــــون دار الإمام
ثمّ قالـــــــــــوا عبيد برك يهدي   كلّ وقـــــــت إليك أزكى سلام
قـــــــــــل إلهي ثبّت قلوب رجال   عن حريم الإسلام أضحت تحامي ([2])

ويظهر شغف شعراء المدائح النبويّة من خلال استخدامهم لفنون البديع،وليس في شغفهم وجه غرابة، فهم أبناء عصر قد طغت عليه الصّنعة اللفظيّة والمعنويّة بشكل بارز

---
[1] - ينظر ابن حجّة الحموي، **خزانة الأدب**، 218/1.
[2] - الصّرصريّ ، **الدّيوان** ، 504-507.

ولافت ، حيث تجد الجناس والطباق، وردّ الصّدر على العجز، والتورية، وغيرها من تلك الفنون الرّائعة التي أضفت جمالا على جمال المدحة النبويّة،فجاءت لوحة معبّرة بكلّ المقاييس، مزيّنة بصنوف الفنون.

وفي معرض شغف شعراء الأيوبيين بفنون البديع تقول نجية فايز حافظ: " يعد العصر الأيّوبي عصر الصنعة والإسراف البديعي؛ فقد وجد فيه كثير من الشعراء مثل القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، وابن النبيه، وابن الفارض، وغيرهم ممن يمكن أن يطلق عليهم أتباع مدرسة البديع، لما أولوا هذا الفنّ من اهتمام زائد وصل بهم حدّ العناية لذاته، هذه المدرسة التي يعدّ الأديب الشاعر القاضي الفاضل رئيسها دون منازع " ([1]) ، لذلك لم يعش شعراء المديح النبويّ بمعزل عن هؤلاء الشعراء أو ذلك العصر، وإنما عاينوا العصر وظروفه وتأثروا بتلك الصنعة الطاغيّة عند غيرهم .

ومع أنّ البديع مما أخذ على هذا العصر، وما سبقه من العصر العبّاسيّ إلا أنّ البلاغيين قد جعلوه وسيلة لتحسين الكلام ، وإجلاء المعنى وتزيينه، ولكنّ تعلق الشعراء به ـ من وجهة بعض النقاد والباحثين ـ وبحثهم عنه جرّد الشعر من روعته وأصابه الإسفاف،وهذا ظهر جليّا منذ منتصف القرن السّابع الهجري ([2]) ، فمن صنوف البديع الذي انتشر في قصائد المديح النبويّ الجناس([3]) التام ، يقول الزمخشريّ:

أتلكم برقـــــــــــــــة من عارض ومضت   أم عــــــــارض بالبشام اللدن مصقول([4])

فقد جانس الشاعر بين (عارض) الأولى وهي بمعنى السّحاب الذي يعترض أفق السّماء،و(عارض) الثانيّة وهو ما يظهر من الفم عند الضّحك،ومن الجناس التام الذي يرد في الأبيات المتوالية، قول ابن جبير:

---

[1] ـ **البهاء زهير حياته وشعره**، 135. رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك، 1988.

[2] ـ بسيوني عبد الفتاح فيّود، **علم البديع دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع**، 113-114.

[3] ـ الجناس : أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة. أحمد مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها**، 265. وينظر الرعيني الغرناطي، **طراز الحلة وشفاء الغلة**، وهو شرح للحلة السّيرا في مدح خير الورى لمحمد بن جابر الأندلسيّ، حيث أورد المؤلف ستين نوعا للجناس .

[4] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره**،263/2.

يا أهـــــــــــــل طيبة قلبي عن منهـــــــــــــج الصّبر جارا
أشكـــــــــــــو إليكم زمانا علـــــــــــــيّ بالبين جارا
وبعـــــــــــــدكم لست أرضى من الـــــــــــــبريّة جارا
ودمـــــــــــــع عيني عليكم لأدمـــــــــــــع المزن جارى (1)

ومن الجناس الناقص، يقول عبد المحسن التنوخي:

صبّ عليـــــــــــــل وما بالرّبع تعليل فليس إلا علـــــــــــــى الإعوال تعويل (2)

ومن ذلك يقول عليّ العمراني:

هدى إلى ديـــــــــــــن إبراهيم أمّته وكلهم بعقـــــــــــــال الشرك معقول
محبّتي لهـــــــــــــم ديني ومعتقدي فـــــــــــــإن أزغ عنهم غالتني الغول(3)

كما يجانس الشعراء بين قافية البيت وبين كلمة أخرى في الشطرة الأولى منه أو خلاله، ومن ذلك قول ابن الساعاتي في لاميّته:

فلا مفاريح إن نالـــــــــــــت رماحهم ولا مجازيـــــــــــــع في البأساء إن نيلوا
فما كواحـــــــــــــدهم في فضله أحد ولا كجيلـــــــــــــهم في فضله جيل (4)

ومن الشعراء من يجانس على صعيد قصيدة كاملة مثلما فعل الصّرصريّ في مدحته النبويّة التي نورد منها الأبيات التالية:

فلم يأله صـــــــــــــدقُ القلوب وأعملت صوارمـــــــــــــه في نصره وقناها
وكـــــــــــــلٌّ له في الحرب جاد بنفسه وأمواله اللاتـــــــــــــي حوى وقناها
هـــــــــــــوَ السّابقُ الرسلِ الكرامِ بفضلِه وإن كـــــــــــــان في حكمِ البلاغِ تلاها
لقد خُـــــــــــــصَّ بالآيات والسُّور التي علـــــــــــــى النّاس بالحقِّ المبين تلاها

---

[1] ـ فوزي الخطبا ، **شعر ابن جبير**، 63.
[2] ـ يوسف النبهاني ، **المجموعة النهانيّة في المدائح النبويّة**،31/3.
[3] ـ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**،375/5.
[4] ـ ابن السّاعاتي، **الديوان**، 50.

فعالج أمراض القلـــــــــــوب بنورها   وأنقذها مـــــــــــــن سُقمها وشَفاها
وكانت مـــــــــــن الكفر المبين على شفا فزخرفها عـــــــــــــن موبقات شفاها
عليه سلام الله مـــــــــــــــا لاح بارقٌ   وروّى الرّيـــــــــــاضَ الناعماتِ نداها
وما بقيت مـــــــــــــــن تابعيه عصابة   يميت ويحيـــــــــــي بأسها ونداها ([1])

فقد جانس الشاعر بين (قناها) وهي الرّماح، و (قناها) من القنيّ ـ الادخار ، وجانس بيـن (تلاها) وتعني جاء بعدها، و(تلاها) رتلها ، كما جانس بين(شفاها) من الشفاء أي العلاج، و(شفاها) حافة البئر، وفي البيتين الأخيرين جانس بين (نداها) الماء الخفيف، و (نداها) أي العطاء، ومن أمثلة الجناس المركب المفروق قول الزمخشري في قصيدته الكافيّة:

من القاصـــــــــــرات الطرف غير فوارك   ولكن لحبّات القلـــــــــوب فوا رك ([2])

حيث جانس الشاعر بين (فوارك) من الفارك أي المرأة التي تبغض زوجها ، و(الفرك) أي دلك الشيء حتى ينقلع قشره عن لبّه، ويرد الطباق كثيرا في المدائح النبويّة، يقول فتيان الشّاغوري في مدحته:

إليك رســــــــــــول الله منّي ألوكة   حنانيك قــــــــــــد يحنو على العبد سيّد
شواحب ألــــــــــوان براها لغوبها   بفيفاء فيهــــــــــا الأبيض اللون أسود ([3])

ومنه قول الصّرصريّ:

لقد حـــــــــــــاصرتنا حتى كأنا   أســـــــــــــارى فيك ليس لنا فداء ([4])

ومن أمثلة الإيداع ([5]) الوارد في المدحة النبويّة، قول ابن قزل:

فيا خير مبعــــــــــوث وأكرم شافع   وأنجح مأمـــــــــــــول وأفضل موئل

---

[1] ـ الصّرصريّ ، **الدّيوان**، 619-620.
[2] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره**، 16/2.
[3] ـ فتيان الشاغوري، **الدّيوان**، 109.
[4] ـ الصّرصريّ، **الديوان**، 29.
[5] ـ التضمين: أن يتوقف البيت في معناه على البيت الذي يليه. انظر ابن حجّة الحموي ، **خزانة الأدب**،311/2.

عليك سلام الله بعــــــــــــد صلاته كما شفـــــــع المسك الفتيق بمندل([1])

ويظهر فنّ التوجيه بكثرة عند شعراء المدائح النبويّة، وخاصّة بذكر أسماء السّور القرآنيّة،وتعداد أسماء الأنبياء والملائكة والشخصيّات ،أو بذكر البقاع والأماكن، ومن أشهر الشعراء الذين أكثروا منه في مدائحهم ابن السّاعاتي في مدحته، فهو يقول:

ولم يجـــــــــــب آدم في دعوته نعم ولم يـــــــــــــك قابيل وهابيل
كم برّدت غلة مـــــــــــن ماء كوثره إذن وكـــــــــــــم فكّ مصفود ومغلول
الخمسة الغـــــــــرّ لم يقض اجتماعهم إلا وسادسهم فـــــــــــي الجمع جبريل
فعنهم أخـــــــــــــذ التنزيل أجمعه في الكافـــــــــــرين وفي الباغين تأويل
قوم لهم زمـــــــــــــزم لا دفع عنه ووضع الرّكن لمّا تعــــــــاطته البهاليل
والبيت نكب عنـــــــــه الفيل مكرمة لهم فلولاهم مـــــــــــا نكب الفيل([2])

ومن فنون البديع التي جاءت في أشعار المديح النبويّ، فنّ الطرد أو العكس وهو " تقديم لفظ من الكلام ثمّ تأخيره، ويقع في وجوه كثيرة" ([3])ومن أمثلته عند الصّرصريّ:

بدا لنا وجــــــــــه محبوب لنا صلف تحت الدّجى جـــــاب عنّا حندس الظلم
وجـــــــــــــه محبوب لنا صلف جاب عنــــــــــــــا حندس الظلم
بدا لنا وجـــــــه محبوب لنا صلف جبينه خلـــــــــــت صبحا في أسرته([4])

وعليه يمكن القول بأنّ الأسلوب قد تنوّع في تلك المدائح بين الرّقة والجمال ، والقوّة والفخامة والرّصانة . وإن شغف الشعراء بإيراد صنوف البديع الذي لم يقصد لذاته من وجهة نظري، وإنما جاء تزيينا وإضافة لجماليّات المدحة النبويّة . وجاء موافقا لذوق النقاد على هذا الصّعيد،وقد طابق الشعراء بين الألفاظ والمعاني المستخدمة ، وطبيعة

---

[1] ـ ابن قزل ، **الدّيوان**، 339.
[2] ـ ابن السّاعاتي ، **الديوان** ، 48-49.
[3] ـ ابن حجّة الحموي، **خزانة الأدب**، 354/1. وانظر أسامة بن منقذ، **البديع في البديع في نقد الشعر**، 78.
[4] ـ الصّرصريّ ، **الديوان** ، 519-521.

المفردة التي جاؤوا بها ضمن المدحة النبويّة، وهذا الأمر يحسب لهم وللعصر الذي مثلوه .

ومن غير شكّ فإنّ اللغة تأتي على رأس الهرم فيها، وهي التي تشير بالبنان إلى كلّ عصر وإلى أهله، وتدلّ على النواحي العقليّة والاجتماعيّة لذلك العصر، وبصرف النظر عن تطوّر اللغة أو تأخرها أو تعرّضها للهنات والانتكاسات في بعض الأحايين،إلا أنها ظلت باقية ومحافظة على ثوابتها الأصيلة التي لن تحيد عنها في يوم من الأيّام،كيف لا ؟ وقد تكفل لها الله بذلك .

والنقاد القدماء لم يغفلوا ما للغة من أهميّة في بناء العمل الأدبيّ،وإنما أولوه الأهميّة الكبرى، فهم دعوا إلى البعد عن استعمال الوحشيّ، أو اللغات النادرة عند العرب،ولو كان الشعر جيّدا ([1]).

ومنهم من دعا إلى خروج اللغة المستعملة في الشعر مخرج النثر، حيث السهولة وحسن النظم، لذلك نرى ابن طباطبا يقول: " فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني الحسنة الرّصف، السلسة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاما، فلا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها"([2])

ولم يختلف النقاد المحدثون في نظرتهم إلى اللغة، لهذا نراهم يدعون إلى السهولة، وملاءمة اللغة للعصر المعاش، من حيث القرب والحسن، والبعد عن التكلف وغير المفهوم لأنّ الشاعر لا ينظم لذاته.

ولا شكّ في أنّ الأديب الناجح هو الذي يستخدم لغة الحياة المعاصرة، إذ لا يجوز له أن يبلغ من فنه ما يريد دون مشاركة الجماعة، فهو لا يستطيع العيش بمعزل عن الناس في برج عاجيّ، ويختار لنفسه لغة خاصّة لا يفهما معاصروه، وإذا ما صنع فإنه ينافي بذلك طبيعة العمل الأدبيّ، فمن أخصّ خصائص العمل الأدبي أن يكون الأديب قادرا على

[1] ـ ينظر ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، 88/1.
[2] ـ **عيار الشعر**، 49.

توصيل ما لديه من تجارب للآخرين، ويخضع اللغة لمدلولات الألفاظ التي تحدّدها الجماعة التي اصطلحت على مدلولات ومصطلحات يعرفها المجتمع حقّ المعرفة، و إلا اتهم بالشذوذ. ([1])

ومن بين الجوانب الهامّة التي اتفق عليها الأقدمون والمحدثون من النقاد، سلامة اللغة من الأخطاء النحويّة والصّرفيّة واللغويّة التي هي شرط أساسيّ لجماليّة القصيدة العربيّة .([2])

وقصيدة المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيّوبيّ جاءت موافقة لما طلبه النقاد من حيث السّهولة، ومجاراتها للعصر الذي انبثقت فيه،وخلت القصيدة من الألفاظ الغريبة إلا عند بعض الشعراء،فاللغة راوحت بين ما هو تقليديّ خاصّة في المقدّمات التي افتتح بها الشعراء قصائدهم،وأحاديثهم عن الرحلة والدّيار، وبين ما هو موافق لنمط العصر وفيها نحا الشعراء جانب السّهولة والوضوح وابتعدوا عن الوعر أو الخشن من الألفاظ .

ونظرا لغلبة الطابع الديني على قصيدة المديح النبويّ، نجد الأثر الدينيّ يظهر بجلاء ووضوح على صعيد الألفاظ التي تميّزت بالسّهولة، وهذا ليس بالأمر الغريب، فالمديح خصّ النبيّ محمدا، لذا استمدّ الشعراء ألفاظهم ومعانيهم التي أوردوها ضمن قصائدهم من الموروث الديني الهائل، فالقرآن الكريم والسّنة النبويّة كانا بمثابة القاموس الذي رفد الشعراء، وبذلك انحرف الشعراء عن الغموض إلا عند الشاعر الصرصريّ في بعض مقدّماته التي حضرت فيها الرمزّية بشكل لافت إلى الحدّ الذي يحتاج فيه القارئ إلى مصاحبة القاموس ليستدل على المعاني الواردة في القصيدة، فهذا الصّرصريّ في مدحته النبويّة الضّاديّة يقول:

وللجيش حقّاً مـــــن أصابع كفّه   تدفّق مـــــاءٌ في الإناء غريضُ ([3])
وخدّت إليه الأرضُ وهـــو بمكة   من الدّوح قنـــواءُ الفروع ربوضُ([1])

---

[1] ـ ينظر محمد زكي العشماوي، **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، 25.
[2] ـ ينظر يوسف بكار، **بناء القصيدة في النقد العربيّ القديم في ضوء النقد الحديث**، 146.
[3] ـ الغريض : الطريّ من اللحم والماء والتمر واللبن.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،878/1.(غرض)

وروى الصّدا مـــــــن درّ عجفاء حايلٍ   تمكّن منــــــــــــها الهزلُ فهي رفيض([2])
وأبقى لــــــــــذات الشاء ملء إنائها   وذلك للرّهــــــــــــط الظماء يريض([3])
وذلّت له الآســـــــــادُ حتى لقد جثا   أويسٌ علــــــــــى بـــاب البقيع ربوضُ([4])
فيا خير هـــــــــاد طهّرِ الأرضَ بالهدى   من الرّجـــــــــس والأوثان فهو رحيض ([5])

ويظهر الشاعر براعة في الإتيان بالألفاظ الوعرة،التي هي ألفاظ ثقيلة على الألسنة، وهي بعيدة كلّ البعد عن التنغيم الموسيقي الذي من المنتظر أن تحدثه الألفاظ باتحادها مع بعضها بعضا، وقد علق مخيمر صالح على إيراد مثل هذه المقدّمات بقوله: " وقع فيهما أسيرا للتكلف والتحذلق، ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا قرنا هذه الظاهرة بما عرف عنه بأنه كان يحفظ صحاح الجوهري بتمامه، فأراد أن يكشف عن درايته وقدرته على حفظ الألفاظ والتراكيب وخاصّة الوعر والمستعصي منها وكان ذلك على حساب فنه الشعريّ "([6]) .

على أنه في المقابل لا يمكن إغفال الشعراء الذين نحوا جانب السهولة ، فالصرصريّ في أغلب قصائده يلتزم جانب السهولة والوضوح في إيراد الألفاظ الخفيفة على السّمع والتي تحدث تنغيما موسيقيّا تطرب لسماعها الأذن، وقد أوردنا أمثلة كثيرة من شعره تدلل على ما ذهبنا إليه،ونورد منه قوله:

تبارك ربّنا هـــــــــــادي الحيارى   إلى قصـــــــــــــــد السّبيل وعزّ جارا
وسبحان الـــــــــــذي ذرأ البرايا   بصنع لا يحـــــــــــــدّ و لا يبارى
وقدّر للــــــــــــورى أجلا ورزقا   وقدّر فيه عســـــــــــــرا أو يسارا
وسكان السّمـــــــــــاء له عبيد   ومن سكــــــــــن البراري والبحارا ([7])

---

[1] ـ قنواء: أي شجرة طويلة. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1738/2.(قنو) ربوض: عظيمة.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 870/1.(ربض) .
[2] ـ الرفيض: المتروك. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 871/1.(رفض)
[3] ـ يريض: يكفي. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 1/ 863.(يرض)
[4] ـ الأويس: الذئب. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 731/1.(أوس)
[5] ـ الصّرصريّ ، **الديوان** ، 263.
[6] ـ **المدائح النبويّة بين الصّرصريّ والبوصيري** ، 300.
[7] ـ الصرصريّ ، **الديوان** ، 160.

ومن بين الشعراء الذين مالوا إلى استخدام الغريب في ألفاظهم الزمخشريّ ،الذي يعد من الضالعين في اللغة، ومن أئمتها البارزين، والمتشبثين بأصالة لغته، حيث تظهر لغة البادية بفصاحتها وأصالتها وجزالتها مع قوّة أسرها،فهو يقول في كافيّته:

أدار الأولـــــــــــى حلوك أين أولئك   أراك محـــــــــــــــلا للظباء الأوارك([1])
وبئس معوضات ظبـــــــــــاء أوارك   مكان ظبــــــــاء الأنس فوق الأرائك([2])
لسرعان ما صـــــــــــاح الغراب ببينهم   وفوجئت منهم بالــــــرّحيل المواشك([3])
كأني لم أنظر إلــــــــــى الحيّ صادعا   عصيّ النوى بيـــــــن اللوى فالدّكادك([4])

من خلال الأبيات السّابقة وغيرها ، يظهر الشاعر و يدلل على تعلقه بالبادية، وذلك من خلال الألفاظ التي يبدو فيها قريبا من الشعراء الجاهليين عندما كانوا يفتتحون قصائدهم أو معلقاتهم،لذلك ينطبق عليه وصف عبد السّتار ضيف عندما قال: " وهو من هؤلاء الشعراء الذين آثروا أن يكونوا بدوا في لغتهم، وإن كانوا متحضّرين في حياتهم " ([5]).

ولا يخفي الشاعر تأثره الكبير بالقرآن من خلال الاستفادة من الألفاظ التي أوردها القرآن في سوره، (الأرائك، صادع) ولا شكّ بأنّ الاستفادة من ألفاظ القرآن ومزجها ببداوة الصّحراء تدلل على مقدرة وملكة لغويّة بارعة من الشاعر .

وينحو فتيان الشاغوري منحى السهولة وعدم الحذلقة في إيراد الألفاظ ،فقد ابتعد فيها عن الخشونة، أو تلك التي تمجّها الآذان، ويظهر ذلك في طلبه للشفاعة، وتحميله الرّسالة للزوّار المغادرين للديار الحجازيّة، يقول:

ألا أيّها الـــــــــــــــــزّوار بالله بلغوا   سلامــــــــــــي إليه وارفقوا وتأيّدوا
وقولوا لـــــــــــــه فتيان يشكو صبابة   إليـــــــــك ووجدا حرّه ليس يبرد

[1] ـ ورك في المكان: أقام به. الأوارك: جمع أركة، وهي التي ترعى الأراك. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،2/ 1266.(ورك)
[2] ـ الأرائك: جمع أريكة، وهي السّرير أو الفراش. الفيروزآبادي **القاموس المحيط**،1234/2.(أرك)
[3] ـ المواشك: السّريع. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 2/ 1267.(وشك).
[4] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره** ، 14/2.
[5] ـ **جار الله محمود عمر الزمخشري حياته وشعره**، 251.

يرجّي غـــــــــــــــــدا تبريد غلته إذا شغفت لـه في الحشر والحوض مورد([1])

ونظـرا لاختلاط العرب بغيرهـم في العصرين الزنكـي والأيّـوبي، يبـدو التأثر واضحا بثقافات الأمم الأخرى، ويظهر ذلك بجلاء من خلال الألفاظ والمفردات التي استعملها الشعراء، لـذلك يطالعنا شعراء المـديح النبـويّ ـ في هـذين العصـرين ـ باستخدامهم للكلمـات الفارسـيّة في قصـائدهم، مثـل (الزبرجـد، واليـاقوت، والعقيـق، والمرجـان ، والـنيروز)([2]) كما استخدموا الألفاظ ذات الأصل اليوناني، مثل: (الإبريز)، ومن ذلك يقول عبد الرّحيم بن الأخوّة:

وأذرى النـــــــــوى دمعي خلال دموعها كما نـــــظم الياقوت والدرّ في العقد ([3])

ويقول عليّ العمراني حيث يذكر الجمان(وهي لفظة فارسيّة) :

مهما تذكـــــــــــرتها فاض الجمان على خديّ بالإثـــمد الهنديّ مكحول ([4])

وتكثر في أشعارهم المصطلحات والألفاظ التي تدل على ما استوعبه هـؤلاء الشعراء من ثقافة فقهيّة، ونحويّة، وعروضيّة، وصرفيّة، وكلاميّة، يقول ملك النحاة:

هل سامــــــــــع يا رسول الله أنت لمن ولاؤه لـــــــــــــك مرويّ ومنقول

ولترضك الصّلـــــــــــــوات الغرّ دائمة يزين أمراطها مـــــــا شئت ترفيل([5])

وفي تبيان فضل القرآن الكريم وما حوى، حيث يستخدم المصطلحات الدّينيّة (من القرآن والحديث النبويّ) ممزوجة بالمصطلحات اللغويّة، ويقول عبد المحسن التنوخيّ:

يزيد فيها إذا مـــــــــــا زدتها نظرا على الفحــــــــــول لها خلق وتعديل

---

[1] ـ فتيان الشاغوري، **الديوان** ، 110.

[2] ـ ينظر آدي شير، **معجم الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، في صفحات متفرّقة.

[3] ـ العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، 213/3/1.

[4] ـ ياقوت الحمويّ، **معجم الأدباء**،375/5.

[5] ـ كمال الدين بن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، 2393/5. والترفيل : من المصطلحات العروضيّة، وهو ما زيد عليه سبب خفيف فتصير " متفاعلن" " متفاعلاتن" . عبد العزيز عتيق، **علم العروض والقافية**،61.

فيه بيـــــــــــــــان وأمثال مرحمة وحكمة ومـــــــــــواعيظ وتفصيل ([1])

أمّا بالنسبة للألفاظ العاميّة، فلم يعن بها شعراء المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيّوبيّ إلا ما ورد عند ابن الجوزي في خواتيم قصائده عندما كان يتضرّع إلى الرّسول محمد، ويبدو أنّ الشاعر قد تأثر بخرجات الموشحات الأندلسيّة التي كانت يعمد فيها أصحابها إلى إيراد خرجات موشحاتهم بالعاميّة، يقول في ختام احدى قصائده:

كعبـــــــــة الله يـــــــا جماعه تنجـــــــــلي في كـــــــلّ ساعة
والصّـــــــــــــــلاة ألفين مرّة علــــــــــــــى النبيّ ذكره مسرّه ([2])

وورود مثل تلك الألفاظ العاميّة وشيوعها في الشعر، خاصّة عند الصوفيين سهّل ذيوعها في صفوف العامّة، لأنها من وحي لغتهم اليوميّة لهذا كانت تنشد تلك القصائد في الأذكار والمجالس طويلا، وهذا يدلل على ولع الناس بها .([3])

ويمكن القول أنّ هؤلاء الشعراء قد حاولوا أن يضعوا المفردة في موضعها لتعبّر من خلال استعمالها في موقعها عن معناها الذي قصدت من أجله،أو توضّح ارتباطها بمواقف وحالات نفسيّة للشاعر، وتصل بشعره إلى درجة الجمال، والشواهد التي أوردناها خير مثال على ما سبق من قول، ولا بأس أن نورد أبياتا من مدحة عليّ العمراني، عندما أخذ يتغزل بمحبوبته سعدى حيث هاجته الذكرى، يقول :

فهــــــاج برق وجدي بسعدى وهي نائية عني وقلبـــــــــــي بالأشواق متبول
لم يبـــــــق لي مذ تولى الظعن باكرة صبـــــــــر ولم يبق لي قلب ومعقول
ما أنـــــــس لا أنس إذ تجلو عوارضها والجفــــــن بالإثمد الهندي مكحول
ظمـــــــأى الموشح ريّان مخلخلها عبـــــــل مؤزّرها والمتن مجدول

---

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 3/35-36.
[2] ـ صلاح الدّين الهواري، **المولد النبويّ الشريف**،110.
[3] ـ ينظر شوقي ضيف، **الشعر وطوابعه الشعبيّة على مرّ العصور**، 175-176.

كأنما ثغـــــــــــــــرها درّ إذا ابتسمت   وريقها سحـــــــــــرا بالراح معلول ([1])

فالشاعر تخيّر مفردة (القلب) ولم يتخيّر (الفؤاد) وهنا يدخل عنصر الذوق والشعور في اختيار المفردة، وتخيّر (ثغر) ولم يتخيّر الأسنان التي في الفم مع أنه أرادها، وهذا ذوق بلاغي جميل في انتقاء المفردة، وهو في غاية الحسن لفظا وسبكا عندما وقف ليشبّه الثغر بالدّرّ .

وتشيع في لغتهم مجموعة الممكنات أو الضّرائر التي أجازت العرب شيوعها في الشعر دون الكلام، سواء كانوا مضطرين أو غير مضطرّين،مع أنّ الأصل هو مراعاة سلامة الوزن، وأيّ زيادة أو نقص تخرجه من عن طريق الشعر([2]) .

ومن الضّرائر التي كثرت في قصائد المديح النبويّ قصر الممدود، والنحويّون مجمعون على جوازه ([3]) ، يقول عبد الرحمن بن الجوزي:

يـــــــــــا درّة الأنبيا يــا روضة العلما   يـــــــــــا ملجأ الغربـا يا سيّد الرّسل([4])

فـ " الأنبيا " و " العلما" و " الغربا" ممدودات ، وقد قصرها الشاعر للضرورة بحذف الألف التي قبل الهمزة، ومنه قول عبد الرّحيم بن الأخوّة:

آثـــــــــــــــــاره مشهورة وخلاله   مشكـــــــــــــــورة وصفاته تعيي الثنا ([5])

ومن الضرورات التي برزت صرف الممنوع من الصرف، مثل قول ابن قزل:

---

[1] ـ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 374/5-375.
[2] ـ ابن عصفور الإشبيلي، **ضرائر الشعر**، 7.
[3] ـ نفســـــــــه ، 90-93.
[4] ـ صلاح الدّين الهواري، **المولد النبويّ الشريف**، 101.
[5] ـ العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**،(قسم شعراء العراق) 210/3/1.

تحمّلن منا كـــــــــــــــــــلّ أشعثَ أغبرٍ فيـــــــــــــا عجبا من رحلها المتحمّل ([1])

فقد صرف الشاعر" أغبر" مع أنّ حقها المنع لأنها على وزن أفعل، والضرورات كثيرة ولكن يضيق المجال لتتبعها والتمثيل عليها في هذا الموطن.

وبذلك نرى أنّ الشعراء أبقوا على قدر كبير من الفصاحة ، فهم وإن كانوا مقلدين فهذا لا يضيرهم في شيء، أضف إلى ذلك طغيان روح العصر عليهم في انتقاء الألفاظ السهلة التي لا تصل إلى حدّ الابتذال، وبذلك يستطيعون الوصول إلى قلوب الشعب الذي شغف بتلك المدائح ولاقت رواجا قلّ نظيره عند العامّة وغيرهم، أضف إلى ذلك فإنّ إيرادهم لتلك الألفاظ يدلل على مقدار ثقافة هؤلاء الشعراء الذين عنوا بتراث الشعر وبلغته الواضحة والصّحيحة .

[1] ـ ابن قزل ، **الدّيوان** ، 336.

2. الموسيقى:

للموسيقى دور أساس للعمل الشعريّ، إذ لا يمكن للشاعر أن يستغني عنها، فالمتلقي بحاجة إلى وسائل تسهّل عليه إشباع الحواس، والحاسّة التي لها كبير الأثر عند الإنسان هي حاسّة السّمع التي تتواءم معها الموسيقى بشكل كبير، من هنا يرى حازم القرطاجني أن هناك سلسلة من الرّوابط التي تجمع بين الموسيقى والمعاني المؤدّاة ، فالألفاظ ذات العذوبة والحلاوة تتأتى بحسن المواد والصّيغ والائتلاف، وكذلك تقارب أنماط الكلم في الاستعمال ([1]) .

وقد حدّد إبراهيم أنيس شرط ذيوع الشعر بقوله: " وشرط ذيوع الشعر وشهرته أن تستمتع آذان الناس بموسيقاه قبل استمتاعهم بمعانيه ومراميه، فنغمته الموسيقيّة تلذّ السّامع أيا كانت بيئته الاجتماعيّة، وهي هي يسمعها في شعر هذا وشعر هذا " ([2]).

ويشير شوقي ضيف إلى أنّ الأوزان وجدت مع الشعر، لذلك يرى بأنّ الشاعر لا ينطق شعره بلغة عاديّة، وإنما يأتي به موزونا، وبذلك يأتي ليلبي فينا غريزة أو فطرة نشأت قبل أن تنشأ اللغات ([3]).

ويرى الباحث أنّ تلاحم الموسيقى في القصيدة الشعريّة في نسق متحد بين المعاني والألفاظ والصّور والعواطف والأخيلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالانفعالات النفسيّة عند الشاعر حال نظم القصيدة الشعريّة، وبذلك يمكن مشاهدة اللحمة أو الوحدة بين أجزاء القصيدة الواحدة، وعلى أساسها يتمّ القبول أو النفور من السّامعين، أو المتلقين .

وعند الحديث عن قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكيّ والأيّوبي من ناحية الموسيقى، فإننا سنتناولها وفق التقسيم التالي:

---

[1] - ينظر **منهاج البلغاء**، 225.
[2] - **موسيقى الشعر**، 186.
[3] - **في النقد الأدبي** ، 99.

- الوزن . - القافية . - المحسّنات اللفظيّة .

الوزن :

وبما أنّ الأوزان من المقوّمات الأصليّة للشعر العربيّ ، وهي التي تحدث الفارق بين الشعر والنثر، وفي هذا المقام لا يمكن لنا أن نغفل اللحمة بينها وبين القافية، فاتحاد الوزن مع القافية يضفي جماليات على الشعر ويجلب الجاذبيّة، ويبعث الانفعال النفسي للموسيقى الحادثة، كما تأسر القلوب ، وتجلب الرّاحة للأذن.

وبذلك نرى اهتمام شعراء المديح النبوي بالأوزان ، ولم يخرجوا عن الإطار الجاهلي أو القرون التي تلت، وإنما ظلّ الشعراء محافظين على الأوزان، مع العناية بوزن على حساب الآخر، لهذا سأورد جدولا يبيّن فيه البحور التي نظم عليها شعراء المديح النبويّ قصائدهم، مرتبة حسب عدد الأبيات من حيث الكثرة، ومشفوعة بذكر عدد الأبيات التي قيلت في كلّ بحر من البحور التي نظموا قصائدهم على أساسها، لمشاهدة البحور التي أغفلها الشعراء، مع ضرورة التنبّه إلى أنّ القصائد ، أو الأبيات المذكورة لا تمثل حصيلة ما نظمه هؤلاء الشعراء:

الرقم	البحر	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
1 -	البسيط	12	344
2 -	الكامل	12	340
3 -	الطويل	7	135
4 -	المتقارب	6	76
5 -	الوافر	5	50
6 -	الخفيف	2	28
7 -	المنسرح	1	7
8 -	السّريع	1	6
9 -	الرّمل	1	6

المجموع	47	1090

يتضح لنا من خلال الجدول السّابق أن الشعراء مالوا إلى النظم على البحور الأكثر شيوعا،فالكامل والطويل والبسيط من أكثر الأوزان شيوعا في الشعر العربي القديم([1])، وبذلك هم مسايرون لما عرف عن هذا البحر، وهو من البحور التي تحمل الأوزان ذات الإيقاعات القصيرة.

كما نشاهد أنّ الشعراء مالوا إلى استخدام البحور ذات التفعيلتين نظرا لأنها محبوبة إلى النفوس ومقبولة في الآذان، ومع ذلك لا نراهم يغفلون استخدام البحور ذات التفعيلة الواحدة مثل الكامل، والمتقارب، فقد جاءا في المرتبة الثانية والرّابعة، والمعروف أنّ البحور ذات التفعيلة الواحدة تضفي مزيدا من الموسيقى الخارجيّة التي تظهر بوضوح في القراءة.

ويلاحظ من خلال الجدول أنّ الشعراء لم ينظموا على أوزان الهزج والمقتضب والمتدارك والمديد، والسبب يعود ربما إلى ندرة النظم عليها، ولا تتوافق مع التنغيم عند النظم عليها في المدائح النبويّة.

وبذلك نرى أنّ الشعراء في استعمالهم للبحور الشعريّة كانوا متمشين مع الذوق العربي العام في نسبة الشيوع على صعيد أشعارهم، كما يمكن القول إنّ طبيعة شعر المديح الخاصّ بالرسول فرضت على الشعراء الجدّية في انتقاء المعاني والألفاظ والأوزان من هنا تسنى لها الرّواج والقبول عند الناس، كما يمكن القول بأنّ الأخطاء التي تخصّ الأوزان كانت قليلة، وهي تلك التي عمد الشعراء إليها لإقامة الوزن ، فصرف الممنوع من الصرف، أو قصر الممدود والعكس وكل ذلك جائز للشعراء ولا خلاف عليه، فهو يقع ضمن الضرورات النحويّة أو اللغويّة .

[1] ـ ينظر إبراهيم أنيس ، **موسيقى الشعر** ، 64.

والملاحظ أيضا أنّ معظم النظم جاء على الأبحر الطويلة، وإن كانت هناك بعض البحور المجزوءة من مثل مجزوء الرّجز ومجزوء الكامل ، فقد وردت في ثلاث مناسبات ، وعدد أبياتها ثلاثة وخمسون بيتا .

ونمثل على الأوزان أيضا من خلال ديوان الصرصريّ الذي برع على صعيد المديح النبوي ، إذ أنّ أغلب هذا الدّيوان غلب عليه المديح للرّسول،وفيما يلي جدول يبيّن تلك البحور التي صاغ عليها الشاعر قصائده :

الرّقم	البحر	عدد الأبيات
1.	الطويل	3139
2.	الكامل	2094
3.	البسيط	1848
4.	الخفيف	694
5.	الرّجز	366
6.	الوافر	307
7.	المتقارب	205
8.	المنسرح	146
9.	الرّمل	104
10.	السّريع	70
11.	المتدارك	46
12.	المديد	38
13.	المحدث	34
14.	المضارع	24
15.	المجتث	21
	المجموع	9526

ومن النظر في الجدول السّابق يتبيّن أنّ الشاعر قد وافق ذوق الشعراء العرب من خلال اختياره البحر الطويل ونظم عليه أغلب أبياته، وبذلك استأثر نصيب الأسد من بين البحور الأخرى، مع العلم بأنه أكثر البحور الشعريّة شيوعا، فقد جاء ثلث الشعر نظما على هذا البحر.

ويأتي البحر الكامل في المرتبة الثانية، ثمّ البسيط وهكذا ،وكأني بالصّرصري يوافق مقدار شيوع البحور الشعرية من حيث النسبة عند العرب ، وبهذا نرى أنّ الشاعر قد استعمل البحور جميعا باستثناء بحر الهزج الذي لا يتواءم مع طبيعة الموضوع وهو من الأبحر التي عرفت بندرة النظم عليها .

ولم يغفل الصّرصريّ البحور المجزوءة فقد ركز على مجزوء الرجز الذي أورد منه مائتين وثمانية وثمانين بيتا ، ومجزوء الكامل الذي أورد منه خمسة وخمسين بيتا شعريّا مع إغفاله لبقية البحور المجزوءة، وبذلك نرى أنّ الشاعر قد فتن بالبحور الطويلة .

وقد سلم الوزن الشعريّ عند الشاعر في أغلب شعره ، ولكن تبقى الضرورات الشعريّة طافية على السطح، فقد لجأ الشاعر إلى تلك الضرورات طلبا لسلامة الوزن مع أنها تبقى قليلة مع الحجم والكم الهائل لأبيات المديح النبوي التي نظمها.

القافية:

ولا تقلّ القافية في أهميّتها عن الوزن، ومن النقاد القدماء الذين أشاروا إليها قدامة ابن جعفر فقال عند تعريفه للشعر : " إنه قول موزون مقفى يدل على معنى " ([1]) ، ووضع لها شرطا، وهو وجوب أن تكون عذبة سلسة المخرج، ويعتمد ذلك اعتمادا كبيرا على قدرة الشاعر وحسن إجادته، سعة بحره ([2]).

---

[1] - نقد الشعر، 17.
[2] - ينظر نفسه ، 51.

وقد عرّفها إبراهيم أنيس بقوله: " عدّة أصوات تتكرّر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرّرها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشّعريّة، فهي بمثابة الفواصل الموسيقيّة، يتوقع السّامع تردّدها، ويستمتع بهذا التردّد الذي يطرق الآذان في فترات زمنيّة منتظمة،وبعد عدد معيّن من مقاطع ذات نظام خاصّ يسمّى الوزن " ([1]).

أمّا بالنسبة لقصيدة المديح النبويّ ، فكما تعدّدت البحور التي نظم عليها قصائدهم فإنّ القوافي (حروف الرّويّ) قد تعدّدت كذلك، والجدول التالي يوضّح الحروف التي جاءت في قصائدهم، ويحصي عدد الأبيات التي جاءت على كلّ رويّ :

الرّقم	حرف الرّويّ	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
1.	اللام	17	393
2.	الميم	9	91
3.	الدّال	7	108
4.	الألف ـ الهمزة	4	119
5.	الرّاء	4	115
6.	الكاف	2	65
7.	النون	2	32
8.	الهاء	2	11
9.	الصّاد	1	60
10.	الطاء	1	27
11.	الحاء	1	12
12.	العين	1	11
13.	الياء	1	11
15.	الباء	1	10

[1] ـ موسيقى الشعر ، 246.

16 ـ	**الغين**	1	9
17 ـ	**الفاء**	1	9
18 ـ	**القاف**	1	7

ومن الجدول السّابق يتضح أنّ شعراء المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيوبيّ كانوا يبنون قصائدهم على حروف الرّويّ الشائعة في الشعر القديم، إذ جاء حرف اللام في المرتبة الأولى من حيث الاستعمال، ثمّ جاءت بعده حروف الميم والدال والألف وهكذا، وهذه الأحرف شائعة الاستعمال في شعر الجاهليين، والأمويين، والعباسيين، وقد أقلّ الشعراء من استعمالهم لبعض الحروف التي كانت قليلة الاستعمال في العصور السّالفة، ولذلك نجد أنّ حرف الصاد ، والقاف، والغين والفاء قد وردت مرّة واحدة.

ومن الملاحظ على حروف الرّوي ورود حرفي الباء والعين مرّة واحدة مع أنّ هذين الحرفين من الحروف التي نظم عليها الشعراء السّابقون بكثرة، ونسبة شيوعها على مستوى المديح هو الغالب ، ولكن يعزى كثرة الشيوع أو قلتها إلى ثقل الأصوات أو خفتها ([1]).

وهناك ملاحظة أخرى وهي ندرة استعمال حروف الثاء والشين والضاد، وهي أصلا قليلة الشيوع في استعمالها كحروف للرويّ .

وباستقراء القوافي في شعر المديح النبوي في العصرين نجد سلامتها من العيوب، بل تجاوز الشعراء ذلك من خلال إيراد لزوم ما لا يلزم كما في قول علي بن محمد العمراني :

أضاء بـــــرق وسجف الليل مسدول   كما يهزّ اليماني وهــــــو مصقول
مهما تذكرتها فــــاض الجمان على   خدّي حتى نجـــــاد السّيف مبلول
كأنما هــــــي إذ ترخي ذوائبها   بــــدر عليها رواق الليــــل مسدول ([2])

---

[1] ـ ينظر إبراهيم أنيس ، **موسيقى الشعر**، 248.
[2] ـ ياقوت الحمويّ ، **معجم الأدباء** ، 374/5.

فالشاعر التزم في قافيته الواو واللام بالسّكنة والحركة، كما تظهر بجلاء عذوبة الجرس والغنائيّة المطربة والموسيقى الرّاقصة ، وهذا من جماليّات الموسيقى .

ـ المحسّنات اللفظيّة :

تعدّ المحسّنات اللفظيّة من الوسائل التي تكسب الشعر جماليّات في موسيقاه، وكنا قد تحدّثنا عنها في اللغة، ولا أرى ضيرا من ذكر بعض منها خاصّة تلك التي ترتبط بالموسيقى ، ومن أهمّها التصريع، وهو تقفية العروض بقافية الضرب، وقد أكثر شعراء المديح النبويّ منه، يقول الزمخشري :

قامـــــــــــت لتمنعني المسير تماضر أنّـــــــــى لهـــــا وغرار عزمي باتر [1]

ومن المحسّنات التي برزت الترصيع وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا [2] ، يقول عبد المحسن التنوخي:

والدّمـــــــــــع منهمر والشّوق منتصر والصّبـــــــــر منكسر والقلب متبول [3]

والمحسّنات اللفظيّة كثيرة عند شعراء المديح النبويّ،ولكن حشدها بالأنواع المختلفة لم يأت من فراغ وإنما جاء تحقيقا لنغم موسيقيّ عذب .

---

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة** ، 2/ 110.
[2] ـ ينظر أبو هلال العسكري ، **الصّناعتين**، 416.
[3] ـ يوسف النبهاني ، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة** ، 3/ 33.

3. الصّور الفنيّة والخيال :

مما لا شكّ فيه أنّ للتصوير أهميّة كبرى في أداء الأفكار، وفي أداء الأحاسيس التي يشعر بها الشاعر الفنان، وبذلك يزيّن أسلوبه، وقد تصل الصّور إلى حدّ الرّوعة، وبذلك تستحقّ الإعجاب، وهنا يبرز دور الشاعر في مقدرته الفنيّة، وقدرته على امتلاك ناصية البيان، ويزخرف قصيدته لتأتي لوحة فنيّة رائعة غنّاء، لذلك نجد الجاحظ يقول: " والشعر الذي يسرع إلى القلب قبوله ذلك الذي يصوّر لنا ما يدهشنا ويحسن تركيب الكلمات، وإنما الكلمات صور وعلامات وخلق مؤثل ودلالات" ([1]) .

والصّورة الفنيّة ليست خاصّة بالشعر دون سواه، فقد وردت في القرآن الكريم، وفي السنّة النبويّة، وكذلك في الحكم والأمثال، وقد تميّزت تلك الصّور بجودة السّبك، ودقة التصوير، لذا بهر بها الأقدمون وحاولوا مجاراتها، ولكن أنّى لهم ذلك؟ خاصّة تلك الصّور الفنيّة التي أوردها القرآن الكريم، فإحكام النسج، وروعة الصّياغة والسّبك، جعلتها محطّ أنظار البلغاء والفصحاء الذين وقفوا عاجزين عن مجاراتها، فهي جزء من كلام الله الذي عجزت الجنّ والإنس على أن يأتوا بمثله.

وتأخذ الصّورة وجه المفاضلة بين الشعراء، من هنا حكم النقاد لشاعر على حساب آخر، وكانت الصّورة هي موضع النقد الذي يسبق الحكم،على أنّ الصورة تعتمد اعتمادا كبيرا على ثقافة الشاعر، ومقدار ما وعاه من الموروث الحضاري والديني والتاريخي، وعندها يبرز قدرة فائقة في التعبير ونسج الصّورة ، هذا بالإضافة إلى حسن وضعها في مكانها المخصّص.([2])

وقد عرّفها علي البطل قائلا : " كلّ تشكيل لغوي يستقيه خيال الفنان من معطيات الحواس والنفس والعقل" ([3]) ، وهي وحدة التماسك في العمل الأدبيّ، وسرّه والجامع

---

[1] - **الحيوان**، 132/3.
[2] - ينظر محمد حسن عبد الله، **الصّورة والبناء الشعري**، 22.
[3] - **الصّورة في الشعر العربيّ حتى أواخر القرن الثاني الهجري**، 30.

بين أجزائه[1]، بينما يمكن أن نشهد ربط الصورة الأدبيّة بالدلالة النفسيّة، وهذا يعود إلى مقدار الوعي بالخصائص النوعيّة للأدب ([2]) .

والحديث عن الصّورة ونظرة النقاد إليها ذو شجون، ولكن ما يهمنا هنا قصيدة المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيّوبيّ، فإذا ما تعرّضنا لها فإننا نجد بأنّها ذات ارتباط بالموضوع الذي جاءت من أجله المدحة النبويّة، ولا شكّ في أنّ الموضوع يغلب عليه الطابع الدينيّ ، لذا نجد أنّ الشعراء قد اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الموروث الدّينيّ كأساس لهم في استقاء الصّورة، فالقرآن الكريم والسّنة النبويّة رفدا هؤلاء الشعراء وكانا الأساس في اختيار الصّورة واستقائها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها يقول الصرصريّ:

والشمّ قد سيّرت والأرض مائـــــدة الـ	أرجـــــــــاء والعالم العلويّ قد هبطا
والناس مثل فراش قـــــــد رأى لهبا	فانـــــــــــبثّ أو كجراد ثار فانبسطا
والعرش يحمله الأمـــــلاك والحكم الـ	عدل الخبير علـــــــى الكفار قد سخطا
وبرّز النّـــــار للترهيب خـــــــازنها	وصـــــــــال بطشا على سكانها وسطا
وأكـــــثر النّاس فيـــــها أمّة شرفت	فــــــــأصبحت في البرايا أمّة وسطا
حازت بأحمد في الدنيا الفخار وفي الـ	أخـــــــرى على حوضه يضحي لهم فرطا
هــــــــاد بشير نذير مقسط نقضت	أحكــــــامه كلّ حكم في الورى قسطا([3])

فهو يتأثر بالقرآن الكريم حيث يستوحي الصّور بنصّها، أو بمعناها، إلى الأمر الذي حدا به إلى أن يأتي بآيات كريمة مثل: [ألم نجعل الأرض مهادا] ([4]) و هذا سنتحدّث عنه في باب التناصّ مع القرآن الكريم .

وتأتي التشبيهات في المدائح النبويّة في المنزلة الأولى، فشخصيّة النبيّ محمد كانت المحور الأساس الذي دارت حوله تلك التشبيهات، لذلك عزف عليها أكثر الشعراء،

[1] ـ ينظر إحسان عبّاس، **فنّ الشّعر**، 207.
[2] ـ ينظر بشرى موسى صالح، **الصّورة الشعريّة في النقد العربيّ الحديث**، 25.
[3] ـ الصرصريّ ، **الديوان**، 269-270.
[4] ـ سورة النبأ، آية 6.

وحظيت باهتمام لافت، و نجد أنّ الشعراء وجدوا فيها صورة كاملة وناصعة للقيم الرفيعة التي يتمنى المادحون أن يجدوها في الممدوح، فجاء العزف على هذا الوتر من جهة، وحمل في طيّاته دعوة إلى أبناء الإسلام للتقيّد بتلك القيم من جهة ثانية، علما بأنّ تلك النظرة إلى الرسول لم تتغيّر بتغيّر البيئات أو الأزمان أو حتى بتغيّر الشعراء .

وتظهر صورة النبيّ محمد من خلال التركيز على ذكر الصّفات المعنويّة،وأكثرها شيوعا بين الشعراء تشبيههم للرسول صلّى الله عليه وسلّم بالنور الذي يبدّد الظلمة ، ووصفوه بالجود، والشجاعة، والعفاف، وهو كهف العطايا، يقول شرف الدّين الأنصاري:

أمر عليـــــــــــــاك في الورى غير خاف   فإليـــــــــــك انتهى مدى الأوصاف
تـــــــــمّ جـــــــودا للمستميحين معف   واغتفـــــــارا عـــن المسيئين عاف ([1])

ويتغنى الصرصريّ بأخلاق الرسول ،فالرّسول رحيم، وحكيم ،وحليم، وعطوف ، يأتي بها الشاعر على شكل صور جميلة، يقول:

حليـــــــــــــــمٌ حكيمٌ سيّدٌ ماجدٌ به   أنارت مصـــــــــابيحُ الدُّجى وأضا الشَّرقُ
رؤوفٌ رحيـــــــــــــــمٌ مشفقٌ متعطفٌ   سجيٌّ لــــــــه في الخلق قد عظم الخُلقُ
عفيفٌ شريفٌ مُصلــــــــــــحٌ متواضعٌ   تفجّر للورّاد مـــــــــــن كفِّه الودقُ([2])

وعلـى تلـك الشـاكلة سـار ملـك النحـاة في تصـويره، فالعليـاء والكـرم، والأخـلاق والشّيم،ومنطقه واضح للعيان، والنفس تفخر به يقول في ميميّته :

لله أخـــــــــــلاق مطبوع على كرم   ومـــــــــــــن به شرف العلياء والكرم
أغـــــــرّ أبلـــــــج يسمو عن مساجلة   إذا تذوكـــــــــــرت الأخلاق والشّيم
سمت علاك رســــــــــول الله فارتفعت   عن أن يــشير إلــــــــــى إثباتها قلم ([3])

---

[1] ـ شرف الدين الأنصاري ، **الديوان** ،327.
[2] ـ الصرصريّ ، **الديوان**، 339.
[3] ـ ابن العديم ، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، 5/ 2392.

ولوعة الهالة التي كان عليها النبيّ فقد رسم عبد الرّحيم بن الأخوّة صورة للشمس وهي تخفي ضوءها حياء عندما قابلت الرّسول:

إذا قابلتك الشمـــــــس أخفـــت ضياءها حيـــاء وأغضت وهي تختال في السّعد([1])

وفي جمال صفاته، وحسن هيئته التي تغنى بها الشعراء كثيرا، فجمال الوجه،والجبين، والكف، والفم لا يخرج إلا الجواهر، يقول الصرصريّ:

سبحان مـــــــن صــــــوّره صورة أكمــــــــــل معناهـــا الذي يخلقُ
كانّ فـــــــــــــــاه باسما ناطقا بجـــــوهر الغـــــواص مستحدقُ
فالشّفـــةُ الياقـــــــــــوتُ واللؤلؤ الرطــــــبُ الثمينُ الثغـــرُ والمنطقُ
جبينه الصّبح ومــــــــــن فوقه الفــــــرع الدّجـــى والفلك المفرقُ
كأنما قـــــــــــــد صيغ من فضّة بنانه والكــــــــــــفُّ والمرفقُ([2])

فالشفة ياقوت، والثغر لؤلؤ، وجبينه صبح في إشراقته، وشعره ليل في سواده ، وإصبعه فضّة، وكذلك الكفّ والمرفق، وقد قام الشعراء بوصف شعره وكأنه ليل في سواده، وجمال عينيه فهما عينا غزال سارح في أرض نجد، يقول عبد الرحمن بن الجوزي :

بشعر أدعـــــــــــــج وله سواد كليل مظلـــــــــــــــم أرخى لثامه
بطـــــــــــــرف نيّر ولـــه جبين لــــــــــه نــــــور ينوّر في القيامه
أزجّ الحـــــــــاجبين بأنـف أقنى كحيــــــــل المقلتين حوى القسامه
ضحوك الـــــــسّنّ تنظـره بشوشا ومــــــــــا في حبّه عندي ملامه ([3])

ويقول عليّ السّخاوي واصفا وجهه بالقمر المنير:

يا صــــــــاحب الوجه البهيّ كأنما الـ قمــــر المنير إليـــه في النور انتمى([4])

---

[1] ـ العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**(قسم شعراء العراق)، 208/3/1.
[2] ـ الصّرصريّ، **الديوان** ، 341-342.
[3] ـ صلاح الدّين الهواري ، **المولد النبوي الشريف**،94.
[4] ـ هنريت سابا ، **اتجاهات الشعر العربي في القرن السّابع الهجري في بلاد الشام**، 290.

وقد وصف الشّرف الأنصاريّ شامته حيث صورها بأنها كفّ الهدى في كلّ معركة، وكان الأعداء يدفعون ضريبتها، وهي من الصّور الجميلة والطريفة، يقول:

شامتـــــــه كفّ الهدى في كلّ معركة كانت ضـــــــــــــرائبه فيها الأضاليل ([1])

وتظهر جمال الصّورة في الحجازيّات، فقد أبدى الشعراء الإعجاب بتلك البقاع التي توصل إلى قبر النبيّ محمد، لذلك نرى الوحي الإيماني الذي يصدّر الشعراء منه صورهم، مثلما أطلقوا صورة النور على النبيّ محمد وهديه، نجدهم يطلقون هذه الصّور على الكعبة الشمّاء، فهي تتراءى بسوادها في عين الجاهل، ولكنّ الصّورة معكوسة تماما عند من يملك اللبّ ،وهي منارة إيمانيّة شامخة تبثّ النور والهدى ، وتجعل من يطوّف بها يتسربل بلباس الأبرار، فيجد عندها المرء الخشوع والتذلل لله ربّ العالمين، فهذا يعقوب الشيباني يصوّر الكعبة وأفواج العابدين يطأطئون رؤوسهم خشية ودموعهم مدرارة من فرط الذنوب:

إلــــــــــــى كعبة سوداء في عين جاهل وفــــــــي عين ذي اللبّ المنوّر أنوار
يطوف بهـــــــــــــا حندس الليل دائما رجــــــال هدى شعث الملابس أبرار
رؤوسهم مـــــــــــــــــن خشية الله نكس ودمعهم من فــــارط الذنب مدرار([2])

وفي خضمّ الشوق يشبّه فتيان الشاغوري دموعه باللآلئ الخارجة من أصداف الجفون، كما ويصوّر سرعة الخيول عند انطلاقها، وهي تضرب الحصى ببحر تتلاطم أمواجه،ومع ذلك فهي تعبره كالسّراب، وسرعتها بذكر النعام ، المنطلق كالسهام، وصورة فنيّة أخرى في ثناياها حيث أولئك الفرسان الذين يمسكون زمام الخيل متشبثين على الرّغم من شدّة سرعتها، بصورة السهام التي تتمسّك بالقسيّ،ويشيع فيها أيضا جلبة الخيل ، حيث الحركة المعهودة لها في ميدان السّبق، وهي صورة جميلة تدلل على قدرة صاحبها، يقول :

كأنّ دمــــــــــــوعي لاشتياقي لآلئ فمن بيــــــــــــن أصداف الجفون تبدّد

---

[1] ـ شرف الدّين الأنصاري ، **الدّيوان**، 392.
[2] ـ ابن الشّعار الموصلي ، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزّمان**، 90/10.

قطعن إليـــــــــــك البيد كالبحر آلها وظـــــــــــرّانها مـــن تحته يتوقد ([1])
ورَكـــــــــبٍ علــــى أوراكهنّ كأنّهم سهـــــــــــام بأكباد القسيّ تشدّد ([2])

أمّا تربة الحجاز فهي عنبر ، ونبتها فهو القرنفل، يقول ابن قزل:
مواقـــــــــــف أمّا تربتها فهي عنبر وأمّا كــــــــلاها فهو نبت القرنفل ([3])

ونجد أنّ الشعراء أضفوا الصّور الجميلة على صحابة رسول الله، فهم أصحاب الفضل والفضيلة، وهم غيوث وأموالهم أمطار ،وهم البحار في عطائهم ، وهم أسود عند مقابلة الأعداء في ميادين الوغى، ومع آل بيت الرسول سلكوا المنوال نفسه في التشبيه والتصوير، يقول عبد المحسن التنوخي:
مـــــــــن معشر قد وقى أعراضهم كرم كمــــــــا تقيهم لدى الهيجا السّرابيل
إذا احتبــــــــــوا فهم الأطواد راسية وإن حبـــــــــــوا فهم الدّأماء والنيل
وهم غيـــــــــــوث لهم أموالهم مطر وهـــــــم ليــوث لهم سمر القنا غيل ([4])

ويظهر الشاعر الحركة في صوره في معرض حديثه عن الحرب، وكأننا نحيا نفس الشاعر في تصويره ، وما يحاول أن يوصله من خلال رسم صورة الصّحابة المقاتلين الذين يذودون بما أوتوا من قوّة ، وتراه ينشر الحركة من خلال جلبة الأبطال وهم يحملون الرّماح في ميدان المعركة وينقضّون بها على فلول الأعداء، والصورة نفسها يرسمها التنوخي لآل البيت، فالجنود ، أبطال ميامين، يقول:

هم الغيـــــــات إذا ما استنجدوا وهم الـ غيـــــــــوث سائلة بالجود إن سيلوا
صيد صنـــــــــــاديد أنجاد جحاجحة غرّ ميامـيـــــــــــــن أمجاد مفاضيل
إذا ينالــــــــــــون لا يزهاهم فرح ولا ينــــــــــالهم حزن إذا نيلوا ([5])

[1] ـ الظرّ: الحجر، الحجر له حدّ كحدّ السيف. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، 606/1(ظرر).
[2] ـ فتيان الشاغوري ، **الدّيوان** ، 108.
[3] ـ ابن قزل، **الديوان** ، 339.
[4] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 38/3.
[5] ـ نفســــــــه، 39/3.

وصورة أخرى رائعة يرسمها الأنصاريّ للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فنيران قلوبهم تتأجّج في الحرب، تنمّ عن قدر من الشجاعة والثبات، كما تلتهب الرّمال في الأماكن الصلبة الغليظة، وصورة أخرى عندما يمزّقون أعداءهم قطعا ويوقعونهم في المآزق، كما السّراب الذي يحيط بالجبل وهو لا يرى ، يقول:

قوم تبرّد نـــــــــــار الحرب أكبادهم   إذا توقـــــــــــــدت الحزّان والميل
كم مأزق مزّقـــــــــــــــوا أبطاله كسفا   وقد تلفع بالقـــــــــــور العساقيل (1)

أمّا الاستعارة مع أنها تضفي جماليّات على الشعر فإنها وردت على قلة، أي لم ترد بالشكل الذي وردت فيه من حيث الكمّ في غير المدائح النبويّة ، ومن أمثلتها عند الصّرصريّ :

أيقظ النّاس مـــــــــــن سبات هواهم   بيـــــــــــــد الرّشد أحسن الإيقاظ (2)

ومن أمثلة الاستعارة التصريحيّة عنده من القصيدة نفسها:

وهداهـــــــــــــم إلى صراط سويّ   موروث لينـــــــــــة القلوب الفظاظ (3)

ولكن يمكن القول بأنّ التشبيهات تتناثر في ثنايا المدائح النبويّة، مع أنها في أغلبها لم تكن مبتكرة إلا فيما ندر إلا أنها أضفت جماليّات على قصيدة المديح النبويّ، وظلت مستوحاة من الطبيعة المحيطة بالشاعر، الذي سبكها ووظفها في إطار يقوم على خدمة الدين وإظهار محبّة الرّسول .

وبذلك تبدو صورة الممدوح في قصيدة المديح النبوي في العصرين الزنكي والأيّوبيّ أكثر وضوحا وسطوعا نظرا لارتباطها بشخص النبيّ محمد، مع طغيان الأثر الدّينيّ بشكل لا يقبل الشّكّ، أو الطعن، والمهم أنّ تلك الصّور قد أتت مترسمة نهج

---

[1] ـ الشّرف الأنصاريّ ، **الدّيوان** ، 393. الحزّان: المكان الغليظ الصّلب. الميل: جمع أميل وهو العقدة الضخمة من الرّمل. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**،1563/2.(حزن) القور: **جمع قارة** ، وهي الجبيل الصّغير المنقطع عن الجبال.الفيروزآبادي، **القاموس المحيط** ،650/1.(قور) العساقيل: السّراب، والقطع المتفرّقة من السّحاب، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط،** 1364/2.(عسقل)

[2] ـ الصّرصريّ، **الدّيوان**، 274.

[3] ـ نفســــــه ،275.

السّابقين في تصوير ممدوحيهم مع طغيان تجسيد الصّفات المعنويّة والحسيّة التي برزت وهذا الأمر ليس بالغريب، واستفاد الشعراء من الطبيعة المحيطة بهم كمظاهر الكون وما فيه من صور رائعة تعبّر بالدّرجة الأولى عن قدرة البارع ـ عزّ وجلّ ـ فهم قلدوا الشعراء الجاهليين والعبّاسيين مع حفظ الفارق في طغيان العواطف الدّينيّة، واستلهام الصّور القرآنيّة وسبكها في قصائدهم .

و الخيال ليس بمنأى عن الصور فهو ملكة فكريّة وذهنيّة يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، وهي تنمو مع الفرد وتتغذى من تجاربه، وبهذه القدرة يستطيع تشكيل صور من الطبيعة يعبّر بها عن أفكاره، وبذلك ما نراه من صور متكاملة تفوق ما في الطبيعة لا تتأتى إلا من إنسان قويّ الخيال ([1]).

وقد احتلّ الخيال مساحة واسعة عند النقاد خاصّة المحدثين منهم، إذ جعلوه محطّ آرائهم، وأفردوا له فصولا، فهذا كولردج يعدّه موهبة أو ملكة تحقق الجوّ المثالي في القصيدة، والقوّة القادرة على الخلق والتوحّد ، فالفنان لا يهدف بفنّه نقل الأجزاء المتفرّقة في الطبيعة كما هي ، وإنما يحاول أن يجعل لوحته المستمدّة من الطبيعة موضوعيّة بتصويرها ([2]) .

إذا الخيال يقوم على دعوة المحسّات والمدركات، ومن ثمّ يتمّ بناؤها من جديد، فهو يضيف علاقات جديدة تنزع من الواقع نزعا،ويعتمد على التبديل في الحقائق حسب تصوّر الأديب، يعمد إلى بعث روحه فيها لتخرج خلقا جديدا نابضا بالحياة ([3]) ، ويرى داود غطاشة و حسين راضي أن للخيال صورا " فتتنوّع إذ منها البصريّ كتمثيل الفضيلة في صورة فتاة ذات ملابس أنيقة ، ومنها السّمعي كالصّور التي يؤلفها الموسيقيّون "([4])

[1] ـ ينظر عبد القادر أبو شريفة وزميله، **مدخل إلى تحليل النصّ الأدبيّ**، 39.
[2] ـ ينظر محمد زكي العشماوي، **قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث** ، 79.
[3] ـ ينظر شوقي ضيف، **في النقد الأدبيّ** ، 167.
[4] ـ **قضايا النقد العربيّ قديمها وحديثها**، 141.

أمّا ما يخصّ مقاييس الخيال فهي كثيرة ومتنوّعة، منها ما يتعلق بالشخصيّات المبتكرة، إذ يجب أن تكون قويّة وملائمة للغرض الذي تمثله، ثمّ قوّة التشابه بين المشاهد الخارجيّة وما توحي به من انفعالات وما تثيره من عواطف، ولا يغفل جمال تصوير الطبيعة وما حوت ، ومن المقاييس الجدّة في الصّور البيانيّة، و القدرة على إبراز المعاني بحيث تكون مجسّمة أو محسّة ([1]).

وندع الحديث عن الخيال الذي تطول الآراء فيه، بين نقاد عرب وغربيين، قدماء ومحدثين،وبعد نقف على الخيال في شعر المديح النبوي عند شعراء الزنكيين والأيّوبيين، لنجد أنهم قد تأثروا بمن سبقهم من حيث اصطناع الخيال، يقول فتيان الشاغوري عندما رقدت الجمال قريبة من حجرة الرّسول :

إلـــــــى أن أناخوها إلى جنب حجرة لهيبته منهـــــــــــــــــــــا الفرائص ترتعد

فالمعلوم أنّ الاحترام والوقار للرسول موجود ، والقرب منه يضفي هيبة عند أصحابه، وعند المسلمين جميعا، فالشاعر أثار انفعالا عند القارئ أو السّامع ، فقد جعل المهابة والجلالة تتملك الزائرين لقبر الرّسول ، فالفرائص ترتعد، وهذا يدل على قدرة الشاعر في تبيان هيبة الموقف مع أنّ الرسول ميت،وأنّ الاحترام والتقدير ظلا يلازمانه، فالقبر تمتلكه هيبة نظرا لما حوى، جعلت كلّ من يقترب منه يطأطئ رأسه، ويأتي له بقلب طاهر خاشع، يظهر قدرا من الاحتشام والوقار، وبذلك نجد أنّ الشاعر قد نقل الصورة عمّا كانت عليه أيّام الرسول وصحبه، إلى ما بعد موته، ومع ذلك أضفى جماليّة عليها فقد أصبح المسلمون يهابون القبر.

ويظهر الخيال عند شعراء المديح النبوي في مقدّماتهم الغزليّة، وهي قليلة نسبيّا، لأنهم استبدلوا الحجازيّة بالغزليّة، ويأتي الخيال جريا على عادة شعراء الغزل الذين تسعفهم قرائحهم فتجدهم يأتون بالعجب العجاب ، وبالتالي ينقلون القارئ من الواقع

---

[1] ـ ينظر أحمد الشايب ، **أصول النقد الأدبيّ** ، 223.

ليحلق في خيال تأنق الشاعر في رسمه، ولوّنه بألوان خاصّة به، تشيع فيه العاطفة، ويثور فيه الانفعال، يقول عبد المحسن التنوخي:

ولاح في الشرق فوق الأفـــق لطخ دم حتى تـــــــــوهمت أنّ الصّبح مقتول
تثني القـــــــــوام ولا تنفكّ مائلة كمـــــــــا تمايل غصن وهو مطلول
فرعـــــــاء ما مسّها غسل ولا ادّهنت كحلاء ما جـــــــال في أجفانها ميل
وشاحها جـــــــائل في خصرها قلق لكن تغـــــــــصّ بساقيها الخلاخيل
فإنما طرفها وســــــــنان أو ثمل أو مدنــــــــف أو بميل السّحر مكحول
ما جرّدت ســـــيف جفن من لواحظها إلا انثنيت وسيــــــــف الصّبر مفلول
تجيل مسواكها مــــــن فوق ذي شنب يزينــــــــــه وضح فيه وترتيل
كأنما ريقها غـــــــبّ الكرى ضرب لمجتنيه بمـــــــاء الورد محلول ([1])

وقد علق الصّفدي على تلك الألفاظ التي استعملها الشعراء مجازا في أوصافهم وأصبحت عرفا عند أغلب الشعراء ، يقول: " اعلم أنّ للشعراء ألفاظا صارت بينهم حقائق عرفيّة، وإن كانت في الأصل مجازا لكثرة ورودها في كلامهم، وتعاطيهم استعمالها، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم، من ذلك: الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الرّدف، والورد إذا أطلقوه فهم منه الوجنة، والأفلح إذا أطلقوه فهم منه الثغر، والرّاح إذا أطلقوه فهم منه الرّيق، والنرجس إذا أطلقوه فهم منه العيون، وكذلك السّيف، والسّهم، والسّحر ،وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الرّيحان فهم منه العذار، فكلّ هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلي وصارت حقائق عرفيّة " ([2])

والأخيلة التي جاء بها الشعراء مستمدّة من معين الأمّة الذي لا ينضب. أي من تراثها. لذلك نجد أنّ كلام الصفدي ينطبق عليهم فيما جاؤوا به، فهذا الزمخشريّ يقول:

والقـــــــــدّ غصن أراكة لـــــــــدن المهزّة شـــــطبها
والطـــــــرف سيف مرهف خـــــــذم المضـــارب غضبها

---

[1] ـ يوسف النبهاني، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 3/ 32-33.
[2] ـ **الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم**، 1/ 442.

والخـــــــــــــــدّ مجرحة لمســ ـــترقّ اللحـــــــــــــــاظ محبّها([1])

فالقدّ عنده غصن طويل تتلاعب به الرّياح ، والنظرة سيف صقيل سريع القطع، والخدّ الجميل يجلب النظر لمن أحبّ وعشق، فألفاظه جاءت مجازيّة عند وصفه للمحبوبة، ونلحظ طغيان الرّبط بين أعضاء الجسد ومظاهر الطبيعة الجميلة بما حوت من حركة واضطراب، فالشاعر قد بعث فيها الحياة والنشاط، كلّ تلك الصّفات أتت وفق ما يشتهيه الشاعر في محبوبته، مبرزا دور العاطفة والإحساس في رسم الصّورة التي يتمنى .

كما نلحظ أنّ الشعراء عمدوا إلى استخدام المبالغة طريقا لرسم الصورة، فهذا ابن جبير يجعل من جبل أحد وقد لاح له منارا مشرقا من الشهداء الذين استشهدوا عليه من أبناء المسلمين :.

ولاح لنـــــــــــــا أحد مشرقا بنـــــــــــــــور من الشهداء استعارا

فمـــــــــــن أجل ذلك ظلّ الدّجى يحلّ عقـــــــــود النجوم انتثارا ([2])

فقد صوّر الشاعر الشهداء بالنور الذي كسا أحدا حتى أنّه غطى على النجوم التي تبدّد ظلام الليل وتمحوه، وهذه مبالغة لطيفة، حيث أخذ الشاعر الواقع كما هو وأضاف إليه جماليّات وفق ما تشتهيه عاطفته الدينيّة في تقديس واحترام شهداء المسلمين، حيث جعل منهم أنوارا تغطي على أنوار النجوم .

والأخيلة التي جادت بها قرائح الشعراء متنوّعة وكثيرة، ضمّن الشعراء فيها ما يشتهون، ولكنها ممزوجة بعواطف خاصّة ، يغلب عليها المبالغة، وهنا يتدخل الأثر الدّيني بوضوح في تلك الصّور والألفاظ ، ولا ننسى أنها موافقة لروح العصر من جهة، وللذوق العربيّ من جهة ثانية، فالمديح النبويّ ليس وليد لحظته ، وإنما هو امتداد فترات الشعر العربيّ منذ عصر النبيّ إلى العصر الحديث ، وأخيلة الشعراء لا تنقطع ولا تفتر وإنما ستبقى ترسم لوحات خلال المدح، يتفنن فيها الشاعر ويلونها بالطريقة التي يشتهي .

---

[1] ـ علي عمرو ، **تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره**، 379/2.

[2] ـ فوزي الخطبا ، **شعر ابن جبير** ، 58.

4. التواصل بالتّراث ـ التناص أو التضمين النّصي:

للأدب العربيّ شعره ونثره مزايا تفوّق بها على جميع الآداب العالميّة، فأصله ثابت وفرعه في السّماء، وغراسه ينمو، وأوراقه خضراء يانعة، وظله وارف ، ذلك بما حوى من حديقة غنّاء، يُسقى بماء السّماء، وهو نسيج يغزله الشعراء والأدباء ، ويلونونه كيفما طاب لهم بشتى الألوان، وكلما تقادم الزّمان يأتي جيل آخر يصنع الصنيع نفسه، وقد يزيد أو ينقص، وبذلك نرى التواصل بين الأجيال في الثقافة والعلوم والآداب، وما من شكّ في أنّ الشعر ديوان العرب، به حفظوا أصالتهم بعد القرآن والحديث، ومن خلاله تمّ لهم التواصل حيث بقي محافظا على الأصالة في اللغة، والتاريخ بما حفظه من أيّام وأحداث حتى عدّ الشعر وثيقة مهمّة من وثائق التاريخ.

والشعر ارتبط ارتباطا وثيقا بالعرب،ففيه نظموا خلاصة تجاربهم،وصوّروا جماليّات أيّامهم، وتعرّض ـ هو نفسه ـ مع الأمّة إلى سلسلة من المؤثرات الدّاخليّة والخارجيّة إلا أنه بقي محافظا على تواصله مع الأمّة ، يقولبه الشعراء وفق ما يشتهون بالطريقة التي يرونها مناسبة، ومن خلاله يستفيدون ممن سبقهم من أمم أو حضارات وأزمنة، لذلك نرى التشابه بين السّابقين واللاحقين في نظمهم، ويظهر بجلاء عندما يقوم الشاعر بتوظيف ألفاظ القرآن الكريم ،أو الحديث النبوي الشريف، أو أن يقوم الشاعر بتضمين النصوص الشعريّة لشعراء سابقين، وهذا الأمر على تعدد أساليبه يسمّى التناص أو التضمين النصي.

ويرى مسعد العطوي أنّ مجموعة المنظرين في العصر الحديث وهم الذين عاينوا الواقعيّة واستشعروها كما هي، وأدركوا أهميّتها وضرورتها ووصلوا إلى حقيقة واقعة بأنه لا فكاك منها عندها أطلقوا عليها التناص (تداخل النصوص)، يأتي هذا في الوقت الذي كان يطلق عليه القدماء السّرقات الشعريّة ([1]).

[1] ـ الاتجاهات الفنيّة في الشعر إبّان الحروب الصّليبيّة، 547.

وقـد ورد التنـاصّ في شـعر المـدائح النبويّـة بشـكل لافـت، ولكـن بتنـوّعٍ في الأساليب،وقد آثر الباحث أن يقسمه وفق ما يلي:

1 ـ المعارضة :

والمعارضة في أيسر معانيها أن يقوم الشاعر بنظم قصيدة على غرار قصيدة أخرى لشاعر قد سبقه شريطة التشابه في الغرض والموضوع ، مع ضرورة الالتزام بالوزن والقافية وحركة حرف الرّويّ، عندها يمكن الحكم على تمام المعارضة ([1]).

ونظرا لأنّ مدحة كعب بن زهير كانت الأولى في بابها على صعيد تكامل بعض العناصر، فإنّ الإعجاب بها قد زاد، فقد حظيت بتهافت الشعراء نحوها عن طريق معارضتها، وترسم الشعراء طريق ابن زهير في تقسيمه للقصيدة وترتيبها، لذا نرى أنّ منهم من أبدع وأجاد، ومنهم من قصّر وتأخر، حتى وصل الأمر عند بعض الشعراء إلى حدّ التكلف في ترسم خطى ابن زهير، وبذلك نجد أنّ شعراء الزنكيين والأيّوبيين قد استلهموا واختزنوا إبداع كعب بن زهير وعصره وما شهد ـ حيث بداية أوج الحضارة والمدنيّة في مختلف العلوم وصنوف المعرفة مع إقبال على الدين والرّسول ـ وبهذا نرى التواصل، والشعراء الذين عارضوا كعبا كثر في هذين العصرين منهم الزمخشري ، جار الله عمر،يقول في معارضته:

أضاء لـــــــــي باللوى والقلب متبول   نجـــــديّ برق بنار الحبّ موصول ([2])

ومن الشعراء الذين تيّموا بتلك القصيدة لذا قام بمعارضتها، علي العمراني:

أضـــــــاء برق وسجف الليل مسدول   كما يهـــــــزّ اليماني وهو مصقول
فهاج وجـــــــدي بسعدى وهي نائية   عنّـــــــي وقلبي بالأشواق متبول ([3])

---

[1] ـ ينظر محمود رزق سليم ، **عصر سلاطين المماليك**، 8/ 447. ومحمد قاسم نوفل، **تاريخ المعارضات في الشعر العربيّ**، 13.
[2] ـ علي عمرو، **تحقيق ديوان الزمخشريّ ودراسة لشعره**، 263/2.
[3] ـ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 374/5.

ابن الساعاتي، حيث يفتتح معارضته بقوله:

جـــــــــــــدّ الغرام وزاد القال والقيل   وذو الصّبـــــــــــــابة معذور ومعذول ([1])

وكذلك عارضها عبد المحسن التنوخي حيث يقول:

صـــــــــــــبّ عليل وما بالرّبع تعليل   فليس إلا علــــــــــــى الإعوال تعويل([2])

وقد عارضها الصّرصريّ في قصيدتين، يقول في الأولى :

ركب الحجاز ومنـــــــــــــك الخير مأمول   هل عنــدك المحاق و لا يخفيه تأفيل ([3])

وفي المعارضة الثانية للصرصريّ يقول :

إلـــــــــــــى متى أنا مشغوف ومشغول   وكم لقلبـــــــي تســـــويف وتســـويل ([4])

فتبرّكا بالنبيّ محمد لجأ أغلب الشعراء إلى نظم القصائد النبويّة على غرار " بانت سعاد" ، عسى أن يخلصهم النبيّ مما آلت إليه أوضاع المسلمين نتيجة الاجتياح المتكرّر والمدمّر لبلاد المسلمين على يد الصليبيين، فقد حلّ التشريد والتقتيل وذاق المسلمون مرارات كثيرة، لذا توجّه الشعراء خاصّة الزهّاد والأتقياء يطلبون المدد من الرسول عسى أن ينالوا الخلاص، ويظهر الشعراء قدرا كبيرا من العاطفة الدّينيّة الجيّاشة، وهذا الصرصريّ يعارض أبا نواس في قصيدته المشهورة الهمزيّة، ومطلعها :

دع عنـــــــــــك لومي فإنّ اللوم إغراء   وداوني بالتي كـــــانت هي الدّاء([5])

---

[1] ـ ابن الساعاتي ، **الديوان**، 47.
[2] ـ يوسف النبهاني ، **المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة**، 31/3.
[3] ـ الصرصريّ ، **الديوان** ، 396.
[4] ـ نفســــــه ، 394.
[5] ـ أبو نواس ، **الديوان**، 11.

استفاد الصرصريّ من المعنى الذي جاء به أبو نـواس، وبنـى عليـه، ولكـن علـى خـلاف القصيدة الأصيلة التي يتغنى فيها أبو نواس بالخمرة وشربها، فالموقف يختلف فهنا يمدح المصطفى محمدا، يقول:

إفـــــــــراط لومك في البلوى هو الدّاء   فاكفف ملامــــــــــــك عني فهو إغراء

2- ومن ألوان التناص التشطير:

حيـث يقـوم الشـاعر بأخـذ شـطرة كاملـة مـن البيـت لقصـيدة مشـهورة، ويضـمنها في قصيدته،أو أن يقوم الشاعر بالإتيان بكلمة أو اثنتين من القصيدة المشهورة، وهذا ما فعله شرف الدّين الأنصاري عندما شطر قصيدة كعب بن زهير، يقول:

أوهمت نصـــــحا " لو أنّ النصح مقبول"   " لا ألهينّـــــــــــك إني عنك مشغول "
بان التجـــــــــــلد عنّــــــي و التصبّر مذ   " بـــــــانت سعاد فقلبي اليوم متبول "
تيّـــــــاهة آثرت صـــــــــــدّا لمغرمها   " متيّـــــــــم إثرها لم يفد مكبول "
سلـــــــــــت حقود الأعادي إذ تخرّمها   " مهنـــــــــد من سيوف الله مسلول "

و من خلال القصيدة يظهر التكلف بجلاء لا يقبل الشكّ، نظرا لمحاولة الشاعر المواءمة بين ما نظمه ، والشطرة الأصليّة ، من هنا تلوح الرّكاكة والضعف.

وممن شطر في قصيدة المديح النبويّ الشاعر ابن قزل، حيـث شـطر مـن معلقـة امرئ القيس، يقول :

تحمّلن منّـــــــــــا كلّ أشعث أغبر   فيـــــــــــــــــا عجبا من رحلها المتحمّل
قفـــــــا نبك ذكراها فإن الذي بها   أجــــــــــــــلّ حبيب وهي أشرف منزل
دخـــــــــــلت إليها محرما وملبّيا   وأضربـــــــــت عن سقط الدّخول فحومل

3ـ التناص مع القرآن الكريم:

وهذا التناص يظهر بجلاء ووضوح في قصيدة المديح النبوي ، التي ارتكزت على الموضوع الديني بالدرجة الأساس، لهذا نجد أسلوب القرآن والحديث الشريف طاغيا على أغلب القصائد، فقد قام الشعراء بتوظيف المفردات والألفاظ القرآنيّة توظيفا يحمل الإشارة والإيحاء إلى مضمون السّور والأحاديث، فهذا الزمخشريّ يستفيد من اللفظ القرآني والحديث الشريف في بيت واحد، يقول:

إلـــــــى الثقلين المصطفى كان مرسلا مـــــــــــــن المتعالي جدّه المتبارك

فقد وظف الشاعر في البيت السّابق لفظة (الثقلين) التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى[سنفرغ لكم أيّه الثقلان] ([1]) ، ووظف لفظتي (المتعالي جدّه) حيث استفاد من قوله تعالى : [وأنّه تعالى جدّ ربّنا] ([2]) ، كما استفاد من الدّعاء المأثور (... تبارك اسمك وتعالى جدّك ...).

وهذا عبد الرّحيم بن الأخوة يمتدح النبيّ حيث حارب الضلال، وأحلّ الهدى ومال الناس عن عبادة الأوثان والأصنام، وقد استفاد الشاعر من ذكر القرآن الكريم لأسماء الأصنام لبعض قبائل العرب في الجاهليّة، يقول الشاعر:

أشعت الهـــــــــدى فاستنكر الناس بعده يغوث ومالـــــــــوا عن يعوق وعن([3])

فقد استفاد الشاعر من تعداد القرآن لأسماء الأصنام التي كان العرب الجاهليّون يعبدونها ، فالحقّ تعالى يقول: [وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث

[1] ـ سورة الرحمن ، آية 31.
[2] ـ سورة الجنّ ، آية 3.
[3] ـ العماد الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، (قسم شعراء الشّام)209/3/1.

ويعقوق ونسرا] (1) فيغوث لمذحج، ويعقوق لكنانة، وودّ لقريش، وقد ورد التناص عند ابن قزل :

وأخبـــــــــــرت عنها في زمانك منذرا   بيوم عبـــــــــــوس قمطريرا مطوّل
وأبـــــــــــدت من الآيات كلّ عجيبة   وزلزلت الأرضـــــــــون أيّ تزلزل (2)

فالبيت الأوّل فيه تناص مع قول الحقّ [إنّا نخاف من ربّنا يوما عبوسا قمطريرا](3) ، وفي البيت الثاني تناص مع قوله تعالى [إذا زلزلت الأرض زلزالها] (4).

ومن الشعراء الذين أوردوا التناصّ مع القرآن الكريم بكثرة مفرطة الصرصريّ ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة منه، يقول في تمجيد الذات الإلهيّة :

هـــــــــو الأوّل الموجود لا شيء قبله   هـــــــــو الآخر الباقي بغير تزيّل (5)

فقول الشاعر فيه تناصّ مع قوله تعالى: [هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم] (6) ، ويرد التناصّ مع القرآن الكريم بشكل لافت عند ابن جبير،ومن أمثلته :

أقـــــــــــول وآنست بالليل نارا   لعلّ ســـــــــــراج الهدى قد أنارا
ونحن مـــــــــــن الليل في حندس   فما باله قـــــــــــد تجلى نهارا (7)

ففي قوله (وآنست بالليل نارا) فهذا تناصّ مع قول سيّدنا موسى لامرأته في قوله تعالى: [إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد

---

1 ـ سورة نوح ، آية 23.
2 ـ ابن قزل، **الديوان** ، 337-338.
3 ـ الإنسان ، آية 9.
4 ـ الزلزلة ، آية 1.
5 ـ الصرصريّ ، **الدّيوان** ، 431.
6 ـ سورة الحديد ، آية 3.
7 ـ فوزي الخطبا ، **شعر ابن جبير**، 57.

على النار هدى] ([1]) ، وهناك تناصّ في البيت الثاني مع قول الله تعالى [والنهار إذا جلاها]([2]).

وكثرة التناصّ مع القرآن يدلّ على عمق الشعور الدينيّ والوعي الإيماني عند شعراء المديح النبوي، فالقرآن فيه نبأ من قبل، وخبر من بعد ولا يأتيه الباطل، أضف إلى ذلك رفعة الأسلوب، ودقة اللفظ، وجميل المعنى، لهذا نهل الشعراء من معينه الذي لنّ يجفّ إلى قيام السّاعة.

---

[1] - سورة مريم ،آية 10.
[2] - سورة الشمس ،آية 3.

الخاتمة :

وبعد .. فهذه رحلة مع النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنها جاءت على شكل دراسة حامت حول مجموعة من الشعراء الذين نظموا في فنّ المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيّوبيّ، فقد جادت قرائح هؤلاء الشعراء بقصائد حملت في طيّاتها هموم الشاعر الذاتيّة، وهموم الأمّة الإسلاميّة التي ينتسب إليها ذلك الشاعر، وقد حملت في طيّاتها جانب الغيرة على مصالح الأمّة من خلال توجّه الشعراء إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالضراعة والتوسل، لأنّ الأمّة كانت مستهدفة، وحمل شعر هؤلاء الشعراء مزايا خاصّة عندما سلط فيها أصحابها الضوء على جوانب مضيئة كانت الغاية من ورائها بعث الحميّة في نفوس المؤمنين عند استحضار شخص الرسول.

ومن أبرز النتائج التي يكمن لنا أن نرصدها في خلاصة هذا البحث ما يلي:-

1 ـ حفلت شخصيّة النبيّ في الشعر العربيّ على مرّ العصور بما لم تحفل به أيّ شخصيّة أخرى، ويعود ذلك إلى المكانة السّامقة التي يتبوّؤها النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم عند المسلمين وغيرهم، فهو القائد والقدوة ، ويكفيه ثناء الله عليه، فلا عجب أن يثني عليه الشعراء، وتتصدّر صفاته ومعجزاته وفضائله القصيدة العربيّة وأن يقصر شعراء دواوين بعينها لمدحه.

2ـ تعدّ المدحة النبويّة في العصرين الزنكيّ والأيّوبيّ نقطة التكامل بما حوت من مفردات متعدّدة، حيث كانت تقتصر في السّابق على المقدّمة الغزليّة، ثمّ مدح الرسول والثناء على أصحابه، أمّا في هذين العصرين فقد دخلت عناصر متعدّدة صارت أساسا لما بعدها في قصائد المديح النبويّ في العصور اللاحقة، فالمقدّمات الحجازيّة خير مثال على تطوّر مفردات المدحة النبويّة في هذين العصرين، أضف إلى ذلك محاججة الكفار والمتعنتين من النصارى واليهود.

3 ـ غياب كثير من الأشعار التي ظلت طيّ الكتمان والتغييب، لأنها ترقد على رفوف المكتبات، وقد نال منها العفن والغبار ، وهي بحاجة إلى أبناء الأمّة الغيارى ، والمخلصين من الباحثين من أجل بعثها من جديد لعلّ فيها كشفا لبعض نواميس الأدب والشعر التي طالما نحن بحاجة إليها، وتحمل مضامين لم تسعفنا الأيّام بالإطلاع عليها.

4 ـ يمكن القول باطمئنان أنّ أغلب الشعراء الذين نظموا في فنّ المديح النبويّ في العصرين الزّنكيّ والأيّوبيّ هم من العلماء الفقهاء والزّهاد العبّاد، والمتصوّفة النسّاك الذين حملوا في نفوسهم هموم الأمّة ، ودافعوا بألسنتهم بكلّ ما أوتوا من قوّة بلاغيّة ولسانيّة وافقت روح العصر الذي عايشوه، ولم تكن أشعارهم بمعزل عن أبناء الأمّة الذين حرصوا على ترديده والتغني به.

5 ـ التأثر الكبير على صعيد قصيدة المديح النبويّ بالموروث الأدبيّ السّابق، فقد تأثر ناظموها بمشاهير شعراء العربيّة السّابقين ،من أمثال امرئ القيس وحسّان وكعب بن زهير خاصّة لاميّته التي عارضها الشعراء بكثرة، واتُخذت هديا لهم في نظمهم، وتأثروا كذلك بأبي نواس وغيره ، وجاءت القصائد على غرار ما نظم السابقون إلا أنها اختصّت بمدح النبيّ ووافقت روح العصر الذي عايشوه من حيث الذوق، والألفاظ المستخدمة والمعاني المقصودة، وبذلك أضاف الشعراء جماليّة على جماليّة فنيّة لتخرج القصيدة لوحة فنيّة حيّة ونابضة، تمسكت بالبناء الفنيّ للقصيدة العربيّة .

6 ـ على الرغم من احتواء بعض القصائد على مقدّمات غزليّة إلا أنّ الشعراء التزموا جانب الأدب والحشمة مع الرسول، وبذلك وافقوا ما نادى به النقاد عند مدح الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ، ويمكن القول بأنّ العاطفة الدينيّة لعبت دورا كبيرا في الحشمة .

7 ـ ويمكن القول بأنّ قصائد المديح النبويّ بقيت وستبقى وثيقة تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة بالنظر لما حوت ، صوّرت أحداث العصر وعكست الصراع الداخلي والخارجيّ ، وأكدت صدق العاطفة عند من نظم في هذا الفنّ من جهة ،ولوحة فنيّة

زاخرة ـ بما تحمل هذه المفردة من معنى ـ تدلّ على العصر الذي وجدت فيه من جهة ثانية.

8ـ وتبقى المدائح النبويّة وسيلة طريفة وجميلة، تتوحّد مع العقيدة، على شكل منظومة وقصيدة يسهل تناولها وتداولها بين المثقفين والسّوقة ،يمكن من خلالها خدمة الدين بسلاسة وسهولة، ولا يشكّ لما للشعر من أهميّة في نفوس المتذوّقة.

9 ـ تحوّل القصائد النبويّة إلى ملاحم شعريّة، حيث سطر الشعراء فيها أروع التضحيات لبطولات النبيّ من أوّل يوم وجد فيه على البسيطة، حتى قيام السّاعة مثلما فعل الصرصريّ في قصائده الطوال التي جاوزت الثمانمائة بيت من الشعر.

10ـ اتقاد نار وأوار المعارضات، بعد فترة من الخمول والهدوء، حيث جاءت بشكل قويّ من حيث الكمّ و الكيف، خاصّة تلك التي عارض فيها أصحابها بردة كعب بن زهير ، فقد كانت بمثابة الوحي للشعراء ما ألمّت بهم ملمّات فسرعان ما هرعوا يعارضون تلك القصيدة.

11ـ أمّا على صعيد التشكيل الفنيّ فإنّ القصيدة قد تنوّعت في أساليبها، ولغتها جاءت فصيحة موافقة لروح العصرين، بعيدة في جملها عن الغموض في الغالب، وحافظ الشعراء في العصرين على أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكانت القصيدة العربيّة القديمة هي سنتهم في نظمهم ، وما يخصّ صورهم فهي من وحي الطبيعة .

ومن خلال النصوص الشعريّة المستعرضة يمكن الردّ بموضوعيّة على من نعت العصرين بأنهما كانا يمتازان بالرّكود والجمود، ليستدلّ الباحث على أنّ بعض الباحثين قد سايروا الغربيين خاصّة المستشرقين منهم عندما أطلقوا على هذين العصرين بالتخلف والجمود، وهي نظرة تفتقر إلى معايير الحياديّة والموضوعيّة،فالشعراء الذين نظموا المدائح النبويّة في العصرين مثلا التزموا سنن الشعراء السّابقين في الأساليب، والمعاني، والقوافي.

هذه هي النتائج الرئيسيّة التي توصّل إليها هذا البحث، وهناك سلسلة أخرى من النتائج الجزئيّة المتناثرة في ثنايا البحث،ويبقى القصور من صفات أعمال الإنسان مهما حاول إحكامها، والله أسأل عن يقيل عثرتي ويمحو زلتي إنه بالإجابة جدير، وعلى ذلك قدير، وصلى الله على سيّد البشريّة جمعاء، ما سارت وجناء على غبراء.

ملحق بـ

***أشهر شعراء المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيّوبيّ ***

1- الزمخشريّ.
2- ابن الأخوّة الشيباني.
3- عليّ بن محمد العمرانيّ .
4- ملك النحاة.
5- عبد الرحمن بن الجوزيّ.
6- صفوان بن إدريس .
7- يعقوب الشيباني.
8- ابن السّاعاتي.
9- ابن جبير .
10- فتيان الشّاغوريّ.
11- يعقوب الدّمشقيّ.
12- عبد المحسن التنوخيّ .
13- عليّ السّخاويّ .
14- يحيى الصّرصريّ.
15- ابن قزل - علي بن المشد .
16- الصّاحب شرف الدّين الأنصاريّ.

عندما يجود الشّاعر بقريحته ؛فإنّه يعطي ذوب فؤاده، وعصارة كبده،ويرسم واقعه المعاش، وبذلك يخرج من الخاص إلى العام،والشعر كما العلم لا يقصر على زمن دون آخر ،أو على فئة دون أخرى،بل هو إبداع مشترك يظهر فيه الشاعر مقدرة فائقة لرسم قصيدته يتأنق فيها كيفا يشاء، ويصبغها بألوان خاصّة به وبها على السواء،ويحذو حذوها الشعراء، ويتلقفها النقاد والأدباء ، وتظلّ صورة لعصرها على مرّ الأيّام،ويصبح صاحبها علما وعينا من عيون الزمان.

وقديما قيل إنّ الشعر ديوان العرب، فهم اتخذوه لتصوير شتى مناحي حياتهم القبلية والاجتماعية والخاصة،وأجمل بقول الجاحظ عندما ذكر:" أنّ العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بالاعتماد على الشعر، لأنه يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به "([1]).

وعندما نقصد إلى العصرين الزنكي والأيّوبي نجد أنّ الشعر فيهما قد ازدهر ازدهارا منقطع النظير بصرف النظر عن سلسلة الطعونات التي وجّهت إليه من قبل بعض الدّارسين ،ولكن كيف يوسم بالانحطاط عصر وجد فيه عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ؟ أو وجد فيه أدباء من أمثال القاضي الفاضل،أو ابن القيسراني أو الصرصري، وغيرهم الكثير؟ فمن الإجحاف والتعسف أن نجور على أضراب هؤلاء، مع الأخذ بعين الاعتبار الحفاوة والتقدير الذي أحاطه الزنكيون والأيوبيون للشعر والشعراء وتذوقهم له،بل إنهم عمدوا على استقطاب العلماء والأدباء من المشرق والمغرب([2])منهم من نظم الشعر وخير مثال على ذلك بوري بن أيّوب([3])،والملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي([4]).

---

[1] ـ **الحيوان**، 72/1.
[2] ـ ينظر محمود فايز السرطاوي، **نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الصليبية**، 22.
[3] ـ هو مجد الدين تاج الملوك بوري بن أيوب بن شادي ،الأخ الأصغر للسلطان الناصر صلاح الدين الأيّوبي، كان فارسا للسيف والقلم، لقّب بالمهذّب، توفي سنة خمسمائة وتسع وسبعين هجرية . ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ، 290/1. وينظر شيخي حسن عبد الهادي ، **دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب مع تحقيق ديوانه** ، 9-52.
[4] ـ تولى ولاية بعلبك بعد وفاة أبيه، فقد عيّنه صلاح الدين،كان جوادا كريما،وفي شعره كان رقيق النفس مرهف الحس،مات مقتولا في دمشق سنة ستمائة وسبعة وعشرين. ينظر **مقدّمة ديوان الملك الأمجد بهرام شاة** ، تحقيق غريب محمد علي، 5-8.

وقد أشار ابن الأثير بأّنّ الأيوبيين كانوا يشجّعون الشعراء ويجزلون لهم العطايا،وكانوا يتمثلون الأبيات المحفوظة في المواقف المتعدّدة،ووصل بهم المطاف إلى حفظ ديوان بكامله([1]).

وفي غمرة الأحداث العاصفة في ذينك العصرين رأينا كثيرا من الشعراء الذين عشقوا النهج المحمدي،وبالتالي تجد أنّ العاطفة الدينيّة دفعت إلى كثرة الشعراء الذين خصّوا الرسول بالمدح بحيث لا يقع نظر الباحث على ديوان من دواوين العصرين إلا ووجده يفتتح بمدحة نبوية،أو قصائد مديح أخرى في مشهوري الفقهاء والصلحاء، والمحدثين والمتصوّفة([2])، بل وصل الأمر عند بعض الشعراء إلى إيقاف شعرهم لمديح الرسول في العصرين الأيوبي والمملوكي، فخرجت دواوينهم حافلة بالمدح النبوية، إذ لم تخالطها قصائد أخرى تتناول أغراض الشعر العربي التي كانت منتشرة ، وخير مثال على هؤلاء الشعراء :

1. الصرصريّ (ت 656هـ)، وديوانه .
2. البوصيري (ت 696هـ)، وديوانه .
3. شهاب الدين محمود الحلبي (ت 725هـ)وديوانه أهنا المنائح في أسنى المدائح .
4. ابن سيّد الناس اليعمري (ت 734هـ) وديوانه بشرى اللبيب بذكرى الحبيب.
5. عبد الرحيم البرعي (803هـ) وديوانه المدائح الربانية والنبوية.

فقد لاذ إليه الشعراء كي يخلصهم من فترة عدّت من أصعب الفترات التي عصفت بأمّة الإسلام، ولأنّه منح الوسيلة من ربّه، وهو الشفيع المشفّع يوم القيامة، فبه ومن خلاله يكون الخلاص، لذلك رأيت أن أتحدّث عن أعلام الشعراء الذين مدحوا الرسول وأجادوا في وصفه ،وإن لم تكن تلك الأوصاف تبلغ في مرتبتها ما بلغته الأوصاف التي مدح بها ـ عليه السلام ـ من قبل الشعراء الذين عاصروه، فما مدح به يعلو مرتبة تلك الأوصاف، ومن الأهميّة بمكان أن نشير إلى عجز الشعراء من الإلمام بتلك الأوصاف أو

[1] ـ ينظر **الكامل في التاريخ**، 147/9.
[2] ـ ينظر عبد اللطيف حمزة، **الحركة الفكرية في مصر ،في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول**، 274.

حتى وقوفهم عندها، ولكنها تبقى محاولة لتعداد الخصال التي دانت له دون غيره من البشر، فممن اشتهر في هذين العصرين:

الزمخشري[1](467ـ538 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري،ولد بزمخشر[2] ، سافر إلى مكّة فجاور بها زمنا فلقّب بجار الله ،حصل بينه وبين أمير مكّة أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس[3] من المحبة ومدحه بقصائد عديدة، تنقل في البلدان، ثمّ عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) حيث توفي فيها ،أخذ العلم على يد أكابر علماء عصره، قطعت رجله بسبب دعاء أمّه عليه، واتخذ رجلا من خشب،ما فتئ يغطيها بأثوابه الطوال، ليظنّ الناس بأنّه أعرج .

صفاته وثقافته:

وصف العلامة بأنه فريد عصره، ووحيد دهره، وإمام وقته، وكان غاية في الذكاء وجودة القريحة،وكان معتزليا قويّا في مذهبه،مجاهرا به حنفيا متكلما ، واسع العلم، كبير الفضل، متفننا في علوم شتى،برع في التفسير والنحو واللغة والأدب .

---

[1] ـ ينظر ابن خلكان،**وفيات الأعيان**،168/5ـ174. و الصفدي ، **الوافي بالوفيات**،247/25ـ256.وياقوت الحموي، **معجم الأدباء**،91/7-97. والقفطي ،**إنباه الرواة** ،265/3ـ272. والسيوطي ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**،279/2-280.والذهبي، **سير أعلام النبلاء**،151/20-1156. وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**،274/5. والأنباري ، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ، 338ـ339.والمقري، **أزهار الرياض**،282/3ـ325. وابن قاضي شهبة ، **طبقات الشافعيّة**، 241/2ـ244.وابن العماد ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،118/4ـــ121. وحاجي خليفة، **كشف الظنون** ، 74، 121،117، 185،1478.والفيروزآبادي،**البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة**،220ـ221.وعمر رضا كحالة ، **معجم المؤلفين**،186/12. والزركلي، **الأعلام**،178/7. ومحمد أحمد درنيقة،**معجم أعلام شعراء المدح النبوي**،416-417. وجرجي زيدان،**تاريخ آداب اللغة العربية**،46/3-48.وعبد الستار ضيف، **جار الله محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره**،عالم الكتب،القاهرة ،1994. وعلي عمرو ،**تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة لشعره** ، رسالة دكتوراة مقدّمة إلى جامعة الأزهر سنة1979.

[2] ـ زمخشر : قرية جامعة من نواحي خوارزم. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،147/3.

[3] ـ ابن وهاس هو أمير مكة وشريف من أشرافها،كان إمام الزيدية بمكة، من كبار العارفين ببلدان الجزيرة العربية، له شعر طيب، توفي سنة 556هـ . الزركلي، **الأعلام**،318/4.

آثاره :

له تصانيف عديدة نذكر منوّعة منها : الكشّاف في التفسير،وهو من أشهر كتبه،أكثر فيه من التشنيع على المتصوّفة ،وكان يفخر به دائما على من سواه ،حتى أنه نظم فيه شعرا يقول :

إنّ التفاسيـــــــــر في الدّنيا بلا عدد وليس فيـــــــــها مثـــــــل كشّافي
إن كنـــــــــت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهـــــــــل كالدّاء والكشّاف كالشّافي

وله الفائق في غريب الحديث،والمفصّل في النحو ، ومقامات الزمخشري حيث شرحها بنفسه، والمستقصى في الأمثال، وأساس البلاغة ،والقسطاس في العروض، وأعجب العجب في شرح لاميّة العرب ، ومقدّمة في الأدب .

شعره:

نظم الزمخشري على أغراض الشعر العربي ، جريا على عادة الشعراء ، ولكن طعّمه بنكهة خاصّة، وهي نكهة الشعراء الفقهاء، لذا بصم شعره ببصمتين، بصمة الفقيه العارف، وأضاف إليها بصمة الشاعر المتفنن، مما فتح له ميدان الإبداع من أوسع الأبواب له ديوان شعر احتوى على عدّة قصائد يمدح فيها النبيّ المختار ، وفي إحداهنّ يعارض كعب بن زهير في لاميّته يستهلها قائلا :

أضـــــــــاء لي باللوى والقلب متبول نجـــــــديّ برق بنار الحبّ موصول

ومن جميل قوله في مدح النبيّ من القصيدة التي سنستعرضها في الجزء اللاحق من هذا الفصل ولكنني آثرت أن أذكرها في هذا المكان:[البسيط]

محمـــــــــد إن تصف أدنى خصائصه فيا لهـــا قصّـــة في شرحها طول
هو الـــــــذي وعد الرحمن ناصره نصرا عــــزيزا ووعــــد الله مفعول
وناصـــــــر الحـقّ منصور وخاذلــــه مدفع عن جــــوار الله مخذول

يا خاتـــــــم الرّسل إنّ الطول منك على   راجــي الشفاعة يوم الحشر مأمول([1])

ويظهر من خلال ديوانه تأنقه في المديح والوصف والغزل، والأمثلة على تأنقه تظهر جلية في قصائده التي يعبق بها الديوان، وتتراءى فيها بصمة الفنان .

ا بن الإخوة الشيباني([2]):(... ـ 548هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو عبد الرحيم بن أحمد بن محمد البغدادي، كنيته أبو الفضل ابن الإخـوّة ، ولقبه جمال الدين أفضل الإسلام ،ولد ونشأ في بغداد، ناسخ و فقيه من فقهاء الشافعيّة، سافر في طلب العلم طلبا للحديث ، فقد طوّف بلاد خرسان ونيسابور وطبرستان، وأقام بأصبهان أربعين سنة.

صفاته وثقافته:

تعلم في بغداد، كان سريع القراءة والكتابة ، حيث جعلتا منه ناسخا بارعا فيهما ، حتى قيل : إنه نسخ ما لا يدخل تحت الحصر. وكان يقول: كتبت بخطي ألف مجلدة، قرأ الحديث وشغف بفنه حتى غدا طالبا له مما استدعى ترحاله وتنقله طلبا له ، خصّ بالفضل ، وسعة الخاطر،وكمال العلم والأدب.

آثاره :

لم يترك آثارا غير تلك الأشعار المتفرّقة والمتناثرة في ثنايا الكتب، وتحتاج إلى جمع لتدوينها في ديوان خاص، وأغلب شعره في المديح النبوي، إذ كان ممن أقبلوا على النظم فيه .

---

[1] ـ الزمخشري ، **الديوان**،2/263-265.

[2] ـ ينظر ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/309. وابن العماد الأصفهاني ،**خريدة القصر، قسم العراق**، 1/138. والزركلي، **الأعلام**، 3/343. وناظم رشيد ، **المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع**،26-27.

شعره :

لقد أوردت المصادر له مجموعة من القصائد، والمقطوعات النبويّة، ويظهر من خلالها أنّ شعره سائغ يحمل في ثناياه ، حبا مكتنزا للرسول ، ويجلل أبياته بتبيان كريم نسل الرسول ، وذكر ما خصّه الله به دون سواه .

علي بن محمد العمراني([1]): (... - 560هـ)

نسبه ومولده وعلمه :

هو علي بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان العمراني الخوارزمي، ولد في سرخس ([2])، لقب بحجة الأفاضل وسيّد الأدباء،قرأ الأدب حتى أحاط أسراره،وقد قرأه على محمود بن عمر الزمخشري، تفقه في لغة العرب حتى عرف غوامضها،قرأ الحديث على يد مشايخ عصره .

صفاته وثقافته:

تميّز بتدينه وبدماثة أخلاقه،وبحسن اعتقاده ، فضلا عن سعة علمه وزهده، ورجاحة عقله ، كما أنه تميّز بسرعة الحفظ وكثرة السماع ،إضافة إلى حسن الخط، عمل على نشر العلم، وأفاد طالبيه والراغبين فيه ، لذا أمّ بيته الطلاب والعلماء، يقرؤون عليه ويفزعون إليه في حلّ المشكلات والمعضلات.

آثاره :

ترك مجموعة من الآثار تدل على تبحّره في العلوم ، كما وصفه المترجمون، منها الجغرافية : كتاب المواضع والبلدان، ومنها ما يخصّ القرآن وتفسيره ككتاب تفسير القرآن، وشماريخ الدرر في تفسير الآي والسور، ومنها في علوم اللغة ككتاب اشتقاق الأسماء .

---

[1] ـ ينظر ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 373/5-376. والسيوطي **بغية الوعاة**،195/2. والصفدي ، **الوافي بالوفيات**،94/22. وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، 215/7. و الزركلي،**الأعلام** ، 329/4-330. ومحمد درنيقة ، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**،266.

[2] ــ هي مدينة قديمة من نواحي خرسان، كبيرة واسعة، تقع بين مرو ونيسابور. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،208/3-209.

شعره :

يعد العمراني من الشعراء الذين عارضوا بردة كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح فيها صحابته، ومن شعره في غير المديح النبوي: [الوافر]

رأيتـــــــــك تدّعي علـــم العروض كأنــــــــــك لست منها في عروض
فكم تـــــــــــزري بشعـــر مستقيم صحيـــــــــح في موازين العروض
كأنــــــــــك لم تحط مـذ كنت علما بمخبـــــــــون الضروب ولا العروض

ويظهر قدرة على التلاعب بمفردة العروض، فهي تحمل في كلّ بيت معنى مختلفا .

ملك النحاة[1]: (489 ــ 568هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

الحسن بن صافي بن عبد الله أبو نزار بن الحسن الملقب بملك النحاة،ولد ببغداد،أخذ العلوم عن شيوخ عصره ،تنقل بين بقاع مختلفة من العالم الإسلامي،حيث حطّ به المقام في دمشق وظلّ بها حتى وفاته .

صفاته وثقافته :

عشق الحسن النحو حتى الثمالة ، وبرع فيه إلى الحد الذي أوصله العجب، وكان أنحى أهل طبقته، فخورا بنفسه ، مستخفا بالعلماء ، يقرّع من لا يدعوه بلقبه الذي خلعه على نفسه ـ ملك النحاة ـ نال خلع نور الدين زنكي فقد كان معجبا به أيّما إعجاب، ومع ذلك كان صحيح الاعتقاد ، كريم النفس،مطبوعا،متناسب الأحوال، شافعي المذهب .

---

[1] ــ ينظر ابن خلكان ، **وفيات الأعيان**،92/2ــ93. والقفطي، **انباه الرواة**،340/1ــ345. والسيوطي،**بغية الوعاة**،504/1-505. وياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 226/3ــ236. والصفدي، **الوافي بالوفيات**،56/12ــ59. وابن شهبة، **طبقات الفقهاء الشافعية**، 321/1ــ322. والفيروزآبادي، **البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة**، 68-84.ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،227/2. البغدادي، **هدية العارفين**،279/1.
و محمد زغلول سلام،**الأدب في العصر الأيوبي**،118ــ119. و أحمد أحمد بدوي، **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية**،199-200.

آثاره:

له مصنفات في النحو والصرف والقراءات والفقه والأصول، وله ديوان شعر،ومن كتبه : الحاوي و التذكرة الشعرية والمقامات وكتاب في العروض وكتاب العمدة في النحو والمنتخب في النحو والمقتصد في الصرف وأسلوب الحقّ والحاكم في الفقه .

ويبدو لنا من خلال كثرة مؤلفاته أنه كان ضليعا في النحو متفننا فيه من خلال التصنيف والتأليف .

شعره :

له ديوان شعر حسبما أوردت المصادر ، ويحتوي على عدّة مدائح نبويّة ،إلا أننا نجد أنّ أشعاره متناثرة وبحاجة إلى الجمع والتصنيف.

عبد الرحمن بن الجوزي([1]):(508ـ597هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو أبو الفرج ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، القرشي، التيمي البغدادي الحنبلي، ولد في مشرعة الجوز إحدى محال بغداد ،كان والده إمام العراق في وقته، وابنه هذا خلفه،سمع الحديث والتفسير من علماء عصره، عمل في التدريس وكان مفتيا، حضر مجالس العلماء والأمراء والوزراء، بلغ في فنّ الوعظ شأوا بعيدا .

صفاته وثقافته :

نشأ شغوفا بقراءة القرآن الكريم ، وسماعا للحديث الشريف، وتفقه في الاثنين، وبلغ عدد مشايخه ثمانين شيخا،عني بالعلم عناية فائقة، وتصدى لفنونه من لغوية وتاريخية

---

[1] ـ ينظر ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**،(نسخة مخطوطة مصورة في الجامعة الأردنية) 158/10ـ159. ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ،279/1. وطاش كبرى زادة، **مفتاح السعادة** ، 207. أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**،33/5ـ35. حاجي خليفة، **كشف الظنون**، 520/5ـ523. وابن الوردي، **تاريخ ابن الوردي**،169/2-170.الزركلي، **الأعلام**، 316/3ـ317. عبد الحميد العلوجي، **مؤلفات ابن الجوزي**،11ـ12. وصلاح الدين الهواري، **المولد النبوي الشريف**، 81ـ83. ومحمد زغلول سلام، **الأدب في العصر الأيوبي**،119.

وأدبية وفقهية وغيرها حتى عدّ علامة عصره ، كان زاهدا في الدنيا،متقللا عنها، ذكر بأنه تاب على يديه مئة ألف، وأسلم على يديه عشرة آلاف يهودي ونصراني، فضلا عن أنه كان يختم القرآن في كلّ سبعة أيام ،يقال إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخّن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت وفضل منها،بلغ عدد مصنفاته ثلاثمائة مصنف، وهذا يدلّ دلالة قطعية أننا نقف أمام شخصيّة كان لها كبير فضل على المكتبة العربية بما رفدتها من علوم وفنون لا يمكن لأحد أن يتجاهلها .

آثاره:

ذكرنا أنّ آثاره قد جاوزت الثلاثمائة مصنف ، ولا مجال هنا لتعدادها لأنها تحتاج إلى سفر مستقل، وهذا ما صنعه عبد الحميد العلوجي في سفره الي خصّه بمؤلفات ابن الجوزي، ولكن يجدر بنا أن نذكر الأشهر منها : تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، و الأذكياء، و مناقب عمر بن عبد العزيز ، وروح الأرواح ، وتلبيس إبليس، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وصيد الخاطر، وزاد المسير في علم التفسير ، والناسخ والمنسوخ ، و مناقب عمر بن الخطاب،وكتاب الحمقى والمغفلين.

شعره :

أوردت المصادر من خلال تعدادها لمصنفات ابن الجوزي على أنّ له ديوان شعر ولكن إلى يومنا هذا ما زال ذلك الديوان مجهول المقام؛ إذ لم يعثر عليه، ولكن له أشعار- في غير المديح النبوي - كثيرة ولطيفة منها يخاطب أهل بغداد : [المتقارب]

عذيـــــــــري من فتية بالعراق   قلـــوبهـــــــــــم بالجـفا قلّـب
يـــــــــــرون العجيب كلام الغريب   وقـــــــــــول القريب فلا يعجب
ميازيـــــــــــبهم إن تندّت بخير   إلى غيـــــر جيرانــــــهم تقلب

وعـــــــــــــذرهم عنـــد توبيخهم مغنيـــــــــــــة الحـــيّ ما تطرب[1]

وله أشعار كثيرة في المديح النبوي ، يمتدح فيها الرسول بصنوف من الصفات الحسية والمعنوية ، ويبين مكانته في هذا العالم .

صفوان بن إدريس [2]: (560ـ 598هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد صفوان بن إدريس بن إبراهيم التجيبي في مدينة مرسية شرق الأندلس، وإليها انتسب،وفيها توفي، كنيته أبو بحر، كان أديبا كاتبا وشاعرا سريع الخاطر، أخذ عن أبيه، وعن أفاضل العلماء في عصره، كان كثير الترحال.

صفاته وثقافته:

نشأ صفوان في بيت علم فقد كان أبوه من قضاة الأندلس ، مما تسنى له ملازمته والتثقف على يديه،قرأ الشعر والأدب على كبار الأدباء من شيوخ عصره،مما أهله أن يكون أديبا جليلا وحافظا، وكان يمتاز بسرعة الخاطر، مليح العشرة،وكان شجاعا سمحا، تثق ثقافة من نوع آخر وهي حبّ الترحال، وما فيها من علوم ومشاهدات ،ويظهر هذا في كتبه، أضف إلى ذلك بحثه عن المتعة ، والأخيرة وفرتها له البيئة الأندلسية وما حملت من جماليات الطبيعة الخلابة التي تميزت بها الأندلس.

آثاره:

له تصانيف منها: كتاب زاد المسافر وراحلته، وكتاب العجالة مجلدان يتضمنان طرفا من نثره وشعره، وله ديوان شعر .

---

[1] ـ صلاح الهواري ، **المولد النبوي الشريف**، 81.

[2] ـ ينظر ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**،111/3-112.والصفدي ، **الوافي بالوفيات**،321/16. وياقوت الحموي،**معجم الأدباء**،338/4-341. وابن شاكر الكتبي،**فوات الوفيات**،117/2. و المقري،**نفح الطيب**،62/5.و محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**،176–177. ابن الخطيب،**الإحاطة في أخبار غرناطة** ،359/3. ونعمات جمال البداينة،**صفوان بن إدريس حياته وأدبه**،رسالة ماجستير مقدّمة إلى الجامعة الأردنية، بإشراف صلاح جرار ، 1997.

شعره :

هام صفوان بطبيعة الأندلس كغيره من شعراء الأندلس، فنراه يصف جمالها وطبيعتها من أنهار ،ورياض وأزهار، يقول: [الطويل]

وما روضـــــــــــة الخضراء قد مثلت بها مجرّتــها نهـــرا وأنجــــمها زهرا
ويقرضـــــــــــه ذوب اللجين وإنما توفــيه عينـــــي مــن مدامعها تبرا
بأبـــهــــــج منها والخليج مــجرّة وقد فضحـــــت أزهـار ساحتها الزهرا
وقـــد أسكــــــرت أعطاف اغصانها الصّبا وما كنت اعـــددت الصبا قبلها خمرا ([1])

ويظهر أنه اتجه إلى مديح الرسول بعدما لقي جفوة من الحكام والأمراء، إذ كان يهدف من وراء مديحهم إلى التكسب، ولما لقي تجهما منهم قصر مديحه على النبي وآل البيت،حيث وجده نعم الملاذ ، وأقسم ألا يعود لمدح أحد منهم .

الشيباني([2]):(568هـ - ..)

نسبه ومولده وعلمه:

هو يعقوب بن محمد بن علي، وكنيته أبو يوسف، من مواليد مدينة دمشق،وهو ممن رثى الملك عثمان المتوفى سنة 595هـ ([3])، والأخبار حول هذا الشاعر قليلة جدّا ، حتى يمكن القول لولا النزر اليسير الذي طالعنا به ابن الشعار لبقي مجهولا.

آثاره و شعره:

جاء شعره لطيفا سائغا ، حيث امتدح النبيّ محمدا في قصائد عديدة ، حيث يظهر تعلقه بالحجازيّات ، وأغلب القصائد النبويّة التي أوردها ابن الشعار الموصلي في فرائده

---

[1] - ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 354/3.

[2] - ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، 85/10. و شفيق الرقب، **الشعر العربي في القرن السادس الهجري**،271.

[3] - هو الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، توفي وعمره سبع وعشرون سنة. أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**،25/5. وانظر المرتضي الزبيدي، **ترويح القلوب بكر ملوك بني أيوب**، وفيات595هـ .

تدلّ على تعلقه بها، وقد جعلها في مقدّمات قصائده، ويدلّ شعره على ملكة شاعر متمكن في مضمار الشعر.

ابن الساعاتي([1]):(553ـ604هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو الحسن ،بهاء الدين ،علي بن محمد بن رستم بن هرمز، من مواليد دمشق، ينحدر من سلالة فارسية،كان أبوه خبيرا بصناعة الساعات الفلكية،قرأ الشعر واستكمل حظه من الثقافة ،كان طموحا باحثا عن المال والرفاهية، رحل إلى مصر بعد أن بلـــــغ الثلاثين، و يبدو أنه حقق ما تمناه .

صفاته وثقافته:

برع في الخطّ والشعر والشطرنج والفروسية ،كان علامة ورعا كاتبا، نادم كبراء الدولة ، فهاموا به حبّا،تثقف ثقافة المشرق والمغرب،وهذا يدلّ على أنه كان يتمتع بعلاقات اجتماعية جيدة مع الآخرين أهلته أن يكون من المقرّبين، فقد قرّبه صلاح الدين ،وهو ممن وصف معركة حطين ،حيث انتصار المسلمين على الصليبيين .

آثاره :

خلف الشاعر تراثا غزيرا، فمن مؤلفاته: مجمع البحرين في الفقه ، وكتاب شرح مجمع البحرين، والبديع في الأصول، و كتاب الدرّ المنضود في الردّ على فيلسوف اليهود- ويعني بفيلسوف اليهود ابن كمونة اليهودي صاحب كتاب تنقيح الأبحاث عن الملل الثلاث- وديوان شعر .

[1] ـ ينظر ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**،183/2-184. وحاجي خليفة، **كشف الظنون**، 246/2. وابن سعيد الأندلسي، **الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة**،118-130.ومحمد بن رافع السلام، **تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار**،35-36. وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**،59/6.وعمر موسى باشا،**الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**،298-325، **والأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي**،370-373.وأحمد أحمد بدوي، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية** ،189-195. وشوقي ضيف،**عصر الدول والإمارات الشام**،156-158.و أنيس المقدسي،**مقدمة ديوان ابن الساعاتي**،18-44.

شعره :

جمع الشاعر بين ألفاظ المشارقة الرّقيقة، ومعاني المغاربة الدقيقة،ويظهر براعة في الوصف مثلما صنع عندما ساير صلاح الدين إلى حطين، فهو يقول: [الوافر]

جلت عزمـــاتك الفتح المبينا فقـــد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيـــذة الإسلام لما غـــدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بـــك الصليب وكان قدما يعزّ علـــى العــوالي أن يهونا
ومـــا طبريّـــة إلا هديّ ترفـــع عن أكفّ اللامسينا
قضيـــت فريضـــة الإسلام منها وصـــدّقت الأماني والظنونا([1])

ويميل الشاعر إلى الطبيعة واصفا مظاهرها،وما يروق له منها ، على أن شعره لا يخلو من التأثر بالزخرفة الفنيّة والإبداعية خاصة شغفه بفنّ البديع .

ابن جبير ([2]):(539ـ 614هـ)

نسبه ومولده وعلمه :

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني،ولد في بلنسية في الأندلس، درس الحديث والفقه على أبيه ، وتلقى علوم الأدب في شاطبة، رحل مرّتين إلى المشرق، زار في الأولى العراق والشام ثم عاد ، وفي الثانية حضر تحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين،وقيل إنه رحل ثالثة وقصد فيها الديار الحجازية للحج ، ولكنه ما لبث أن لحق بالرفيق الأعلى في طريق عودته إلى وطنه ، وكانت وفاته بالإسكندرية.

صفاته وثقافته :

كان صالحا ورعا تقيا ،سمح الأخلاق ، متدينا،زاهدا، كريم العشرة، برع في الشعر ووصل فيه إلى حدّ الإكثار،كان يعشق السفر والترحال، والدليل على ذلك سفراته المتكرّرة إلى المشرق.

[1] ـ ابن الساعاتي، **الديوان**، 402/2.
2ـ ينظر ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 231/4. والمقري، **نفح الطيب** ،142/2.وابن جبير ،**رحلة ابن جبير**، 11. وعمر فرّوخ، **تاريخ الأدب العربي**، /608-613. فوزي الخطبا ، **شعر ابن جبير**،4-19.

آثاره:

ترك ابن جبير من الآثار ما يدل على رجاحة عقله ، وسماحة خلقه ، ونبله وشهامته ، فمنها: رحلته فهي ذائعة الصيت وغنيّة عن التعريف ، ويقال إنه ترك عدّة دواوين شعرية .

شعره :

قال في أغراض متعدّدة منها النسيب وتذكر الأوطان ، ووصف طبائع الناس،ولكنه ينأى بنفسه عن ذكر العورات ، يميل إلى البديع ، وفي المحصلة تظهر في شعره بعض النفحات الدينية .

فتيان الشاغوري[1] :(530ـ 615هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو فتيان بن علي جمال الدين الأسدي النحوي،ولد في المدينة الساحلية بانياس السورية، عاش حياته في حيّ الشاغور من أحياء دمشق، اكتسب العلوم حتى غدا صاحب حلقة تعقد ويؤمها الطلاب بحثا عن العلم، عمل عند الأيوبيين وقام على خدمتهم، ومدحهم بقصائد كثيرة.

صفاته وثقافته:

اهتمّ بقراءة الشعر،وعمله في حلقته أهله أن يصبح ذائع الصيت، وصاحب شهرة، وهذا العمل في اللغة وفي التدريس جعلا من شعره من القوة بمكان لا يضاهى على صعيد عصره ،أضف إلى ذلك ذكاءه وموهبته وعلمه المكين،كان فقيرا وعاش كذلك أغلب حياته، ومع ذلك كان مرحا ، محبا للجمال واللهو والغناء.

---

[1] ـ ينظر ابن خلكان،**وفيات الأعيان**،408/1. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**، 190/3. العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**،247/1. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**،54/8. الزركلي، **الأعلام**،137/5. وعمر موسى باشا، **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، 326-342. وشوقي ضيف،**عصر الدول والإمارات الشام**،252-255.وأحمد الجندي، **مقدّمة ديوان فتيان الشاغوري**، 5-13. وعبد الله فرحان الخطيب، **فتيان الشاغوري، حياته وشعره**، أطروحة ماجستير مقدّمة إلى جامعة مؤتة، بإشراف شفيق الرّقب، 2003م .

آثاره:

لقد أورث لنا الشاعر ديوانا ضخما من الشعر، صبّ فيه ذوب فؤاده، وتحدّث فيه عن نفسه وما كابدت من مشاق ، ولا ننسى أنه كان يشكو من الزمان وأهله،وله دوبيت.

شعره:

نظم الشاعر في أكثر أغراض الشعر العربي،وطبعت الطبيعة كثيرا من قصائده بأبهى الحلل، ولا يخلو شعره من البديع الذي طغى على أغلب شعراء عصره ، حيث وسموا بهذه السمة ، ويعدّ الشاعر من الثائرين على النظم التقليدية في الشعر عندما قام بالنظم في الدوبيت، وفي الأغلب شعره يميل إلى السهولة ، وقد أثنى ياقوت عليه بقوله: " كان أديبا طبعا، وله أشعار رائعة جدّا ، ومعان كثيرة مبتكرة "([1]).

يعقوب الدّمشقي([2]):(.. ـ 623هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو يعقوب بن عبد الله، رومي الأصل ، كندي المولى، دمشقي المنشأ، كنيته أبو يوسف،ذكره أبو البركات في تاريخه كما أورد ابن الشعار فقال:" أبو يوسف الكندي يعقوب بن عبد الله عتامة، أبي اليُمن زيد بن الحسن بن زيد النحوي، كان يدعى قبل ذلك ياقوت، فسمّى نفسه يعقوب" ([3]).

صفاته وثقافته:

كان شيخا ، وافي الجثة، ورد إربل زمن الأيوبيين،درس على شيوخ عصره، حيث سمع من عبد الرحمن الجوزي، عمل موفدا خاصّا للملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، صاحب دمشق.

---

[1] ـ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،(شاغور) 310/3.

[2] ـ ينظر ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، 158/10-159.

[3] ـ نفســــــه،158/10-159.

آثاره وشعره:

لقد ترك يعقوب الدمشقيّ موروثا شعريا، ولكنه مازال بحاجة إلى جمع وتحقيق، فقد ورد أغلبه في الجزء العاشر من قلائد الجمان لابن الشعار، وأغلبه لطيف في المديح النبوي.

عبد المحسن التنوخي[1]:(570 ـ 643هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

أبو الفضل عبد المحسن بن حمود بن علي بن يوسف التنوخي،كانت ولادته في حلب، كان عاميّا يقطع الحجارة ويبيعها ويرتزق بها ومنها،نشأ محبا للعلم، راغبا في تحصيله ، استظهر الكتاب العزيز، وقرأه للسبعة، وجوّد قراءته ، وقرأ من الكتب الأدبية والشعرية، وكذلك مقامات الحريري وحماسة أبي تمام، ودرس النحو واطلع على كثير من أخبار الناس وأيّامهم، وسمع الحديث النبوي الشريف،ولقي المشايخ بحلب وأخذ عنهم .

صفاته وثقافته:

جمع ثروة من العلم أهلته أن يتولى الكتابة الإنشائيّة وصناعة الترسل، فبرز في ذلك وأجاد،فتح مكتبا يعلم الصبيان في حلب بقي فيه مدّة ، ثمّ سافر عن الوطن وتوجّه إلى دمشق، خدم خلالها في ديوان بني أيّوب، ثمّ انتقل إلى الديار المصرية، ومنها عاد إلى حمص فحلب حيث توفي فيها، كان يمتاز بالذكاء ، وصفاء الذهن.

آثاره:

ترك ابن حمود العديد من المؤلفات، منها : مفتاح الأفراح في امتداح الراح، والأخبار والنوادر ، ورسالة الأنوار المقتبسة من أوار النار، ديوان ترسل ، وديوان شعر، على أنّ

---

[1] ـ ينظر ابن الشعار الموصلي ، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، 105/4-107.و البغدادي، **هدية العارفين**،621/1. وابن شاكر الكتبي،**فوات الوفيات**،10/2.وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**،172/6. والزركلي، **الأعلام** ، 151/4.

محسن جمال الدين جمع مختارات من شعره ببغداد([1])، ولكن لم يتسنّ لي الإطلاع عليها.

شعره:

وصفه ابن الشعار بأنه ممن أولع بالشعر حتى بلغ فيه مبلغا لم يبلغه أحد من أبناء زمانه، وتقدّم على عامّة معاصريه فيه([2]).

ومن جملة ديوان شعره له عدّة مدائح نبوية، منها واحدة مطولة، عارض فيها بانت سعاد،ويظهر أنّه تأثر بما غلب على عصره فتميّز شعره بطغيان الصنعة ، ولكن الألفاظ تميزت بالرشاقة وابتعدت عن الغرابة.

السخاوي([3]):(558ـ 643هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

هو علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني، المصري، الشافعي، علم الدين، أبو الحسن،أصله من سخا(بمصر) انتقل إلى دمشق، تتلمذ فيها على يديه خلق كثير، بعدما برع في العلوم واكتسابها.

صفاته وثقافته:

قرأ القرآن بالروايات، وتعلم الأدب حيث كانت تعقد له حلقة خاصّة بدمشق،كان ذكيا، شغوفا في طلب العلم،أمّ بيته الطلاب ومحبو العلم، حيث استفادوا منه، وأفادهم.

---

[1] ـ الزركلي، **الأعلام**، 151/4.

[2] ـ **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، 105/4.

[3] ـ ينظر ابن خلكان، **وفيات الأعيان**،340/3. والقفطي،**إنباه الرواة**، 311/2-312.و السيوطي، **بغية الوعاة**، 192/2-194. وياقوت الحموي، **معجم الأدباء**،376/5-377. وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**،354/6. والزركلي، **الأعلام**،332/4-333.

آثاره :

ترك السخاوي ثروة هائلة من الكتب، وهذا يدلّ على طول باع في مجال التأليف والتصنيف، منها: في علم التجويد جمال القرّاء وكمال الإقراء، هداية المرتاب وهي منظومة في متشابه كلمات القرآن، والمفضل يقع في أربعة أجزاء يشرح فيه المفصّل للزمخشري، وسفر السّعادة وسفير الإفادة، وله كتب أخرى كثيرة.

شعره:

له شعر متناثر، ولكن المصادر القديمة ذكرت بأنّ له ديوان شعر، وقد عثرت له على قصيدة مطولة تقع في خمسة وخمسين بيتا من الشعر ، وأسماها ذات الشفا، وهي في مدح سيد الأنام محمد العدنان.

الصرصري ([1]):(581ـ 656هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد جمال الدين يحيى بن يوسف بن منصور الصرصري الضرير في صرصر على بعد فرسخين من بغداد، تثقف على شيوخ عصره، ونال الإجازة منهم وأصبح مدرسا لعلمي الحديث والفقه ،كان حنفيّ المذهب .

صفاته وثقافته:

نعته ابن رجب قائلا:" كان صالحا قدوة، كثير التلاوة، عفيفا صبورا قنوعا، محبا لطريقة الفقراء ومخالطتهم،وكان يحضر معهم السماع، وكان شديدا في السنة، منحرفا عن المخالفين"([2]).

---

[1] ـ ينظر ابن شاكر الكتبي،**فوات الوفيات**،298/4. و ابن العماد الحنبلي،،**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**،286/5. و اليافعي، **مرآة الجنان**،147/4.و المقريزي، **السلوك** ، 503/1. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**،66/7ـ67.وابن رجب الحنبلي، **الذيل على طبقات الحنابلة**،212/2ـ213. و كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**،26/3.

[2] ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**،212/2.

أضف إلى ما سبق سرعة الخاطر وحدّة الذكاء ، وتمكنه من القرآن والفقه أهلاه من أن يصبح مقدّما حتى غدا جليس الأمراء والأعيان والوزراء .

آثاره:

أغلب آثار الصرصري عنيت بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد خلف ثروة هائلة من المدائح النبوية منها: منتقى من مدائح الرسول في معرفة أوائل شهور الروم ومعرفة عددها، المختار من مديح المختار، عقيدة وهي قصيدة في مدح النبيّ، وصيّة في العقيدة، الوصيّة الصرصريّة ، أضف إلى ذلك ديوانه المحقق من قبل مخيمر صالح .

شعره:

أجمعت المصادر التي عدت إليها على علوّ كعب الشاعر في النظم ، حتى أنهم أطلقوا عليه حسان زمانه، لما عرف عنه من سيرورة شعره،ونظمه جاء متفاوتا بين الطول والقصر، أطول مدحة تقع في ثمانمائة وسبعة وستين بيتا، وأقصرها جاءت في سبعة أبيات، وشعره كله رائق سائغ.

ابن قزل [1]:(602ـ 656هـ)

نسبه مولده وعلمه:

هو علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني الياروقي المصري،المعروف بالمشد، ولد بمصر ، وكان يتنقل في طلب العلم والجاه، درس الطبّ والفقه والحكمة والمنطق والنحو والعروض وعلم النجوم .

صفاته وثقافته:

تمتع بصفات كثيرة ذكرها ابن شاكر الكتبي ، إذ قال عنه:" كان فاضلا، أديبا جوادا، سمحا كريما ، ذا مروءة، وعنده ستر على الكتاب، وله صنائع وإحسان إلى أهل البلاد،

---

[1] ـــ ينظر ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 51/3. و**عيون التواريخ**،120/20. والمقريزي، **السلوك**،413/1.وبدر الدين العيني،**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**،161/1ـ162، 197.والسيوطي، **حسن المحاضرة**، 437/1. والزركلي ،**الأعلام**،315/4. وعمر رضا كحالة ، **معجم المؤلفين**،159/7. ومشهور الحبازي، **مقدمة ديوان ابن قزل**، 17-47.

كثير البرّ والصدقة، وكان كل ليلة جمعة يجتمع عنده جماعة كبيرة من الأعيان والفضلاء والأدباء"([1]) والصفات السابقة يضاف إليها ما حازه الشاعر من ثقافة الترحال طلبا لحياة كريمة فضلى،وجاها جعله يبحث ليجد لنفسه مكانا بين الأعيان ويدون اسمه في أهل الزمان.

آثاره وشعره :

ترك ابن المشد ديوان شعر حقق ورأى النور عام 2002م،على يدي مشهور الحبازي ، أما شعره ففي غاية اللطافة والرقة ، وجمع بين الحسن والجودة والشهرة، ورفض محقق الديوان الحكم على شعره بالضعف الذي نعت به من قبل عمر فروخ.([2])

الصاحب شرف الدين الأنصاري([3]):(586 ـ 662 هـ)

نسبه ومولده وعلمه:

ولد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور الأنصاري في دمشق ،كان يعرف بابن الرفاء، رحل برفقة والده رحلات عديدة، حيث كان أبوه يعمل قاضيا، تلقى علمه على يده، رحل إلى بغداد وهناك سمع من مشايخها وعلمائها ومحدّثيها.

صفاته وثقافته:

كان طموحا، ومحبا للعلم ،و نبيها،وذكيا، أكسبه حله وترحاله مع تشجيع ملوك حماة ثقافة عالية، لذا أمه طلبة العلم كلّ حدب وصوب، وسار ذكره في الآفاق،وبروز مكانته

---

[1] ـ **عيون التواريخ**، 120/20.

[2] ـ ينظر ابن قزل ، **الديوان** ، 26.

[3] ــ ينظر السبكي، **طبقات الشافعية**،108/5. وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**،231/7.وابن إياس، **بدائع الزهور**،103/1. واليونيني،**ذيل مرآة الزمان**،239/2. وأبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**،350/5. والسيوطي، **بغية الوعاة**، 102/2.ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**،365/1. والصفدي، **الوافي بالوفيات**، 456/18ـ554. وعمر موسى باشا، **الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين و الأيوبيين والمماليك**،373-407.

العلمية جعلته يستحقّ أن يخلع عليه ألقابا عدة منها " شيخ الشيوخ "

آثاره وشعره:

لقد ترك الشاعر شرف الدين الأنصاري مؤلفات عديدة،منها : نظرة المعشوق إلى وجه المشوق، وتذكار الواجد بأخبار الوالد، وديوان شعره " إلزام الضّروب بالتزام المندوب" وهو ديوان في لزوم ما لا يلزم،الذي أشاد به الصفدي بقوله: " لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين،وما رأيت له شيئا إلا وعلقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب،واللفظ الفصيح، والمعنى البليغ" ([1]).

[1] ـ الصّفدي، **الوافي بالوفيات**، 18/546-547.

فهرس المصادر والمراجع :

ـ القرآن الكريم

أ ـ المصادر المخطوطة:

1ـ العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى(ت749هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مركز المخطوطات ـ الجامعة الأردنيّة، رقم الحفظ (1066) .

2ـ الموصلي ، ابن الشعار المبارك بن أحمد(ت 654هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، طبع بالتصوير عن مخطوطة(2325) مجموعة أسعد أفندي، مكتبة السليمانيّة، استنبول، الجامعة الأردنيّة، عمان(10ـ1).

ب ـ المصادر والمراجع المطبوعة:

1ـ **الأبيوردي، محمد بن أحمد(ت507هـ)،الديوان، تحقيق عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1987م.**

2ـ **ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر،ط1، القاهرة، 1960م.(1ـ4)**

3ـ **ابن الأثير، عزّ الدين، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة،(د.ط)القاهرة،1963م.**

4ـ **الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط2، 1968م.**

5ـ **الأسدي، الكميت بن زيد، القصائد الهاشميّات، تصحيح أحمد محمد شاكر، القاهرة،مصر 1321هـ. ومطبعة الأعلمي، (د.ط)،بيروت، 1972م.**

6 ـ **إسماعيل، عزّ الدّين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربيّ، ط8، القاهرة، 2002م.**

7. **الأصبهاني، عماد الدين محمد بن محمد(ت 597هـ)، <u>خريدة القصر وجريدة العصر</u>، (قسم شعراء العراق)، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الحريّة للطباعة،(د.ط)، بغداد، 1976م.**

8. **الأصبهاني، عماد الدين الكاتب، <u>الفتح القسّيّ في الفتح القدسيّ</u>، تقديم إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2003م.**

9 . **الأصفهاني، أبو الفرج، <u>الأغاني</u>،عن طبعة بولاق الأصليّة، الناشر صلاح يوسف الخليل، دار الفكر للجميع،(د.ط) بيروت، 1970م،(1-26).**

10. **ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم(ت668هـ)، <u>عيون الأنباء في طبقات الأطباء</u>، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م،(1-2).**

11. **الأعشى، ميمون بن قيس، <u>الديوان</u>، تحقيق محمد محمد حسين، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1974م.**

12. **الأعشى، ميمون بن قيس، <u>الديوان</u>، شرحه وعلق عليه محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، ط2، بيروت ، 1993م.**

13. **إقبال، أحمد الشرقاوي، <u>بانت سعاد في إلمامات شتى</u>،<u>دار الغرب الإسلامي</u>،ط1، بيروت، 1991م.**

14. **أمين، بكري شيخ ، <u>مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني</u>،دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1986م.**

15. **الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت 577هـ)، <u>نزهة الألباء في طبقات الأدباء</u>،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، ط1،بيروت، 2003م.**

16. **الأندلسي،ابن جابر محمد بن أحمد(ت 780هـ)،<u>الحلة السيرا في مدح خير الورى</u>، تحقيق علي أبو زيد، عالم الكتب، ط2، بيروت، لبنان، 1985م.**

17- **الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ)، <u>الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة</u>، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، ط4،القاهرة، 1990م.**

18- **الأنصاري، جمال الدين عبد الله(ت 761هـ)، <u>شرح قصيدة بانت سعاد</u>، ضبط وفهرسة محمد الصبّاح، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (دون مكان)، 1996م.**

19ـ الأنصاري، شرف الدين عبد العزيز بن محمد(ت 662هـ)،الدّيوان، تحقيق عمر موسى باشا، المطبعة الهاشميّة، دمشق، 1967م.

20. أنيس ، إبراهيم، موسيقى الشعر، (دون مكان)، ط5، 1981م.

21. ابن إيّاس، محمد بن أحمد الحنفي(ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدّهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط2 ، القاهرة، 1984م.

22. الأيّوبي، بهرام شاه، الديوان، تحقيق غريب محمد علي أحمد، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب،(د.ط)، القاهرة، 1991م.

23ـ الأيّوبيّ، ياسين، آفاق الشعر العربيّ في العصر المملوكي، جروس برس، ط1، طرابلس، 1995م.

24. باشا ، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيّوبيين والمماليك، دار الفكر،ط1، دمشق، 1989م.

25ـ باشا، عمر موسى،الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العبّاسي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1986م.

26. باشا ، عمر موسى، تاريخ الأدب العربي العصر المملوكي، دار الفكر ،ط1، دمشق، 1989م.

27. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)، صحيح البخاري،ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصّفا،ط1، القاهرة، 2003م (1ـ3).

28. بدوي، أحمد، الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشام،دار نهضة مصر، ط8، القاهرة، 1979م.

29. بدوي، أحمد، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر،(د.ط) القاهرة، مصر(د.ت).

30. البردّوني، عبد الله، الدّيوان، دار العودة،(د.ط) بيروت، 1986م.

31. البرعي،عبد الرحيم، شرح ديوان البرعي، مكتبة القاهرة،ط6 ، القاهرة ، 2002م.

32. بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربيّ ، ترجمة رمضان عبد التواب، دار المعارف، (د.ط) القاهرة،1975م. (1ـ 6)

33ـ البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1980م.

34ـ البغدادي، إسماعيل باشا، (ت 1920م)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، 1982م(1ـ2).

35ـ البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين وأسماء المؤلفين والمصنفين، بيروت، 1982م.(1ـ2).

36ـ البغدادي، عبد القادر بن عمر(ت 1093هـ)، حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام،تحقيق نظيف محرّم خواجة، دار النشر فرانزشتاينر،شتوتغارت ،ط1، ألمانيا،1990م.(1ـ3)

37. بكار، يوسف حسين، بناء القصيدة في النقد العربيّ القديم(في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس للطباعة والنشر،ط2، بيروت، 1982م.

38ـ البكري، عبد الله بن عبد العزيز(ت 487هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب،(د.ط)، بيروت، (د.ت). (1ـ4).

39ـ البوريني، حسن وعبد الغني النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، دار التراث،(د.ط) بيروت،(د.ت). (1ـ2).

40. البوصيري، محمّد بن سعيد،(ت 696هـ)، الدّيوان، قدّم له أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2001م.

41. تايه، خضر عبد الله، ونبيل خالد الأغا، شعراء حول الرسول، دار البشير،ط1، عمّان، 1998م.

42. ابن تغري بردي، جمال الدّين أبو المحاسن يوسف(ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب،(د.ط) القاهرة،(د.ت).(1ـ16)

43. التونجي، محمد، شاعرات في عصر النبوّة، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 2002م.

44. ثابت، حسّان، الدّيوان ، قدّم له عبدأ مهنا، دار الكتب العلميّة،ط2، بيروت، لبنان، 1994م.

45ـ ثابت، حسّان، الدّيوان، تحقيق وليد عرفات،دار صادر ،(د.ط) بيروت، 1974م. (1ـ2).

46ـ الجاحظ، عمرو بن عثمان(ت 255هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي،ط2، بيروت، 1969م.(1ـ7).

47. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي(ت614هـ)، رحلة ابن جبير، طبعة دار صادر ودار بيروت،(د.ط) بيروت، 1964م.

48. جحا، ميشال خليل، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، دار العودة ـ دار الثقافة،ط1، بيروت، 1999م.

49. الجرجاني، عليّ بن عبد العزيز(ت392هـ)، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، ط3،بيروت.(د. ت).

50. ابن جعفر، قدامة (ت 337هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر بمصر،و المثنى ، ط2، بغداد،1963م.

51ـ الجمحي، محمد بن سلام(ت 232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر،(د.ط)، القاهرة ،1952م.

52. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطي (1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلميّة، (د.ط)،بيروت،1992م.(1ـ2).

53ـ ابن حجّة، تقي الدّين أبو بكر علي الحموي(ت 837هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث،(د.ط)، 1304هـجريّة.

54. ابن حجّة، تقي الدين، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال،(الطبعة الأخيرة)، بيروت، 2004م.(1ـ2)

55. ابن حجر، امرؤ القيس(ت 545 م)، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة، مصر، ط2، 1964م.

56. ابن أبي حديد، عبد الحميد المدائني، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط1، القاهرة ، 1959م.

57. حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف،(د.ط) القاهرة ، 1962م.(1ـ3)

58. حسين، طه، في الأدب الجاهلي، دار المعارف،ط2، القاهرة، 1927م.

59ـ حسين، علي صافي، الأدب الصّوفي في مصر في القرن السّابع الهجري، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، 1964م.

60. الحلاّج، الحسين بن منصور(ت309هـ)، الدّيوان ويليه كتاب الطواسين، أصلحه أبو طريف الشيبي، منشورات الجمل، ط1، كولونيا، ألمانيا، 1997م.

61. الحلي صفي الدين،عبد العزيز بن سرايا(ت 750هـ)،الديوان،شرحه وضبط نصوصه عمر فاروق الطبّاع، شركة الأرقم بن أبي الأرقم ،ط1، بيروت، 1997م.

62ـ الحلي، صفي الدين، شرح الكافية البديعيّة في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تحقيق نسيب نشاوي، دار صادر، ط1، بيروت،1991م.

63ـ حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكريّة في مصر في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل، دار الفكر العربي، ط8،القاهرة، 1968م.

64. حمزة، عفت وصال، شعر النساء زمن النبوّة، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2001م.

65. الحموي، ابن قسيم، الديوان،تحقيق سعود محمود عبد الجابر، دار البشير للنشر والتوزيع، ط1، عمّان ، 1995م.

66ـ الحموي،ابن واصل جمال الدين محمد، مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، الجزء الثاني، تحقيق جمال الدين الشيّال، المطبعة الأمريكيّة،(د.ط)، القاهرة، 1957م.

67. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، مؤسسة المعارف، ط1،بيروت، 1999م.(1ـ7).

68ـ الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر،(د.ط) بيروت، 1986م.(1ـ5).

69. الحنبلي، أحمد بن رجب(ت 876هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدّينيّة،(د.ط) مصر، 1996م.

70. الحنبلي، ابن رجب،الذيل على طبقات الحنابلة، وضع حواشيه أسامة بن حسن، دار الكتب العلميّة، ط1،بيروت، 1997م.(1ـ4).

71ـ الحنبلي، ابن العماد، (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت،لبنان، 1979م.(1ـ6).

72. خالد، محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1996م.

73. الخطبا، فوزي، شعر ابن جبير، دار الينابيع للنشر، ط1، عمّان، 1991م.

74. ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ،(د.ط)، القاهرة، 1973ـ1977م.

75. خفاجي، عبد المنعم،الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب،(د.ط) مصر، (د .ت).

76ـ خفاجي، عبد المنعم،<u>الحياة الأدبيّة عصر بني أميّة</u>، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1973م.

77. خفاجي، عبد المنعم، <u>الشعر الجاهلي</u>، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1973م.

78. ابن خلدون، عبد الرحمن(ت 808هـ)، <u>مقدّمة ابن خلدون</u>، دار القلم، ط11، بيروت، 1992م.

79. ابن خلكان، أحمد بن محمد، <u>وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان</u>، تحقيق إحسان عباس، دار صادر،(د.ط) بيروت، 1977م.(1ـ8).

80ـ أبو الخير، محمود عبد الله، <u>الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين</u>، دار الإسراء، ط1،عمان، 2003م.(1ـ2).

81ـ <u>دائرة المعارف الإسلاميّة</u>، إعداد إبراهيم زكي خورشيد وزملائه، الهيئة العامّة للكتاب، ط2، القاهرة، (د.ت).

82. درنيقة ، محمد أحمد، <u>معجم أعلام شعراء المدح النبوي</u>،قدّم له وضبط أشعاره ياسين الأيّوبي، دار ومكتبة الهلال،(د.ط)،بيروت، 2003م.

83ـ الديلمي، مهيار أبو الحسن،<u>الديوان</u>، تحقيق أحمد نسيم، دار الكتب المصريّة،(د.ط)، القاهرة، 1930م.(1ـ3).

84. الدينوري، ابن قتيبة(ت 276هـ)، <u>الشعر والشعراء</u>، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث،ط3، القاهرة ،2001م. (1ـ2).

85ـ الرّافعي، مصطفى صادق،<u>تاريخ آداب العرب</u>، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2000م. (1ـ3).

86ـ رشيد، ناظم، <u>المدائح النبويّة في أدب القرنين السّادس والسّابع للهجرة</u>، دار الشؤون الثقافيّة، ط1، بغداد، 2002م.

87. رضا، علي، <u>الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه رابع الخلفاء الرّاشدين</u>، دار الكتب العلمية،(د.ط)، بيروت ، (د.ت).

88. الرّقب، شفيق محمد عبد الرحمن، <u>الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السّادس الهجري</u>، دار صفاء للطباعة والنشر، ط1،عمّان ، 1993م.

89. زايد، مصطفى محمود، <u>النثر الفني في عهدي الدّولتين الزنكيّة والأيّوبيّة في مصر والشام</u>، مؤسسة الرّسالة، ط1،بيروت، 2004م.

90. الزبيدي، المرتضى (ت 1205هـ)، <u>ترويح القلوب في ذكر مناقب بني أيّوب</u>،تحقيق صلاح الدين المنجّد،مطبعة الترقي ،(د.ط)، دمشق، 1971م.

91. الزركلي، خير الدين(ت 1976م)، <u>الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين</u>، دار العلم للملايين،ط15، بيروت، 2002م.(1-8).

92. الزهراء، فاطمة(ت 11هـ)، <u>الديوان</u>، جمع وتحقيق محمد عبد الرحيم، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1،دمشق وبيروت، 2000م.

93- ابن زهير، كعب بن زهير المازني(ت26هـ)،<u>الديوان</u>، صنعة أبي سعيد الحسن العسكري(ت 275هـ)، وضع حواشيه حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي،ط2،بيروت،1996م.

94. أبو زيد، علي، <u>البديعيّات في الأدب العربيّ نشأتها. تطوّرها - أثرها</u>، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1983م.

95ـ زيدان، جورجي، <u>تاريخ آداب اللغة العربيّة</u>، مطبعة الهلال(د.ط)، القاهرة، 1913م.(1-4).

96. الزيّات، أحمد حسن، <u>تاريخ الأدب العربيّ</u>، دار المعرفة، ط5،بيروت، 1999م.

97- السّاريسي، عمر عبد الرحمن، <u>نصوص من أدب عصر الحروب الصليبيّة- دراسة وتحليل</u>، دار المنارة ، جدّة ، السعوديّة، ط1، 1985م.

98. ابن السّاعاتي، علي بن رستم(ت604هـ)، <u>الديوان</u>، تحقيق أنيس المقدسي، كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكيّة،(د.ط)، بيروت، 1938م.

99. السّخاوي، محمد بن عبد الرحمن،(ت 902هـ)، <u>الضوء اللامع لأهل القرن التاسع</u>، دار مكتبة الحياة،(د.ط)، (د.ت)، (1-12).

100السّرطاوي، معاذ، ومروّح الرّفاعي، <u>مختارات من الشعر العربي القديم</u>، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1989م.

101 السرطاوي، محمود فايز إبراهيم، <u>نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبيّة</u>، دار البشير للطباعة والنشر، ط1، عمّان، 1990م

102بن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع(ت230هـ)،<u>الطبقات الكبرى</u>، بيروت، 1968م.

103. سلام، محمد زغلول،الأدب في العصر الأيّوبيّ ،منشأة المعارف،(د.ط)،الإسكندريّة، 1997م.

104. سلام، محمد زغلول، تاريخ النقد العربيّ من القرن الخامس إلى العاشر الهجري، دار المعرفة الجامعيّة،(د.ط)، القاهرة ، (د.ت).

105. السّلامي، محمد بن رافع(774هـ)، تاريخ علماء بغداد (منتخب المختار)، صحّحه وعلق حواشيه عباس العزاوي، مطبعة الأهالي،(د.ط)، بغداد،1938م.

106 سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب،(د.ط)، القاهرة، 1965م. (1-8).

107- السيوطي، جلال الدين(ت 911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة،(د.ط)، بيروت، 1998م.(1-2)

108. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق طه عبد الرؤف سعد وياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقيّة،(د.ط)، القاهرة ، (د.ت).

109. السّيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة،ط1، بيروت، 2004م.(1-2).

110. الشاغوري، فتيان بن علي الأسدي(ت 615هـ) ،الديوان، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة،(د.ط)، دمشق،(د. ت).

111. الشايب، أحمد،أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصريّة،ط6، القاهرة، 1960م.

112. شبيب، غازي، فنّ المديح النبويّ في العصر المملوكي، المكتبة العصريّة، ط1، بيروت ، 1998م.

113. ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف بن رافع(ت632هـ)،النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصريّة للتأليف والترجمة،(د.ط)، القاهرة، 1964م.

114. شير، آدي، معجم الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، مكتبة لبنان،(د.ط)، بيروت، 1980م.

115. أبو شريفة، عبد القادر وحسين لافي، مدخل إلى تحليل النصّ الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع،ط1، عمّان، 1990م.

116. شوقي، أحمد، صفوة المؤلفات الكاملة ـ الشوقيّات، تحقيق علي عبد المنعم عبد الحميد، الشركة المصريّة العالميّة ـ لونجمان، ط1،القاهرة، 2000م.(1-2).

117. شوقي، أحمد، نهج البردة، شرح سليم البشري، مكتبة الآداب،(د.ط)، القاهرة، 1999م.

118. الصّابوني، محمد ضياء الدين، نفحات من الأدب الإسلامي، دار الصّابوني،ط1، حلب، 1996م.

119. صالح، بشرى موسى، الصّورة الشعريّة في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربيّ، ط1، بيروت، 1994م.

120. صالح، مخيمر ، المدائح النبويّة بين الصّرصريّ والبوصيريّ،دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1986م.

121. الصرصريّ، يحيى بن يوسف (ت 656هـ)، الدّيوان، تحقيق مخيمر صالح، منشورات جامعة اليرموك، (د.ط)، إربد، 1989م.

122. الصفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك(ت 764هـ)، الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم، دار الكتب العلميّة، ط2،بيروت، 2003م. (2.1).

123. الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، المجلدات الأولى، بعناية هلموت ريتر، المعهد الألماني للدراسات الشرقيّة،(د.ط)، بيروت، 1980م.(30.1).

124. الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، جزء12، باعتناء رمضان عبد التواب، دار النشر فرانزشتاينر، شتوتغارت في دار صادر، بيروت، 1992م.

125. ضيف ، شوقي،البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف،القاهرة، 1964م.

126. ـــ ، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط8،القاهرة، 1960م.

127. ـــ ، العصر الإسلامي، دار المعارف، ط7، القاهرة، 1963م.

128. ـــ ، العصر العباسي الأوّل، دار المعارف، ط6، القاهرة، 1966م.

129. ـــ ، عصر الدول والإمارات ـ الشام، دار المعارف ،ط2،القاهرة، 1990م.

130. ـــ ، عصر الدول والإمارات ـ مصر،دار المعارف، ط2، 1990م.

131. ـــ ،الشعر وطوابعه الشعبيّة على مرّ العصور، دار المعارف ، ط2، القاهرة، 1977م.

132. ـــ ، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، ط2،القاهرة، 1971م.

133. ـــ ، الفنّ ومذاهبه في الشعر العربيّ، دار المعارف، ط9، القاهرة، 1960م.

134. ـــ ، في النقد الأدبيّ، دار المعارف، مصر، ط8، 1962م.

135ـ ضيف، عبد السّتار، محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره، عالم الكتب، ط1،القاهرة، مصر، 1994م.

136. طاش كبري زادة ، أجمد بن مصطفى(968هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السّيادة، دار الكتب الحديثة، مطبعة الاستقلال الكبرى،(د.ط) القاهرة، مصر، 1968م.

137. أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب(ت 3ق.هـ) الدّيوان،تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط1،بيروت، 2000م.

138. ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(ت360هـ)، عيار الشعر،تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر،(د.ط)، الرياض،1985م.

139. عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبيّة (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى)مكتبة الإنجلو المصريّة،ط3،القاهرة، 1978م.

140. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت 211هـ)، أشعاره و أخباره ، صنعة أبو بكر الصولي، تحقيق شكري فيصل، (د.ط) ، دمشق، 1965م.

141. عبّاس، إحسان، فنّ الشعر ، دار صادر،ط1، بيروت، لبنان، 1996م.

142ـ ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد(ت 328هـ) العقد الفريد،تحقيق أحمد أمين ورفاقه،(د.ط) القاهرة، 1983م.(1ـ8).

143ـ عبد الله ، محمد حسن، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف،(د.ط)، القاهرة، 1981م.

144ـ العبود، عبد الكريم توفيق، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، المكتبة الوطنيّة، (د.ط)،بغداد، 1976م.

145ـ عتيق، عبد العزيز، علم العروض والقافية، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، (د.ط)،بيروت، لبنان، 1987م.

146. ابن العديم، كمال الدين(ت660هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة ،(د.ط) بيروت، لبنان، 1988م. (1ـ12).

147. ابن العديم، كمال الدين، زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان،1996م.

148. ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي(ت 638هـ)، الديوان، شرحه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة،ط1، بيروت، لبنان، 1996م.

149ـ ابن عساكر،علي بن الحسن، **تهذيب ابن عساكر**، ترتيب عبد القادر بدران (ت 1927م)، مطبعة روضة الشام ،(د.ط)، بيروت، 1329هـ .(4.1).

150ـ العسقلاني، ابن حجر(ت 852هـ)،**الإصابة في تمييز الصحابة**،القاهرة،(د.ط)، 1328هـ.. (8.1).

151ـ العسقلاني، ابن حجر، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**،دار الجيل،(د.ط)بيروت ، (د.ت). (1ـ5).

152ـ العسكري، الحسن بن عبد الله (ت395هـ)، **كتاب الصّناعتين الكتابة والشعر**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، ط2، 1984م.

153ـ العشماوي، محمد زكي،**قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث**، دار الشروق،ط1، القاهرة، 1994م.

154ـ ابن عصفور، علي بن مؤمن الحضرمي الإشبيلي(ت 663هـ)، **ضرائر الشعر** ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلميّة،ط1، بيروت، 1999م.

155ـ العطوي، مسعد بن عيد، **الإتجاهات الفنيّة في الشعر إبّان الحروب الصّليبيّة**، مكتبة التوبة،ط1، الرّياض، 1995م.

156ـ العظم، يوسف، **شعراء الدعوة الإسلاميّة في عهد النبوّة**،دار الفرقان،(د.ط)، عمّان، 1994م.

157ـ العقاد، عباس محمود، **موسوعة عبّاس العقاد الإسلاميّة**، دار الكتاب العربيّ، (د.ط)،بيروت، (د.ت).(4.1)

158ـ العلوجي، عبد الحميد، **مؤلفات ابن الجوزي**، منشورات مركز المخطوطات والتراث و الوثائق،ط1، الكويت، 1992م.

159ـ عيسى، حسن عبد الهادي، **دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيّوب مع تحقيق ديوانه**، دار الينابيع للنشر، ط1، عمّان، 1997م.

160ـ العيني، بدر الدين محمود(ت855هـ)،**عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب(د.ط)، القاهرة،1987م.(1ـ4).

161ـ الغرناطي،شهاب الدين أحمد بن يوسف(ت 779هـ)، **كتاب طراز الحلّة وشفاء الغلة**، تحقيق رجاء السيد الجوهري، مؤسسة الثقافة الجامعيّة، الإسكندريّة، القاهرة ، 1990م.

162. غطاشة، داود وحسين راضي، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها،دار القدس للنشر والتوزيع، ط1، عمّان، 1989م.

163. ابن الفارض(ت632هـ)، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

164ـ فرّوخ،عمر(ت 1987م)، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط1،بيروت، 1981م.(6.1).

165. الفنسيان، سعود بن عبد الله، توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، مكتبة الرّشد، ط1،الرّياض، 1999م.

166. فهمي، ماهر حسن، شوقي شعره الإسلاميّ، دار المعارف ،(د.ط)، القاهرة، 1959م.

167. ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق البغدادي(ت 723هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السّابعة، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلميّة،ط1، 2003م.

168. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب(ت 817هـ)، البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث ،ط1، الكويت، 1987م.

169. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربيّ، ط1،بيروت، 1997م.(2.1).

170. فيّود، بسيوني عبد الفتاح، علم البديع دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار،ط2، القاهرة، 1998م.

171. ابن قاضي شهبة، محمد بن تقي الدين(ت 874هـ)، الكواكب الدريّة في السيرة النوريّة، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط1،(د.مكان)، 1971م.

172. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعيّة، تحقيق علي محمد عمر،مكتبة التراث الثقافة الدينيّة،(د.ط) القاهرة، (د. ت). (2.1).

173. القاعود، حلمي،محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث،دار الوفاء للطباعة والنشر،ط1، المنصورة، مصر، 1987م.

174. أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الحطّاب(ت في القرن الخامس)، جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام، تحقيق علي محمد البجاوي،(د.ط)القاهرة، 1967م.

175. القرطاجني، حازم بن محمد(ت 684هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب خوجة، دار الكتب الشرقية،(د.ط)،تونس، 1966م.

176. ابن قزل، علي بن عمر(ت656هـ)، الديوان، تحقيق مشهور الحبازي، مركز التعاون و السّلام الدّولي،(د.ط) القدس، فلسطين، 2002م.

177. القيرواني، ابن رشيق(ت456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصريّة،ط1، بيروت، 2001م. (1ـ2).

178ــ القيسيّ، نوري حمّودي وهلال ناجي، أربعة شعراء عبّاسيّون، دار الغرب الإسلامي،ط1،بيروت، 1994م.

179ـ الكاندهلوي، محمد يوسف، حياة الصّحابة، مكتبة دار التراث،(د.ط)، القاهرة، 1965م.(1ـ3).

180. الكتبي، محمد بن شاكر(ت764هـ)،عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر وزميلته، دار الرشيد ودار الحرية،(د.ط)،بغداد، 1980م.

181 ــ فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة،(د.ط)، 1974م.(1ـ5).

182. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل(ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث،(د.ط)،القاهرة،1992م.(1ـ9)

183. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل،البداية والنهاية،تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 1988م.(1ـ8).

184ــ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربيّة،(د.ط) القاهرة، (د.ط).(1ـ4).

185. كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط10، بيروت، 1991م.(1ـ5)

186ــ كحالة ،عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي،(د.ط)، بيروت،(د.ت).(1ـ15).

187. كيلاني، محمد سيّد، الحروب الصليبيّة وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام، دار الكتاب العربي،ط2، القاهرة، 1984م.

188. مالك، كعب بن مالك، الديوان،تحقيق مكي العاني، مكتبة النهضة،ط1،بغداد ، 1966م.

189ـ مبارك، زكي(ت 1952م)، المدائح النبويّة في الأدب العربيّ، دار الجيل ،ط1، بيروت، 1992م.

190. محمد، محمود سالم،المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي،دار الفكر ،ط1، دمشق، 1996م.

191. مجمع اللغة العربيّة، المعجم الوسيط، مطبعة المجمع، ط3، القاهرة . (2.1).

192ـ مراد، مصطفى، معجزات الرّسول ألف معجزة من معجزات الرّسول، دار الفجر للتراث،ط1، القاهرة، 2002م.

193. المرتضى، الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي،الأمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،(د.ط)، القاهرة، 1954م.

194. المرزباني، محمد بن عمران(ت 384هـ)، أشعار النساء، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، عالم الكتب،ط1 ، بيروت، 1995م.

195ـ المرزباني،محمد بن عمران، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، مكتبة النوري، (د.ط) ، دمشق،(د. ت).

196. مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها،مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 2000م.

197. المعرّي، أبو العلاء (ت 449هـ)، اللزوميّات، شرح عمر أبو النصر، دار الجيل،(د.ط) بيروت، 1969م.

198. المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربيّ في العصر العبّاسيّ، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 1983م.

199. المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة(ت 665هـ)،كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1،بيروت ، لبنان، 2002م.(5.1).

200. المقري، أحمد بن محمد التلمساني(ت1041هـ)، أزهار الرّياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، المعهد الخليفي للأبحاث المغربيّة،(د.ط)، القاهرة، 1939م.(5.1)

201ـ المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت،1968م.(8.1).

202ـ المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(ت 845هـ)،<u>السلوك لمعرفة دول الملوك</u>، صححه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م.(1ـ8).

203ـ مكي، محمود علي، <u>أدبيات المدائح النبويّة</u>، الشركة المصريّة العالميّة للنشر- لونجمان، ط1، الجيزة، مصر، 1991م.

204ـ مندور ، محمد ، <u>الأدب وفنونه</u>، دار المطبوعات العربيّة،(د.ط)، بيروت، (د .ت)

205ـ ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي(ت584هـ)، <u>البديع في البديع في نقد الشعر</u>،تحقيق عبدأ مهنا، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1987م.

206ـ ابن منير الطرابلسي، أحمد بن مفلح الطرابلسي(ت 548هـ)، <u>الديوان</u>، قدّم له عمر عبد السّلام تدمري، دار الجيل، ط1، بيروت ، 1986م.

207ـ الموصلي، ابن الشعار(ت654هـ)، <u>قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان</u>،جزء3، تحقيق نوري حمودي القيسي و محمد نايف الدليمي، دار الكتب للطباعة والنشر،ط1، جامعة الموصل، العراق، 1992م.

208ـ النابلسي، عبد الغني(ت1140هـ)، <u>نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبيّ المختار</u>، عالم الكتب، ط3، بيروت ، 1984م.

209ـ ناصف، إميل، <u>أروع ما قيل في مديح الرّسول</u>، دار الجيل، ط1،بيروت، 1999م.

210ـ ابن نباتة، جمال الدين محمد(ت768هـ)، <u>الديوان</u>، نشر محمد القلقيلي، دار إحياء التراث العربي،(د.ط) بيروت(د. ت).

211ـ النبهاني، يوسف بن إسماعيل(ت1350هـ)، <u>المجموعة النبهانيّة في المدائح النبويّة</u>، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1996م. (1ـ4).

212ـ النبهاني، يوسف بن إسماعيل، <u>وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول</u>، مراجعة حسن تميم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1970م.

213ـ النعيمي، عبد القادر(ت 927هـ)، <u>الدّارس في تاريخ المدارس</u>، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي،(د.ط)، دمشق، 1951م. (1ـ2).

214ـ النواجي، شمس الدين محمد بن حسن(ت 859هـ)، <u>المطالع الشمسيّة في المدائح النبويّة</u>، تحقيق حسن عبد الهادي عيسى، دار الينابيع للنشر والتوزيع،ط1، عمّان ، الأردن، 1999م.

215. أبو نواس، الحسن بن هاني(ت200هـ)، **الديوان**، شرح وضبط علي فاعور، دار الكتب العلميّة، ط2، بيروت، 1994م.

216ـ نوفل، محمد محمود قاسم، **تاريخ المعارضات في الشعر العربي**،مؤسسة الرّسالة،ط1، بيروت، 1983م.

217. النويري، شهاب الدين أحمد(ت 733هـ)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، المجلد الثالث، تحقيق يحيى الشامي وآخرون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،لبنان، 2004م.(1-33).

218. النويري، شهاب الدين، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، جزء 16، تحقيق علي محمد هاشم، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2004م.

219. النويري، شهاب الدين، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، جزء 18، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2004م.

220. النيسابوري، مسلم بن الحجّاج(ت261هـ)، **صحيح مسلم**، خرّج الأحاديث على كتب الصّحاح والسنن الستّة صدقي جميل العطّار،دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2003م.

221. الهرفي، محمد علي، **الحروب الصليبيّة وأثرها على الشعر العربيّ**، النادي الأدبي، (د.ط)، الرّياض، 1980م.

222. الهرفي،محمد . **شعر الجهاد في الحروب الصليبيّة في بلاد الشام**، مؤسسة الرّسالة، ط3، بيروت، 1980م .

223. ابن هشام، محمد بن عبد الملك(ت 213هـ)، **السّيرة النبويّة**،تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، ط1،القاهرة، مصر، 1995م. (1-4).

224. هلال، محمد غنيمي، **الأدب المقارن**، دار العودة ، ط2،بيروت، لبنان، 1970م.

225ـ الهلالي، حميد بن ثور(ت 30هـ)، **الديوان**، تحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القوميّة للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1965م.

226. الهواري، صلاح الدين، **المولد النبوي الشريف**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2003م.

227. هيكل، محمد حسين، **حياة محمد**، (د.ط) ، القاهرة، 1358هـ .

228ـ ابن الوردي، زين الدين عمر(ت 749هـ)، تتمة المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، ط1، بيروت ،1970م. (1ـ 2) .
229ـ اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد(ت768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (د.ط)،بيروت، 1970م. (1ـ4).
230ـ اليعمري، ابن سيّد الناس، (ت734هـ)، منح المدح أو شعراء الصّحابة ممن مدح الرّسول أو رثاه، تحقيق عفّت وصال حمزة، دار الفكر ، ط1، دمشق، 1978م.

ج ـ الدّوريّات :

1ـ الآلوسي، نوري شاكر، حالة الشعر في القرن السّابع الهجري، مجلة الأستاذ، كليّة التربية، جامعة بغداد، العدد الأوّل،بغداد، 1978م.
2ـ جبري، شفيق، شعر ابن الساعاتي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد18، الجزء 11ـ12، تشرين الثاني وكانون أوّل 1943م.
3ـ رشيد، ناظم، الأدب عند بني أيّوب، مجلة المورد،وزارة الثقافة والإعلام، العددالثالث، بغداد، مجلد 5، 1976م.

د ـ الرّسائل الجامعيّة :

1ـ البداينه، نعمات جمال، صفوان بن إدريس حياته وشعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردن، 1997م.
2ـ الحمود، نجيه فايز حافظ،البهاء زهير حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن ، 1988م.
3ـ الخطيب، عبد الله فرحان، فتيان الشاغوري حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2003م.
4ـ الديك، محمد ساري، العباس بن مرداس السلمي حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، العراق،1996م.

5. **الصّايغ، هنريت زاهي سابا، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 1980م.**

6. **صيّاد، حسين خضر، ديوان (أهنا المنائح في أسنى المدائح) لشهاب الدين الحلبي تحقيق ودراسة، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، 2002م.**

7. **العمايرة، أيمن فرحان، المدائح النبويّة عند شهاب الدين محمود الحلبي دراسة موضوعيّة وفنيّة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 1991م.**

8. **عمرو،علي عبد الله، تحقيق ديوان الزمخشري ودراسة شعره، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، 1979م. (1-2).**

9. **عيد، محمد صلاح الدين، المدائح النبويّة في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر،1975م.**

10. **عيسى، حسن محمد عبد الهادي، دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، 1980م.**

ملخص الرّسالة:

قامت هذه الدّراسة خدمة للرسول الأكرم، فقد مدح النبيّ في عصور مختلفة منذ فجر الإسلام حتى عصرنا الحاضر، ولكنّ أغلب الدّراسات التي قامت لم يعن فيها أصحابها بمديح الرسول في عصر ظلّ مغيّبا إلى فترات قريبة، والعصر الذي نعنيه العصر الزنكيّ و الأيّوبيّ .

وبما أنّ هذا العصر قد شهد أحداثا مختلفة ، ففيه تسنى للمسلمين صدّ تلك الغارات التي شنها أبناء الصليبيين على ديار الإسلام، ووجد فيه من القادة الأفذاذ الذين عملوا على توحيد شؤون الأمّة، وجمع شتاتها، بعد أن دبّت فيها نار الفرقة والخلاف، نظرا للصراعات المتعاقبة بين أبناء الأمّة، فالحكام شغلوا بتثبيت دعائم حكمهم، فاستغلّ أبناء الصليب هذه الأجواء، وقاموا بالإغارة على بلاد المسلمين مستغلين حالة التفكك والضعف اللتين كانتا سائدتين.

ولكنّ العلماء والفقهاء انبروا لتلك المحاولات التي كان الهدف جليّا من ورائها، وهو دثر معالم الإسلام أوّلا ، وبثّ نار الفرقة ثانيا، وتوطيد دعائم الصليب في أرض الإسلام، وهو حلم طالما راود النصارى، فكان مبتغاهم تخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين، وتلك الفرية لم تدخل إلى عقول الطبقة الخاصّة التي كان تأثيرها كبيرا على العامّة، فانطلقت ألسنة الشعراء والمدّاح ترفع أيديها ضارعة إلى الربّ، مستشفعة بالرسول محمد من خلال صفاته وفضائله وذكر معجزاته، ومعاركه وبطولاته، فضمنتها في قصائد اتخذت طابعا خاصّا ، ولاقت القبول والاستحسان من أبناء الأمّة الغيارى، على دينهم ووطنهم، وكانت تلك المدائح بمثابة إعلان النفير العام ضدّ المحتلين الغاصبين الذين أرادوا القضاء على ما هو إسلاميّ .

وتميّزت تلك المدائح بخصائص ومزايا خاصّة ، فقد جاءت فاتحة فتحا عظيما، وأساسا لما جاء بعدها في العصور اللاحقة ، فالمقدّمة الحجازيّة التي حلت محلّ المقدّمة الطلليّة، وتمجيد الذات الإلهيّة ، وإدخال مظاهر الطبيعة بأغرب أشكالها، وأجمل صورها

وهيئاتها كان ما يميّز المدائح النبويّة في العصرين الزنكيّ والأيّوبي، وما إلى ذلك من المفردات المختلفة التي وردت وكان شعراء المديح في ذينك العصرين هم السّبّاقون للإبداع والتفنن.

وقد قسّم الباحث بحثه إلى أربعة فصول مسبوقة بمقدّمة وتمهيد، ثمّ تحدّثت في الفصل الأول عن الرسول ومديحه في فجر الإسلام، ثمّ في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ، أمّا الثاني فقد خصّصه لأشهر شعراء المديح النبويّ في العصرين الزنكي والأيّوبيّ، وبيّن أثر تلك المدائح في العصور اللاحقة من خلال الفصل الثالث، وجعل الفصل الرّابع تبيانا للخصائص والمزايا الفنيّة لقصائد المديح النبويّ في العصرين الزنكيّ والأيّوبيّ، وختم البحث بخاتمة تحدّث فيها عن أهمّ ما توصّل إليه.

أمّا ما يخصّ المدائح النبويّة من الناحية الفنيّة، فقد تأثّر الشعراء بطابع العصر، من حيث السهولة والوضوح، وهما الشعار الذي من خلاله تسللت المدائح إلى قلوب العامّة، التي شغفت بها وردّدتها في مناسبات مختلفة، أضف إلى ذلك أنّ موضوع تلك المدائح الرئيس شخصيّة النبيّ محمد، فشخصيّته تحتلّ الصّدارة على صعيد العامّة والخاصّة، فهو النبيّ الخاتم، ونزلت عليه المعجزات العظيمة الباهرة، وهدى الأمّة من بعد جهل وطول شقاء، وأخرجها عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، وكان القرآن فخرها، وبه سمت أمّة الإسلام وأصبحت الأمم جميعا تحسد الأمّة على ذلك النبيّ وذلك القرآن.

و يشتمل هذا البحث العلمي على قصائد ومقطوعات اعتمد الباحث فيها على التحليل والمناقشة للاستدلال على الظاهرة والمفردة،أمّا عدد الشعراء الذين عرّف بهم الباحث فهم يزيدون على سبعة عشر شاعرا في العصرين الزنكي والأيّوبي ممن مدح النبيّ، وغيرهم الكثير ممن عاصر النبيّ في فجر الإسلام، وفي العصرين الأمويّ والعباسيّ، والعصر الحديث.

وما توفيقي إلا بالله، إنه نعم المؤمّل .

Abstrat

This thesis provides a great favor to our prophet Mohammed peace be upon him. From the rise of Islam our prophet has been praised till the current time. My concern is a researcher in this study is to discuss the Zinchin and Ayubian age which does not take the favor of our prophet peace be upon him before.

This age witnesses different issues in which Muslims defend their land from invaders . in the Zinkin and Ayubian age we found a lot of great leaders whom great target work is to bring unity to the Islamic country. Leaders in this age spend a lot of time to reinforce their country. In that time Christians attack the Islamic world.

Thinkers and jurist work very hard in defending al Islam from those whom great aim is to strengthen Christianity in the Islamic world which is dream for all Christians. Christians main work was and still is to release Jess's tomp. This issues was faced by poets whom wrote a lot of

poems in which they ask a help from God by our prophets help. In these poems poets gire detailed description to our prophets. Miracles, battles and heroic deeds. Poems were as an advertisement of war in order to defend the Islamic world from those invaders whose goals to destroy or demolish the country.

These poems have special characteristics. These poems were a great entrance, and a solid base from the coming ages. The Hijazian introduction which replace the Talalyan introduction, Allah's respect, and the introduction of nature with its strange froms and beautiful pictures which discriminate the Zinkin and Ayubian ages in addition to many other words used by poets whom were the first to invasion.

The researcher divided his study into four chapters and an introduction. The first chapter was about the praise of our prophet Mohammed peace be upon him at the beginning of the raise of al Islam, Aumayad and abased age. Chapter two was about the most important poets in the Zinkin and Ayubian ages. Chapter three is about the effect of the prophetic poems in the coming ages. Chapter four is about the characteristic of the prophetic poems in the Zinkin and Ayubian ages. The researcher concludes his study with a summary in which he talks about the most important findings of the study.

The prophetic pomes were affected by the nature of the age from ease and difficulty, this slogan is the gate way through which these poems inter to the people's heart. The prophetic poems main concern is our prophets character and his great miracle (al qur'an).

This study contains poems and stanzas which the researcher main concern is to discuss and analysis words and phenomenon. The number of poets in the Zinkin and Ayubian age is more than seventeen whom praise our prophet Mohammed peace be upon him.

The end.

Talal abu sheickha.